

سلسلة الكتب الأساسية في العلوم الإنسانية و الاجتماعية

د. بن عميرة محمد

الفتح الإسلامي لبلاد المغرب

ديوان المطبوعات الجامعية

د. محمد بن عميرة

أستاذ محاضر

جامعة الجزائر

الفتح الإسلامي لبلاد المغرب

الطبعة الثانية



ديوان المطبوعات الجامعية

© ديوان المطبوعات الجامعية 8-2017
رقم النشر: 4.07.4959
رقم ر.د.م.ك (ISBN): 978.9961.0.1143.0
رقم الإيداع القانوني:1717/ 2008

سلسلة الكتب الأساسية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

يصدرها ديوان المطبوعات الجامعية

تحت إشراف نخبة من أساتذة التعليم العالي

تهدف هذه السلسلة بالدرجة الأولى إلى تمكين الطلبة من التمتع بتجربتهم الجامعية والنجاح فيها، وذلك بأن توفر لهم كتبا ثرية بالمعارف في ميادين العلوم الإنسانية والاجتماعية.

وبطبيعة الحال فإن فائدة هذه الكتب تتعدى فئة الطلبة لتشمل مختلف أطراف الشريحة الجامعية من أساتذة وباحثين.

إن اللجنة العلمية المشرفة على هذه السلسلة يسرها أن ينشر أساتذة الجامعة وأصحاب الفكر أعمالهم البحثية فيها وذلك للمساهمة في إثراء المكتبة الوطنية والجامعية وفي توطين هذه العلوم في ربوع الجزائر والبلدان العربية.

مدير السلسلة

أ.د. بوسنه محمود

تلعب اللجنة العلمية دورا استشاريا هاما في هذه السلسلة، حيث أنها تقرأ وتناقش مشاريع الكتب المقترحة للنشر قبل صدورها. مع العلم أنها تتكون من مجموعة من أساتذة التعليم العالي ينتمون إلى مختلف التخصصات ويعملون بمختلف الجامعات الجزائرية.

مقدمة

عندما كنت في مرحلة الليسانس، أحتجت إلى مطالعة بعض القضايا التاريخية التي تمسّ تاريخ بلاد المغرب، بصفة عامة، وتاريخ الجزائر، بصفة خاصة، أو البحث فيها، لم أجد أمامي، لتحقيق هدفي، سوى مصادر عربية قديمة يصعب على إنسان مبتدئ الاستفادة منها، أو مراجع مكتوبة بلغات أجنبية، وبالأخص الفرنسية منها، وكانت لي قناعة راسخة بأن المنهج الذي اتّبعه أصحاب تلك المراجع في تناولهم لمختلف المواضيع التي تمكّنت من الاطلاع عليها هو منهج انتقائي، يقوم على انتقاء معلومات بعينها، من مصادر معينة، لخدْمة أغراض سياسية أو دينيّة أو عرقية خاصة، ومن ثمّ، فهي تفتقد إلى النزاهة وإلى الموضوعيّة.

وكان الكثير، من الجزائريّين يتقاسمون معي هذه القناعة، بدليل رواج فكرة، آنذاك، كان أصحابها يَدْعُون إلى ضرورة إعادة كتابة تاريخ الجزائر، غير أنها بقيت، حتى الآن، كما هو معلوم، حبراً على ورق، ولأكون واضحا، أنا لا أتحدث عن الكتابة في مواضيع تاريخية جديدة وإنما أتحدّث عن إعادة كتابة مواضيع تطرّق إليها الكتّاب أو مؤرخون فرنسيون، قصد تسليط الضوء على الطريقة التي اتبعوها في كتاباتهم تلك واستنتاج مالهم وما عليهم فيها، لغرض تصفيّتها من الشوائب العالقة بها.

وبناء عليه فأنا أختار موضوع "الفتح الإسلامي لبلاد المغرب" كدراسة نموذجية يمكن تعميمها، إن كُتب لها النجاح لتحقيق الهدف المنشود. وأوّل خطوة شملتها هذه الدراسة هي تسليط الضوء على مصطلح بلاد المغرب: حيث حاوَلْتُ فيه تحديد الإطار الجغرافي الذي سيشمله الموضوع، فقمت برسم حدوده في النواحي الشرقية والشمالية والجنوبية، قدر الإمكان، وهي الحدود التي كان الكتّاب، من مؤرخين وجغرافيّين يختلفون، دائما، في أمرها. ولم أتطرق، في ذلك، إلى حدودها الغربية التي فصل فيها المحيط الأطلسي.

بعد ذلك قمت بعرض مادة الموضوع المقترح، كما وردت في المصادر العربية: بدءا بانطلاق عملية الفتح، على يد عمرو بن العاص سنة 21 أو 22هـ/641-643م، وما قام به من نشاط في كل من برقة وطرابلس وزويلة ثم تطرّقتُ إلى دور عبد الله بن سعد ابن أبي سرح، في قيادته لما عُرف بحملة العبادلة سنة 27هـ/647-648م، واستيلائه على

سُبَيْطِلة، ثم انسحابه بعد ذلك إلى مصر، وعودته بعدها إلى المدينة وانشغال المسلمين بحوادث الفتنة الكبرى، وصرفهم النظر عن إفريقية.

وسلّطت الضوء أيضا على الدور الذي لعبه معاوية بن حُدَيْج أو خُديج التُّجيبي، في أحداث ذلك الفتح واختلاف المؤرخين في عدد الحملات التي قادها وتواريخ كل واحدة منها، والانجازات التي حقّقها وخاصة منها الاستيلاء على مدينة جلولاء، وحفر آبار حُدَيْج وإقامة معسكر القَرْن.

وتعرّضت إلى نشاط عقبة بن نافع الفهري في منطقتي برقة وفزّان، قبل تعيينه واليا على إفريقية سنة 50هـ/670م، ثم تأسيسه لمدينة القيروان وعزله بأبي المهاجر دينار سنة 55هـ/675م، وما حقّقه هذا الأخير من إنجازات عسكرية وسياسية وعلى رأسها تُمكُّنُه من ضمّ أمير قبيلة أَوْرَبة البُرنسية إلى صفّه ثم عودة عقبة ليتولّى أمر إفريقية، مرّة ثانية، سنة 62هـ/681-682م، في عهد الخليفة يزيد بن معاوية، وقيامه بحملته المشهورة التي وصل فيها إلى ضفاف المحيط الأطلسي، مرورا ببَغَايَة وبلاد الزّاب وتاهرت وطنجة ووَلِيلَة والسّوس الأدني فالأقصى، والتي قتِل أثناء عودته منها، مع أبي المهاجر، بمدينة تهودة، بالقرب من طُبنةَ، ثغرِ إفريقية آنذاك؛ وانسحاب زُهَيْر بن قيس البَلْوي إلى برقة، أمام كُسَيْلة الذي استولى على القيروان مدّة خمس سنوات.

كما عالجتُ الحملة التي قام بها زُهيْر بن قيس البلوي انطلاقا من برقة، سنة 69هـ/688-689 بعدما زوّده الخليفة عبد الملك بن مروان بالمال والرجال والتي قَتَل فيها كسيلة بسهل مَمسٍّ ثم مغادرته القيروان، فجأة، إلى المشرق ليُقْتل، بدوره، على يد الإغريق الذين قاموا بحملة بحرية على برقة، أثناء غيابه عنها، فلما عاد اصطدم بهم فقتلوه.

وأَلقيْتُ الضوء، بعد ذلك، على حملة حسّان واستيلائه فيها، للمرّة الأولى، على مدينة قرطاجة، عاصمة البيزنطيين في إفريقية وتَلقّيه الهزيمة على يد الكاهنة، بالقرب من الأوراس، وانسحابه إلى برقة ثم قيامه بحملة ثانية وإلحاقه، هزيمة بالكاهنة وقتلها واستيلائه على قرطاجة للمرة الثانية وشروعه في تنظيم البلاد إداريا وكيفية عزله و تعويضه بموسى بن نُصيْر.

وأخيرا بحثت الدور الذي قام به موسى بن نصير، في إتمام عملية الفتح، وما قام به من نشاط سياسي-عسكري، في مختلف مناطق بلاد المغرب، والسياسة التي اتبعها لتحقيق أهدافه والنتائج التي تحصل عليها.

وقد طبّقت في انجاز هذا العمل منهجا يقوم، أوّلاً، على عرض المعلومات المأخوذة من المصادر العربية التي اعتمد عليها أهم المؤرخين الفرنسيين في كتاباتهم عن موضوع الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، وحاولت المقارنة، قدر الإمكان، بين مختلف تلك المعلومات، وتكملة بعضها بالبعض الآخر والتوقّف، كلّما اقتضت الضرورة، أمام البعض منها والقيام بالتعليقات التي رأيتها ضرورية، قصد الوصول، في نهاية الأمر، إلى إنجاز عمل قاعديّ، يُبنى عليه العمل اللاّحق المتمثّل في المقارنة بين المعلومات الواردة في تلك المصادر والدراسات التي اعتمد فيها أصحابها عليها، ومحاولة القيام، في المرحلة النهائية بعملية تقييمية لتلك الدراسات.

وقد اعتمدت، في قيامي بهذه المحاولة، تقريبا، على كلّ المصادر التي استخدمها أصحاب الدراسات المشار إليها، في كتاباتهم، من تاريخية وجغرافية، مغربية ومشرقية ومن أقدمها إلى أحدثها. وإنّي أرجو من الله، عزّ وجلّ، أن يُوفقني فيما أصبو إليه من عمل يهدف إلى إعادة الأمور إلى نصابها، بالتوقف عند الأخطاء التي ارتُكبت في حق تاريخ بلادنا ومحاولة تصليح ما يمكن إصلاحه بتحرّي الموضوعية والنزاهة، قدر الإمكان، ذلك أن عملي هذا، لا يهدف، بأية حال من الأحوال، إلى الدخول في مرحلة جدال عقيم، مع أصحاب هذه المدرسة التاريخية، من أجداد وأحفاد، لكنه يهدف إلى تسليط الضوء على الأمور التي يطغي عليها الطابع السياسي والإيديولوجي، على حساب المنهج التاريخي العلمي المجرّد الذي كان ولا يزال المطمح الرئيسي لهذا التخصص من الدراسات الإنسانية والاجتماعية، وإذا كُتب له أن يبلغه يوما، فسيرقى به إلى صف بَقيّة العلوم وإلاّ سيبقى مجرّد آراء خاصة مطبوعة باتجاهات أصحابها العقائدية والسياسية، شأنها في ذلك شأن الاتجاهات السياسية التي نقرأ ونسمع تعبير أصحابها عنها يوميا في وسائل الأعلام المختلفة.

1- مصطلح بلاد المغرب وحدودها

أ- مصطلح بلاد المغرب:

المعروف أن لفظ المغرب يعتبر أسما إضافيا "يدلّ على مكان من الأمكنة، بإضافته إلى المشرق، ولفظ المشرق كذلك بإضافته إلى جهة المغرب"[1] وتختلف المصادر والمراجع في تحديد إطار المغرب وخاصة من نواحيه الثلاث: الشرقية والشمالية والجنوبية.

ب- الحدود الشرقية لبلاد المغرب:

فيما يخصّ الحدود الشرقية فإنّ أغلب المؤرخين والجغرافيين يجعلونها ما بين بَرْقة والإسكندرية، ومن هؤلاء الإصطخري (ت.340هـ/951م) الذي يقول: إنها "بين الإسكندرية وبرقة، من حدّ بحر الروم (الأبيض المتوسط)، حتى يمضي على ظهر الواحات، إلى بريّة (صحراء) تنتهي إلى أرض النوبة "[2]، أي أنّه يُبيّن حدود بلاد المغرب الشرقية بخط عموديّ - تقريبا. يصعد من أرض النوبة، خلف منطقة الواحات، في ناحية جنوبه الشرقي لينتهي في الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، بين الإسكندرية وبرقة، في شماله الشرقي.

وهذا يتماشى مع رأي المقدّسي (ت. حوالي 375هـ/985م) الذي زار المنطقة، على ما يبدو، وجعل أوّل كوَرِه، "من قبل مصر، برقة" مشيرا إلى أنّ اسمها يطلق كذلك على اسم القصبة[3] ممّا يدلّ على أنّه يقصد إقليم برقة و ليس مدينتها؛ ويدقّق الزُّهري (عاش في غرناطة حوالي 532هـ/1137م) أكثر، في هذا الموضوع، بجعله أوّل بلاد المغرب، من جهة الشرق، جبال برقة وجبال أوثان[4] " وهذه الجبال على آخر عمل مصر وأوّل عمل القيروان "[5]، والقيروان هنا، كما هو واضح، يرادف مصطلح بلاد المغرب، ويبيّن أن كورة برقة تابعة له.

ويقدّر الشريف الإدريسي (ت. حوالي 550هـ/1160م) المسافة بين برقة والإسكندرية، بإحدى وعشرين مرحلة "وهي من الأميال خمسمائة ميل وخمسون

---

1 ابن خلدون: كتاب العبر،ط.دار الكتاب اللبناني 1959، المجلد السادس، ص 193.

2 كتاب مسالك الممالك،ط. ليدن 1967، ص 38.

3 Al- Muqaddasi. Description de l'occident musulman au IVᵉ/ X ᵉ S.. Texte arabe et trad. Française, par Ch. Pellat. Alger 1950. pp.4-5

4 كتاب الجغرافيا، حققه محمد حاج صادق، نشره المعهد الفرنسي بدمشق في:
Bulletin d'études orientales, T. XXI, 1968, p.106

5 المقدسي: المرجع السابق، المرجع السابق، ص 106

ويقدّر الشريف الإدريسي (ت. حوالي 550هـ/1160م) المسافة بين برقة والإسكندرية، بإحدى وعشرين مرحلة "وهي من الأميال خمسمائة ميل وخمسون ميلا، والأرض التي بينهما يقال لها برنيق"[1] ويبدو، من خلال اقتفاء المعلومات التي أوردها الإدريسي، أن برنيق عبارة عن ميناء أو مدينة تقع على نصف مجرى (يوم) من قصر قافز، وهو يقع على بُعد أكثر من أربعة مراحل من قصر طلْميثة أو طُلَيْمثة أو طَلْميشة المعروف، عند سفح الجبل الأخضر [2] (أوثان).

وإلى أرض برنيق هذه تمتدّ، حسب ابن خلدون (ت.808هـ/1406م) جبال دَرَن أي الأطلس[3]، وهي تنتهي حسب الإدريسي " عند البحر، حيث الطرف (الرأس) المسمّى أوثان "[4] والمقصود بهذه الجبال هي سلسلة الأطلس الصحراوي التي يتوقف امتدادها عندما يعرف اليوم ببنغازي.[5]

والذي يمكن استخلاصه من المقارنة بين كلام كلّ من الزهري والإدريسي وابن خلدون: أن منطقة الحدود، بين مصر وبلاد المغرب، أو بين الإسكندرية وبرقة، هي واحدة، وتتمثّل في جبال أوثان أو جبال برقة الواقعة بأرض بَرنيق، وبالضبط فيما يعرف اليوم ببنغازي، حيث يتوقف امتداد سلسلة الأطلس الصحراوي.

مع العلم أن المؤرخين والجغرافين يختلفون كثيرا في تحديد إطار إفريقية، هي الأخرى: فابن أبي دينار القيرواني يجعل حدودها الشرقية في برقة[6] ونفس الشيء بالنسبة للبكري وصاحب كتاب الاستبصار[7] غير أن هذين الجغرافيين المذكورين لم يوضحا ما إذا كان الأمر متعلقا ببرقة المدينة أم الكورة.

ومما أفادنا به ابن خلدون في هذا الموضوع: أن العرف الجاري، في وقته (ق.8-9هـ/14-15م)، بين سكان المغرب، أنهم لم يُدخلوا إقليم برقة ضمنه لأنه "يختصّ

---

1 القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق. تحقيق إسماعيل العربي، الجزائر، 1903، ص 212.

2 نفس المصدر، ص 215 فما بعدها.

3 المصدر السابق، جـ.6، ص 198.

4 القارة الإفريقية، ص 132.

5 أنظر. Mac . guckin de Slane, dans description de l'Afrique Septentrionale, Paris 1965, p.17, note 3.

6 المؤنس في أخبار إفريقية و تونس ، تحقيق و تعليق محمد شمام، تونس، ص 20.

7 المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك،ط. نشره البارون دوسلان، الجزائر 1857،ص 21؛ E. Fagnan, L'Afrique septentrionale au XIIe S. de notre ère, description extraite du Kitab el- istibçar, constantine 1900, p.6.

ومواطنهم"[1] أي أن ابن خلدون هنا نبّهنا إلى قاعدة هامة يتمّ على أساسها وضع حدود بلاد المغرب، وهي أَخْذُ الناحية الديموغرافية بعين الاعتبار، مما يدفعنا إلى البحث عن موضوع "ديار البربر ومواطنهم" في القديم، وهو ما سيساعد كثيرا على وضع إطار أوضح لبلاد المغرب.

وابن عبد الحكم (ت.257م/871م) هو أقدم من تحدّث عن هجرة البربر من فلسطين، وذكر أن مسيرتهم انتهت إلى " لوبية ومَراقية، وهما كورتان من كُوَر مصر الغربية... فتفرّقوا هنالك، فتقدّمت زناتة ومغيلة إلى المغرب وسكنوا الجبال وتقدمت لوّاتة فسكنت أرض أنطابلس، وهي برقة، وتفرّقت في هذا المغرب "[2]، وهو نفس ما ذهب إليه ابن خُرداذبه في كتابه المسالك والممالك، وهو أقدم كتاب جغرافي عربي (تمّ تأليفه ما بين 232 و 272هـ/ 845-885م)[3] وكذلك ابن الفقيه الهمداني (ت. حوالي 290هـ/ 903م).[4]

مع العلم أن ابن عبد الحكم تطرق لهذا الموضوع بمناسبة حديثه عن " ذكر فتح برقة " من قبل والي مصر عمر وبن العاص، بمساعدة عقبة بن نافع الفهري، وذلك حوالي 22هـ/642-م[5]، وكأن ابن عبد الحكم فعل ذلك ليبيّن لقارئه أن أهل برقة الذين صالحهم عمرو بن العاص، وهم " لوّاتة من البربر" كانوا قد استقَروا بها، منذ هجرتهم من فلسطين، إثر قتل ملكهم جالوت، على يد داود، عليه السلام، وبقوا منتشرين بنواحيها أثناء شروع المسلمين في فتوحهم للمناطق الواقعة غرب مصر.

ويتفق الإدريسي(ت.حوالي 550هـ/1160م) مع ابن عبد الحكم في القول باستقرار قبيلة لوّاتة البربرية بأرض برقة[6]، ويعتقد **E. F. gautier** أن اسم لوى أو لوّاتة قد يكون حُوِّل إلى ليبيّين من طرف الإغريق[7]، وهذا بالضبط ما يهمّنا هنا، إن صحّ، لأنّه يبيّن لنا أن إقليم برقة، الواقع شرق إقليم طرابلس، وغرب الإسكندرية، كان منذ القديم إذا

---

1 العبر، 6، 206.

2 كتاب فتوح إفريقية و الأندلس، نشره و ترجمه إلى الفرنسية **A. gateau**، الجزائر 1948، ص 34-35.

3 أنظر Ibn Khurra dàdhbih, dans description du Maghreb et de l'Europe au III / IX e. S ., extrait du Kitab al Masalik wa'l- mamalik », texte arabe et trad.fr. par Hadj-Sadok Mahamad. Alger.1949. pp.2-3

4 Ibn Al Faqih al- Hamadani. extrait du Kitab al- Buldan, dans déscription du Maghreb et de l'Europe au IIIe/ IX e s., texte arabe et traduction française par Hadj- Sadok Mahamad. Alger 1949. p.10 et 38

5 فتوح إفريقية والأندلس، ص 34.

6 القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، ص 212.

7 le passé de l'Afrique du Nord, petite bibliothèque, Payot, paris VI. p.214.

"ديارا للبربر ومواطن لهم" على حدّ تعبير ابن خلدون، ولا يقتصر الأمر على طرابلس و المناطق الواقعة إلى الغرب منها، كما جاء في حديثه عنهم، إلاّ بعد الزحف الهلالي الذي أدّى، كما هو معروف، إلى تغيير ديموغرافي تدريجي، في منطقة برقة، حيث وقعت عملية دمج واسعة هناك، نَجَمَ عنها تعريبٌ كامل لها؛ وقد ذكر ابن عبد الحكم، مرة أخرى، أن " أنطابلس (برقة) ولوبية ومراقية إلى حدّ أجدابية (إلى الشرق منها) كانت من عمل حسّان "[1] عندما عيّنه عبد الملك بن مروان "واليا على المغرب"[2] سنة 74هـ/692-693م. ممّا يمكن اعتباره دليلا على أن هذه المنطقة كانت تابعة لبلاد المغرب، فعلا، في التقسيم الإداري الإسلامي الأوّل.

مع العلم أن مَراقية (Marmique) هي تلك الهضبة الكلسية الممتدّة بين عَقَبة السُّلّم أو العقبة الكبرى، شمالا، ومنخفض الوديان الواقع شرق واحة سِيوَة أو سَنْتَريّة، جنوبا، وبدون شك أن البربر هنا أيضا، كانوا ينتشرون بمراقية هذه والمناطق الواقعة إلى الغرب منها بطريقة مماثلة لما حدث لإخوانهم في الشمال، ودليل ذلك أن المسعودي (ت.346هـ/ 957-958م) يذكر أن صاحب الواحات، في وقته، سنة 332هـ/943-944م " هو عبد الملك بن مروان، و هو رجل من لوّاتة، يركب في أُلوف من الناس، وبَيْنه وبين الأحباش (من النوبة وغيرهم) نحوٌ من ستة أيام، وكذلك بينه وبين سائر ما ذكر من العمائر..."[3] كما يذكر البكري (ت 487هـ/ 1094م) في حديثه عن واحة سنترية: " أن أهلها كانوا بربرا لا عرب فيهم ".[4]

والنتيجة التي يمكن التوصل إليها: أنّه ما دام أغلب الجغرافيين والمؤرخين يعتبرون العَقَبة الكبيرة، أو الكبرى أو السُّلّم، الحدَّ الفاصل، بين مصر، غربا، وبين بلاد المغرب، شرقا. وهي، في نفس الوقت، تَحُدّ مراقية المصرية من ناحية شمالها الغربي، على الرّغم من انتشار السكان البربر، مختلطين بغيرهم، في المناطق الواقعة إلى الشرق منها. ولا شك أن الخط المشكّل لحدودها الغربية والذي يستمر امتداده إلى منخفض الوادي، بين واحة سيوة (سنترية)، غربا، ووادي نَتْرون، شرقا، هو نفسه الخط الذي يحدّ المغرب، من ناحية جنوبه الشرقي، ومصر، من ناحية جنوبها الغربي، بالرغم

---

1 فتوح إفريقية والأندلس، ص 76.
2 نفسه.
3 مروج الذهب ومعادن الجوهر، في تحف الأشرف و .. تحقيق محي الدين عبد الحميد، ط. الرابعة، مصر 1384هـ/ 1964م، مج.1، جـ.2، ص 26.
4 المُغرب، ص 14.

كذلك، من انتشار السكان البربر في الواحات الواقعة شرق سنترية، وهو ما ينسجم مع الخط الوهمي الذي رسمه ابن حوقل، من الاسكندرية شمالا، مرورا بظهر (خلف) الواحات إلى برية (صحراء) تنتهي إلى أرض النوبة جنوبا[1] كما رسمه بعده بقليل الاصطخري (ت.340هـ/951م) حيث جعل امتداده " بين الإسكندرية وبرقة من حدّ بحر الروم (الأبيض المتوسط) حتى يمضي على ظهر الواحات إلى بريّة تنتهي إلى أرض النوبة".[2]

جـ- الحدود الشمالية لبلاد المغرب:

لا يقتصر مشكل حدود بلاد المغرب على الناحية الشرقية بل يشمل أيضا الناحية الشمالية التي ترتسم فيها حدود طبيعية واضحة، وتتمثّل في الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، ذلك أنه، عند اقتفاء أثر هذا الموضوع في كتب الجغرافيا نجدها تختلف فيه كثيرا، ومن ذلك أن كلاّ من ابن خرداذبة (ت.272هـ/885م) واليعقوبي (ت.278هـ/891م) وابن الفقيه الهمداني (ت290هـ/ 903م) أدخلوا الأندلس في إطار المغرب، عندما وصفوه.[3]

ويطلق ابن رُسْتَه (ت. قبل 290هـ/902-903م) تسمية المغرب على الاتجاه الغربي، وليس على إطار جغرافي مُعيّن، ومن خلال إطلاقه تسمية " بحر الروم وإفريقية ومصر" على جزء من البحر الأبيض المتوسط يتبيّن أنه يعني ببحر الروم السواحل الشمالية التي ينتشر فيها بحر الروم، ويعني بإفريقية السواحل الجنوبية، من المحيط الأطلسي إلى حدود مصر.[4]

ويُقسّم الاصطخري (ت.340هـ/951م) الغرب (و ليس المغرب) نصفين ممتدّين على بحر الروم (الأبيض المتوسط)، يمثّل النصف الشرقي منهما الضفة الجنوبية منه، ويمثّل النصف الغربي الأندلس[5]؛ ويذكر في حديثه عن بحر الروم أنه " يأخذ (يبدأ) من البحر المحيط (الأطلسي)، في الخليج الضيّق (المضيق) الذي بين المغرب وأرض الأندلس

---

1 صورة الأرض،ط. الثانية، بريل 1967، ص 60.

2 كتاب المسالك و الممالك، ط. ليدن، 1967، ص 38.

3 أنظر. كتاب المسالك والممالك في Hadj- Sadok Mahammad: op.cit, pp.2-3؛ كتاب البلدان، ص 3، ص 342 فما بعدها من عدة صفحات؛ ابن الفقيه الهمداني: كتاب البلدان في Hadj- Sadok Mahammad, op.cit, p.30 sqq

4 أنظر. كتاب الأعلاق النفيسة في:
Hadj- Sadok Mahammad: Description du Maghreb et de l'Europe au III^{e} IV^{e} S., texte arabe et trad.fr, Alger 1949, p.XIV

5 كتاب المسالك والممالك، ص 36-37.

حتى ينتهي إلى الثغور الشامية "[1]؛ ويقول في مكان آخر " وإنّما تركنا أن نذكر في طول الإسلام حدّ المغرب إلى الأندلس، لأنها مثل الكمّ في الثوب، وليس في شرقي المغرب ولا في غربيها إسلام، لأنك إذا جاوزت مصر في أرض المغرب، كان جنوبي المغرب بلاد السودان وشمالي المغرب بحر الروم ثم أرض الروم".[2]

فالاصطخري إذا، يُدخل الأندلس في إطار النصف الغربي (الشمالي) من المغرب، عند تقسيمه نصفين، ويُميّز المغرب عن الأندلس، عند وصفه بحر الروم، ويجعل الفاصل بينهما مضيق جبل طارق، ويلاحظ أنه عند تجاوز مصر " في أرض المغرب، كان... شمالي المغرب بحر الروم ثم أرض الروم " وبمعنى آخر، فإن هذه الأراضي لا تدخل في دار الإسلام وبالتالي فهي غير تابعة لمغربه.

ويطلق ابن حوقل (ت.378هـ/988م) أحيانا مصطلح بحر المغرب على البحر الأبيض المتوسط، معتبرا جانبه الغربي هو الذي يمتدّ عليه بعض المغرب، من برقة شرقا، إلى أَزِيلَى، غربا، في حين يشمل جانبه الشرقي بلد الروم، من حدود الثغور الشامية إلى جليقية (Galice) ثم باقي ذلك إلى آخره للعرب في يد أصحاب الأندلس[3]، وهذه "جزيرة تتصل بالبرّ الأصغر، من جهة جليقية وإفرنجة، وهي في جملة المغرب".[4]

ولم يوضح ابن حوقل، بالمناسبة، ما إذا كانت صقلية بلد الإسلام " الذي يساير أرض الأندلس ويحاذيه " ملحقة بالمغرب كالأندلس أمْ لاَ. مع العلم أنه عندما يرسم خط الحدود الشمالية للمغرب، انطلاقا من أرض طنجة، على البحر، إلى الإسكندرية[5]، لا يشير إلى الأندلس، هي الأخرى، وكأنه يخرجها هذه المرة، من إطار المغرب، مما يعبّر عن تردّده في هذا الأمر. وعلى العكس من ذلك فإن المقدّسي (ت.375هـ/985م أو 390هـ/1000م) يَعْتَبر كلاًّ من الأندلس وصقلية من جزائر إقليم المغرب.[6]

ويذكر المسعودي (ت.346هـ/ 957-958م) في وصفه لِمَضيق جبل طارق أن " هذا الخليج (المضيق) يسميه أهلُ المغرب وأهلُ الأندلس الزُّقاقَ؛ إذْ كان على هيئة ذلك "[7]

---

1 نفس المصدر، ص 6.
2 نفس المصدر، ص 11-12.
3 صورة الأرض، ص 6.
4 نفس المصدر، ص 60-61.
5 نفس المصدر، ص 61.
6 المصدر السابق، ص 2.
7 مروج الذهب، مج.1، جـ.1، ص 119.

حسب رأيه، كما يذكر، في حديثه عن مرحلة ما قبل الفتح الإسلامي، أن " صاحب صقلية وإفريقية من بلاد المغرب قبل ظهور الإسلام كان يُدعى جرجير، وصاحب الأندلس [كان] يُدعى لُذريق..."[1]، وعند تتبّع مختلف تعابيره يتبيّن أنه أطلق تسمية المغرب على المنطقة الواقعة غرب الاسكندرية، من شمال القارة الإفريقية، وأنه استخدم كلمة الغرب إلى جانب كلمة المغرب، وأدخل في إطـاره صقيلية، في حين أخرج منه الأندلس.

وقد تحدّث أبو عبيد البكري (ت.487هـ/1094م) في كتابه " المغرب في ذكر إفريقية والمغرب"[2] عن إفريقية وبلاد السودان، فحصر حدود إفريقية الشمالية " من برقة شرقا إلى طنجة الخضراء غربا... وعرضها من البحر إلى الرمال التي هي أول بلاد السودان(جنوبا)[3] ويتبيّن من المواضيع التي تطرّق إليها فيه أنه يَعتَبر إفريقية جزءا من المغرب الذي يضمّ الصحراء، ولا يشير فيها إلى الأندلس ولا إلى صقلية.

وبعد البكري بحوالي نصف قرن يجعل الزهزي(ت.532هـ/1137م) من مضيق جبل طارق (الخليج من البحر الأعظم المسمى بالزقاق) الحدَّ الفاصل بين بلاد الأندلس وبلاد المغرب[4] ويضمّ جزر يابسة وميورقة إلى الأندلس[5] وجزيرة صقلية إلى بلاد الإفرنج[6] غير أنّ الشريف الإدريسي (ت. حوالي 550هـ/1160م) الذي عاصره تردَّد كثيرا في فصل المغرب عن الأندلس، فهو لم يحسم الأمر بوضوح.[7]

ولم يتمكّن غير هؤلاء الجغرافيين أيضا من حَسْم مسألة الحدود الشمالية لبلاد المغرب، على الرغم من أن أغلبهم يميل إلى رسمها مع السواحل الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، مما يتطلّب الإستعانة بآراء المؤرخين علّها تساعد على إيجاد حلّ لهذا المشكل؛ وعند اقتفاء أثر ما كتبه أقدم هؤلاء، ابن عبد الحكم (ت.257هـ/871م)، عن " فتوح إفريقية و الأندلس " لا يُلاَحَظ أنه حاول وضع حدود لبلاد المغرب غير أنه يُستنتَج من تعبيره " وافتتح عامة المغرب " وهو يتحدث عن موسى بن نصير أن حدوده الشمالية

1 نفس المصدر، ص 161.
2 وهو الكتاب الذي استخدم في هذا البحث.
3 البكري: المصدر السابق، ص 21.
4 كتاب الجغرافيا، ص 120.
5 نفس المصدر، ص 28، فما بعدها.
6 نفس المصدر، ص 130-131.
7 أنظر. القارة الإفريقية، ص 246؛ المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق للإدريسي، حققه وترجمه إلى الفرنسية محمد حاج صادق ص 172 فما بعدها.

رُسمت بالضفة الجنوبية من البحر الأبيض المتوسط ، بدليل أنّه كفّ عن استخدام لفظ "المغرب" بمجرّد ما شرع في الحديث عن " فتح الأندلس " على الرغم من أن هذه الأخيرة كانت ، بعد فتحها ، تخضع إدارياً لولاة إفريقية ، إلى أن سقطت الدولة الأموية.[1]

وقد استعمل البلاذري (ت.279هـ/892-895م)، هو الآخر، مصطلحي المغرب وإفريقية في تعابيره، مثل ابن عبد الحكم، فأطلق الأولَ على المناطق الواقعة غرب مصر، عموما، وأطلق الثاني على المنطقة التي أصبحت تأوي مدينة القيروان، عاصمة المغرب ؛ ولما تعرّض لذكر خبر الأندلس لم يضف ما من شأنه أن يجعلها داخلة في إطار المغرب أو خارجة عنه، مع أنه استمر في ذكر أخباره حتى بداية الإمارة الأغلبية.[2]

ومما يمكن استنتاجه، عند الاطّلاع، على مضمون كتاب " تاريخ إفريقية والمغرب" للرقيق القيرواني(ت.417هـ/1026-1027م) أن إطار موضوعه لا يتعدّى السواحل الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط وأن مصطلح إفريقية الذي كان يطلق على الإقليم الذي كانت تشرف عليه قرطاجة ثم القيروان بعدها، كثيرا ما كان يرادف مصطلح المغرب الذي كان يطلق على المناطق الواقعة غرب مصر، وكثيرا ما كان يُطلق على الاتجاه الغربي لكن حدوده الشمالية بقيت محصورة في الضفة الجنوبية من البحر الأبيض المتوسط.[3]

ويميّز عبد الواحد المراكشي، في كتابه "المعجب في تلخيص أخبار المغرب" (تمّ تأليفه سنة 621هـ/1224-1225م) بين المغرب وبين الأندلس بكل وضوح، ويُستنتج ، من المعلومات التي قدمها عن مدن المغرب السّاحلية أنه يَعتبر السواحل الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، بمثابة خط الحدود الشمالية للمغرب بدءا بمدينة برقة وانتهاءا بمدينة طنجة.[4]

والنتيجة التي يمكن استخلاصها عند الاطّلاع على ما كتبه ابن عذاري حول هذا الموضوع هو أنه تردّد في إلحاق الأندلس بالمغرب من عدمه[5] ولكن عند أخذ عنوان كتابه " البيان المغرب في ذكر أخبار الأندلس والمغرب " بعين الاعتبار، يتولّد لدينا إحساس بعدم " قناعته بتبعية الأندلس للمغرب، وإلاّ ، كان عليه أن يختار عنوانا أنسب لكتابه.

---

1 أنظر. فتوح إفريقية والأندلس، ص 34 فما بعدها من عدّة صفحات.

2 أنظر. كتاب فتوح البلدان، نشره صلاح الدين المنجد، ط. القاهرة، جـ.1، ص 264 فما بعدها من عدة صفحات.

3 أنظر. تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق المنجي الكعكي، ط.تونس، ص 43 فما بعدها من عدة صفحات.

4 تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، القاهرة 1368هـ/ 1949م، ص 346 فما بعدها من عدة صفحات.

5 أنظر. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج.س. كولان وإ. ليفي بروفانسال، بيروت، ج.1، ص 5-6.

وبالنسبة لعبد الرحمان بن خلدون (ت.808هـ/ 1406م) فإن حدّ المغرب، من جهة الشمال هو البحر الرومي (المتوسط) المتفرع من البحر المحيط " يخرج من خليج متضايق، بين طنجة، من بلاد المغرب، وطريف، من بلاد الأندلس..."[1] وأن هذا البحر الرومي "... يذهب مشرقا... وعليه، من جهة الجنوب، سواحل المغرب: أو لها طنجة... إلى الاسكندرية ".[2]

أمّا ابن أبي دينار القيرواني (عاش في القرن 11هـ/16م) فهو يجعل مصطلح المغرب مرادفا لمصطلح إفريقية تقريبا، يبدأ أولهما من " سيب بحر النيل " ويبدأ ثانيهما من "برقة" لينتهيا معاً في طنجة. وعندما تحدّث عن العرض الذي يمتدّ، من الشمال حيث يحدّه البحر الشامي (المتوسط) إلى الجنوب، لم يشر إلى ما يوحي بأن الأندلس أوّ غيرها تابعة للمغرب أو الإفريقية.[3]

والمؤرخون كما يُلاحَظ منسجمون أكثر من الجغرافيين في تعيين حدود بلاد المغرب الشمالية، فهم، باستثناء تردّد ابن عذاري، يُجمعون على تحديدها بالخط الساحلي لضفّة البحر الأبيض المتوسط الجنوبية، وهذا الموقف المشترك يرجّح كفّة الجغرافيين الذين كانت لهم مواقف متشابهة، وبالتالي يمكن القول: إن أغلب الجغرافيين والمؤرخين العرب يعتبرون حدود بلاد المغرب، من الناحية الشمالية، مرسومة بخطوط السواحل الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، ولا تتجاوزها إلى الأندلس ولا إلى جزر البحر المذكور.

ويدعّم هذه النتيجة، بطبيعة الحال، العنصر الديمغرافي، بحيث أننا إذا طبّقنا القاعدة المعمول بها في رسم الحدود الشرقية والجنوبية، والتي يراعى فيها العنصر البشري باعتبار أن بلاد البربر (La Berberie) هي نفسها بلاد المغرب، وبالتالي ينبغي رسم حدود بلاد المغرب مع نهاية انتشار السكان البربر في كل نواحي البلاد ومنها الناحية الشمالية.

والمعروف تاريخيا أن انتشار البربر شمالا لم يتجاوز الضفة الجنوبية من البحر الأبيض المتوسط إلاّ بعد مساهمتهم الفعالة، في حركة الفتوحات الإسلامية التي اتّجهت إلى الأندلس وجزر البحر الأبيض المتوسط، بعد نهاية القرن الأول الهجري (السابع

1 كتاب العبر، جـ .6، ص 195.
2 نفس المصدر، 6، ص 45-46.
3 أنظر. المؤنس، ص 20.

الميلادي) غير أن الأعداد التي استقرّت منهم هناك كانت محدودة نسبيا، وكانوا مختلطين مع غيرهم، من عرب وسكان أصليّين، وبالتالي فهم لم يكونوا هناك ببلادهم.

د- الحدود الجنوبية لبلاد المغرب:

وفيما يخصّ حدود بلاد المغرب الجنوبية فإن جغرافيّي ومؤرّخي العصر الوسيط يتفقون، عموما، على أن الصحراء كانت دائما تُشكّلها، غير أنّهم لم يحدّدوها بدقة: ذلك أن تلك الصحراء واسعة الأطراف، وهم لا يذكرون، عادة، ما إذا كانت تابعة كليا أم جزئيا أم أنها لم تكن تابعة لها بالمرة، ومن ثمة أصبح من الضروري القيام بسبر أهمّ آراء هؤلاء لغرض الوصول إلى أوضح استنتاج ممكن في هذا الموضوع.

وعند العودة إلى ما قاله ابن عبد الحكم (ت.257هـ/871م) في حديثه عن أخبار حَمْلة عقبة ابن نافع الفهري سنة 46هـ/666م في منطقتي فزّان وكوّار، يُلاحَظ أنه لم يستعمل، بهذه المناسبة مصطلح " السّودان " أو " بلاد السّودان " مما يستنتج منه أنهما لم تكونا تابعتين لهما[1]؛ كما أن اليعقوبي (ت.278هـ/891م) الذي كان يعرف الكثير عن دار الإسلام، بصفته موظفا ساميا في البريد العباسي، لم يُضِف أيّ شيء من شأنه أن يبيّن ما إذا كانت فزّان و كوّار تابعتين لبلاد السودان، بل يتضح من كلامه عنهما أنّه يُدخِلهما في إطار كلامه عن الناحية الجنوبية الشرقية من بلاد المغرب[2]، وأثناء وصفه للمنطقة الجنوبية الغربية من بلاد المغرب يذكر أن بلد السودان يقع بعد أرض غُسْط[3] (أودغست).

وقد أشار الاصطخري (ت. بعد 340هـ/ 951م) أن الرمال تُغطّي حدود بلاد المغرب، من البحر المحيط (الأطلسي) إلى ما وراء سجلماسة، ثم تمتدّ بعدها إلى زويلة فإلى ظهر الواحات بمصر[4]، كما يجعل لبلد السودان حدًّا ينتهي إلى البحر المحيط، وحدًّا له إلى برية (صحراء) بينه وبين أرض مصر، على ظهر الواحات "[5] ثم يذكر أن مدينة زويلة (قصبة فزّان) " من حدّ المغرب... ولها كورة عريضة متاخمة لأرض السودان"[6]

---

1 أنظر. ابن عبد الحكم في:

Joseph M. Cuoq: Recueil des sources Arabes Concernant L'Afrique occ., du VIII au XV^{e} S., trad. et notes par J.M. Cuoq. Paris 1975. pp.45-46

2 أنظر. اليعقوبي في J.M.Cuoq., op.cit., p.345

3 Ibid , pp.226-227

4 أنظر. المسالك والممالك، ص 37.

5 نفس المصدر، ص 10-11.

6 نفس المصدر، ص 40.

والمذكورة التي يتحدّث عنها، بطبيعة الحال، هي فزان، ما دامت زويلة قصبتها، وهو يدخلها هنا صراحة في إطار حدود بلاد المغرب الجنوبية الشرقية؛ ومن الجهة الأخرى، الجنوبية الغربية، يُنهي ابن حوقل (ت.378هـ/988م) حدود بلاد المغرب " بنواحي أرض غانة وأرض أودَغست ".[1]

وعند تأمّل ما قاله البكري في كتابه " المسالك والممالك " (انتهى من تأليفه سنة 460هـ/1068م) عن عرض إفريقية، ويعني بها بلاد المغرب يظهر وكأنه رسم الحدود الجنوبية لما يسميه إفريقية، ويسميه غيره " المغرب "، بدءًا بزويلة ومرورا بقِيطون بيّاضة فسِجلماسة ودَرْعة وتامْدلت ثم نُول.[2]

وقد رسم الإدريسي (ت.560هـ/1160م) خطا يربط بين مدينتي سَنَترِيّة، الواقعة على بُعد تسع مراحل من البحر الأبيض المتوسط (الشامي)، شرقا، وورقلان غربا، مروراً بمدن أَوْجلة وزَالة وودّان وزَويلة، واعتبرها نقاط انطلاق إلى بلاد السودان التي تبدأ بكوّار وكوكو جنوبا[3]، من الناحية الشرقية، ثم راح يحدّد موقع مدينة أرَنْسى، الواقعة على سبع مراحل من مدينة نول لمطة أو نول الغربية، وبثلاث عشرة مرحلة من سجلماسة، والمسماة أَزُقي أوْ أَزْكي بالبربرية، وقُوقْدَم بالسودانية، ليذكر أنها أوّل مراقي (محطات) الصحراء وأن من يقصد مدن سَلَى وتَكْرُور و غَانة السودانية لا بدّ له أن يمرّ بها[4] وأن أقرب مدينة سودانية إليها تقع على بعد خمس وعشرين مرحلة جنوبا.[5]

ومما سجّله صاحب كتاب الاستبصار (تمّ تأليفه سنة 587هـ أو 588هـ/1191 أو 1192م) أن بلاد الواحات كبيرة، في الصحراء، وهي آخر بلاد الإسلام: بينها وبين النُّوبَة ستّ مراحل وأن موقع زويلة في الصحراء، قرب بلاد كانم السودانية وأن غدامس هي نقطة انطلاق المسافرين إلى تادمكة وغيرها من بلاد السودان وأن وارقلان التي تفصلها عن الجريد حوالي أربع عشرة مرحلة، تبعد عن تادمكة، شمالا، بمسيرة خمسين يوما تقريبا، وأن الطريق يتفرع من قرية قيطون بياضة، في بلاد الزاب، إلى

---

1 المصدر السابق، ص 60.

2 انظر المغرب، ص 21 وهنا وهناك.

3 انظر القارة الإفريقية، ص 106 وهنا وهناك.

4 الإدريسي نفس المصدر، ص 127-128.

5 انظر الإدريسي: نزهة المشتاق في J. M.Cuoq : op.cit. p.130

ثلاث اتجاهات، منها واحد يؤدي إلى بلاد السودان، وأن مسافة شهرين تفصل غانة من بلاد السودان عن سجلماسة.[1]

أمّا الزهري (ت. أواسط القرن السادس الهجري/12م) فيجعل الحد الشمالي لبلاد السودان " مما يلي المغربَ " أي في الناحية الغربية بدءا من مدينة نول إلى مدينة أَرَمْسٍ، وهي بدون شك، المدينة التي يسميها الإدريسي أرنسَى، ثم إلى مدينة وارقلان، في الجهة الشرقية.[2]

وقد ورد في كتاب معجم البلدان (تمّ تأليفه سنة 617هـ/ 1220م) لياقوت الحموي أن " زويلة السودان "[3] تقع ما بين بلاد السودان وإفريقية[4] وأن غدامس تقع جنوب المغرب، داخل بلاد السودان[5] وأن سجلماسة تقع في طرف بلاد السودان[6] وأن غانة تقع جنوب المغرب، وفيها يتزوّد التجار أثناء رحلتهم إلى بلاد السودان.[7]

ويُبيّن ابن عذاري المراكشي (ت.نهاية القرن السابع /13م) أن حدود المغرب من السواحل الأطلسية، في اتجاه الجنوب " يتصل (فيها) السوس الأقصى ببلاد الصحراء إلى بلاد السودان، وهي بلاد الزنج "[8] وفي مكان آخر يدخل ابن عذاري بلاد الحبشة في إطار المغرب.[9]

ويذكر ابن خلدون (ت.808هـ/1406م) أن رمالا متحركة تعرف بالعرق، تشكّل خطا مستقيما، لا يقلّ عرضه عن ثلاث مراحل. يمتدّ من المحيط الأطلسي إلى وادي النيل بمصر، فيفصل ما بين بلاد المغرب وبين بلاد السودان[10]، وتوجد وراء العرق، من جهة الجنوب، بعض البلاد الجريدية ذات نخيل وأنهار، تعتبر من بلاد المغرب، ومنها: بلاد بودة وتمنطيت، جنوب المغرب الأقصى، وتسابيت وتيكورارين، جنوب المغرب الأوسط، وغدامس وفزّان وودّان جنوب طرابلس[11]، وإلى ما وراء هذا العرق كانت

---

1 أنظر. مؤلف مجهول، ص 33 فما بعدها من عدة صفحات.

2 أنظر الزهري: المصدر السابق، ص 117-119.

3 نشره أحمد سعيد الشنقيطي سنة 1323هـ/ 1906م، مجلد 8، ص 370.

4 نفس المصدر، ص 268.

5 نفسه.

6 نفس المصدر، مجلد 5، ص 41.

7 أنظر ياقوت الحموي في J.M. Cuoq : op.cit., p.186

8 البيان المغرب، 1، ص 5.

9 نفس المصدر، ص 6.

10 العبر، 6، ص 177-178 (ط. بيروت).

11 نفس المصدر، ص 198.

تنتهي، في بعض السنوات، مجالات أهل صنهاجة ومتقلبهم الجائلين هناك إلى بلاد السودان.[1] والنتيجة التي يمكن استخلاصها مما أفاد به أغلب المؤرخين والجغرافيّين عن حدود بلاد المغرب الجنوبية أنهم اختلفوا في تحديدها كثيرا، كما اختلفوا في تحديد كلّ من الحدود الشرقية والشمالية وهو ما يجعل اللجوء إلى العامل الديموغرافي للفصل في أمرها، شيئا ضروريا.

وفي هذا الباب، بالذات، أورد القزويني (ت.682هـ/1283م) في تعريفه لبلاد السودان، أنها " تمتدّ شمالا إلى بلاد البربر..."[2] كما أطلق الإدريسي، قبله، مصطلح "أرض البربر"[3] على بلاد المغرب، في حديثه عن الصحاري المتصلة الممتدة بينها وبين بلاد السودان، وهو ما ينسجم مع العُرف الذي كان جاريا بين سكان هذه المنطقة والذي تحدّث عنه ابن خلدون، ويقضي أن تسمية المغرب كانت تطلق على ما " كان في القديم ديار البربر ومواطنهم ".[4]

وإذا تمّ التسليم بصحة هذه النظرية يمكن القول: إن بلاد البربر تمتدّ جنوبا إلى بلاد السودان، مما ينسجم مع كلام القزويني، ويبقى علينا عندئذ معرفة إلى أيّ حدّ تمتدّ بلاد البربر جنوبا؟ وإلى أي حدّ تمتدّ بلاد السودان شمالا حتى تكون الأراضي التي يعيش أو ينتشر فيها البربر للبربر، والأراضي التي يعيش أو ينتشر فيها السودان للسودان؟ وللإجابة عن هذه الأسئلة لا بدّ من القيام بعملية مسح لما قاله المؤرخون والجغرافيون في هذا الموضوع.

ومن هؤلاء ابن عبد الحكم (ت.257هـ/871م) الذي ذكر بمناسبة حديثه عن حملة عقبة ابن نافع على بلاد السوس، في ولايته الثانية على المغرب، أن " أهل السوس بطن من البربر، يقال لهم أنبية ..."[5] كما ذكر اليعقوبي (ت.278هـ/891م) بعده أن هؤلاء يوجدون على بعد خمسين يوما من سجلماسة، وهم رحّالة يتلثّمون بعمائمهم، وينتسبون إلى صنهاجة، وبعدهم مباشرة، يوجد بلدٌ يقال له غُسْط (أودغُست) بوادٍ عامر، فيه منازل، ومَلِك " لهم، لا دين له ولا شريعة، يغزو بلاد السودان.[6]

1 نفس المصدر، ص 198 و 200.
2 أنظر القزويني في J.M Cuoq: op.cit., p.199 .
3 المصدر السابق، ص 39.
4 العبر، 6، 201.
5 فتوح، ص 70.
6 كتاب البلدان، ط. بريل، ص 70.

ويجعل ابن الفقيه الهمداني(ت.290هـ/903م) امتداد بلد أنبية على مسافة سبعين ليلة في صحراء قاحلة.[1]

ويتحدّث ابن حوقل (كان حيا سنة 340هـ/ 951-952م) عن سكان من البربر في أطراف البراري والمفاوز التي بين بلاد السودان وأرض المغرب، وعن وجود مياه، في قلب البرّ (الصحراء) عليها قوم منهم أيضا[2] ووجود عدّة قبائل بربرية تعيش في عزلة تامة، فيما بين سجلماسة وبين أودغسْت، ومنها قبائل شرطة وسمسطة وبنومسوفا؛ ولهم مَلِكٌ تُكبِّره صنهاجة وسائر تلك الديار، لأنّهم يملكون تلك الطريق[3]، ووجود "قبائل من البربر المهملين... قوام حياتهم باللّبن واللحم"[4] على المياه الموجودة بداخل براري سجلماسة وأودغست.[5]

وفي وصف البكري (ت.487هـ/1094م) للطريق الرابط بين وادي درعة وبلاد السودان، سجّل انتشار قوم بني يَنْتَسِر الصنهاجيين في المجابة الكبرى، على بعد ثمانية أيام من جبل الحديد المسمّى بالبربرية أدرار إن وزّال[6] القريب من منجم غار جبيلات بنواحي تِنْدُوف في الصحراء الكبرى[7]، وبعدهم، من الناحية الجنوبية، تقع مدّوكن، وهي لصنهاجة أيضا، بينها وبين غانة أربعة أيام[8]، وهناك قبيلة بني لمتونة الصنهاجية، في المناطق الواقعة جنوب جبل أيْزَل[9] أي كدية أيْجَلْ التي صارت تعرف عند الفرنسيين، فيما بعد، بقلعة غورو (Fort Gouraud)، وهم ظواعن، رحالة، يمتدّ مجال تجوالهم مسافة شهرين في شهرين بالصحراء، ما بين بلاد السودان وبلاد الإسلام، ويصيّفون في مكان يُسمَّى أَمَطْلُوس وآخر يُسمى تاليوين، ويغزون السودان على بُعد عشر مراحل من بلادهم.[10]

1 أنظر. ابن الفقيه في J.M .Cuoq: op.cit., p.48

2 صورة الأرض، ص 83.

3 نفس المصدر، ص 101-102.

4 نفس المصدر، ص 84.

5 نفسه.

6 المُغرب، ص 163-164.

7 V.Monteuil : Al – Bakri, Routier de l'Afrique Blanche et Noire dans L'I.F.A.N. T.XXX, série B., n° 1, 1968, p 99. note 2.

8 المغرب، ص 164.

9 المُغرب، ص 164.

10 نفسه.

وخلف بني لمتونة، في المناطق المجاورة للبحر (المحيط) تنتشر قبيلة بني جدّالة الصنهاجية[1]، وهم آخر الإسلام، بينهم وبين أقرب بلاد السودان إليهم مدينة صُنْغانة[2] مسيرة ستة أيام، وفي حدود البئر العظيمة الواقعة ببلد وَارَان، على بُعد خمسة أيام من تِزمين ينتشر بنووارث الصنهاجيون، وعلى مسافة يومين بعدهم تقع آبار أغْرُف الملحة يَرِدُها صنهاجة لسقي إبلها، وبعدها بثلاث مراحل يبدأ جبل أرجُونان، ومنه إلى بئر ...ان الزّقاق مسافة يوم وهناك تبدأ أرض لصنهاجة تمتد على مسافة ثلاثة أيام ليأتي بعدها تلٌّ مُشرف على أودغست التي يقطنها أهل إفريقية وبَرْقجانة ونفُوسة ولوّاتة ...زناتة ونَفزاوة، وهؤلاء أكثرهم.[3]

وتبعد أودغست، حسب الإدريسي، عن مدينة باريسَى السودانية، الواقعة إلى جنوب منها باثنتي عشر مرحلة وبمثلها عن غانة، وبإحدى وثلاثين مرحلة من ورقلان[4] وتتفق أغلب المصادر على القول بأنّ أغلب سكانها كانوا من بربر صنهاجة.[5]

وتحدّث ابن فضل الله العمري (ت. 749هـ/1349م) عن قبائل بربرية تعيش في شمال مالي وتخضع لسيطرة ملوكها، ومن بينها أنْتصر (les Antasar)، وينتغراس (Yantarràs) ومدّوسة (Meddusa) ولمتونة[6] وتحدّث أيضا عن ثلاث ممالك بربرية مستقلة في كل من الآير (Air) وأودغُست وتادمكة، يحكمها ثلاث ملوك مسلمون من جِنْس الأبيض.[7]

وقد اعتبر الحسن الوزّان (ت.1552م) الصحراء المسماة ليبيا باللاّتينية جزءا من إفريقية[8]، وإفريقية عنده هي ما يعرف عند العرب بالمغرب، مع العلم أن كلاّ من الإغريق واللاّتين، كانوا يطلقون تسمية ليبيا على المناطق المحصورة بين نهر النيل (نيل

...ـه.

2 ...ـعنى هذه التسمية في اللغتين العربية والبربرية الزناقية (Znàga) على مقاطعة كايور (Kayor) السنغالية (Sangh... (V.Monteuil : op.cit., p.107, note1)

3 ...ـ مغرب، ص 157-158.

4 ...ـة الإفريقية، ص 89.

5 ...من هؤلاء. اليعقوبي: المصدر السابق، ص 360؛ ابن حوقل: المصدر السابق، ص 100-101؛ ابن سعيد الغرناطي: المصدر السابق، ص 113؛ ويذكر البكري، في مكان آخر أن سكانها من زناتة مع العرب (المصدر السابق، ص 168).

6 Massalik el absar fi mamàlik al Ansàr. traduite par gaudefroy – Demonbynes. Paris 1927 . pp.59...

7 Ibid. p.94

8 ...leon l'Africain. Description de l'Afrique. n^{elle} èd., trad. de L'Italien par A. Epaulard, th. Monod. H. Lhote et R. Mauny, Paris 1880, T.1, pp.4-5

مصر) وبين المحيط الأطلسي، حيثما ينتشر الجنس الأبيض بما في ذلك الصحراء[1] وهو ما يتفق تماما مع فكرة ابن خلدون التي تعتبر المغرب بلادا للبربر، منذ القديم.

فالمعلومات التي زوّدتنا بها المصادر، إذاً، حول التواجد البشري، في المناطق التي تخترقها الطرق التي تربط شمال الصحراء بجنوبها، في الجهة الغربية منها، تبيّن بوضوح انتشار العنصر البربري الأبيض، ولم تُشر، بتاتا، إلى أي تواجد للسودان بتلك النواحي باستثناء ما ذكره الإدريسي من أنّ أهل زغاوة وأهل لمتونة الصحراء قد أفنوا أكثر أهل قمنورية السودان و بدّدوا شملهم على البلاد، وكانت أرضهم تقع شمال أرض مقزارة السودانية، ما بين المحيط الأطلسي وبين صحراء نيسر، ولم يبق منهم في عهده(ق.12م)، سوى قوم قلائل متفرّقين، في تلك الصحراء، بمقربة من السواحل، يتنقلون، مع مهادنة جيرانهم[2]، مع العلم أن الإدريسي لم يتعرّض إلى تاريخ وقوع تلك الأحداث؛ وما أوردهُ البكري، أثناء وصفه للطريق الرابط بين تامدالت وأودغُست، من أنّ السودان كانوا يقطعون الطريق على التجار في جبل أزجونان، الواقع بين أقرتندي وبئر واران[3]، ولم يُضف البكري ما من شأنه أن يساعد على التعرف على هؤلاء السودان.

تلك هي الوضعية الديموغرافية في المناطق الغربية للصحراء الإفريقية. وبالأخص حيث الخط الرابط بين أودغست وأوليل، وما يقع إلى الشمال منه، أمّا النواحي الواقعة وراء ذلك، من النّاحية الشرقية، فقد سجّل البكري فيها، بعد مَوْضع أَوْغَام، شرق مدينة غانة، بأربعة أيام، حيث يوجد رأس الماء. انتشار قوم من بربر صنهاجة المسلمين يسمون مَدَّاسة، في مقابل سودان مشركين بالجانب الآخر من النيل[4] أي من الضفة الجنوبية لنهر النيجر.

وينتشر مداسة كذلك في بُوغْرات، على النيل (النيجر)، بعد سَفَنْقُو، آخر أعمال غانة، في طريق الجادة التي تصل غانة بتادمكة[5] وبعد بُوغرات شرقا، تقع مدينة تيرقّي، مع النيل (النيجر) على ستّ مراحل من رأس الماء، حسب البكري[6] أو مدينة مدّاسة،

1 أنظر. Epaulard et autre. dans Lèon l'Africain: op.cit., p.5. note 12

2 القارة الإفريقية، ص 86-87.

3 المغرب، ص 157.

4 نفس المصدر، ص 180.

5 نفس المصدر، ص 181.

6 نفسه.

حسب الإدريسي[1]، ويجتمع بسوقها أهل تادمكة وأهل غانة.[2] وبعد تيرقّي بثلاث مراحل، مع النيل (النيجر) الذي ينحرف جنوبا إلى بلاد السودان تبدأ بلاد سَغْمارة، وهي قبيلة بربرية في عمل تادمكة، وهذه مدينة مجاورة لتيرقّي، من ناحيتها الغربية، بعضها بربر مسلمون يتلثمون كما يتلثّم بربر الصحراء[3] وقد ذكر ابن حوقل الذي زار الصحراء، في منتصف القرن العاشر الميلادي أن " بني تَنْماك، ملوك تادمكة والقبائل المنسوبة إليهم، فيقال إنّ أصلهم سودان ابْيضّت أبشارهم وألوانهم لقربهم إلى الشمال وبُعدهم عن كوكو".[4]

ويسجّل البكري أنّ المسافر في أحد الطريقين المؤدّيين إلى مدينة غدامس، يسير، بعد خروجه من تادمكة، ستّة أيام، في أرض سغْمارة[5] كما يسجّل الإدريسي أنّ قوم بغمة يعيشون مع الصحراء الممتدّة شمال الخط الفاصل بين بلاد سغمارة ومدينة مداسة الواقعة على ستة مراحل منها، وهم قوم رحالة يرعون جمالهم على ساحل وادٍ يأتي من ناحية المشرق فيصبّ في النيل[6] وأنّ الأرض الواقعة بين مدينة كوكو ومدينة كُوغة التي تبعد عنها بعشرين مرحلة، إلى الجنوب هي أرض بغامة، وهم سودان برابر قد أحرقت الشمس جلودهم وغيّرت ألوانهم، ولسانهم لسان بربر[7]، أي أنّهم بربر سوّدت ألوانهم، ويصف ابن سعيد الغرناطي هؤلاء بأنّهم بربر سودان، من جنس كوكو، ويحدّد أرضهم بالجهة الغربية من النهر الذي تقع مدينة كوكو في شرقه[8]، أي نهر النيجر.

أمّا مدينة كوكو التي تقع على شط النيل (النيجر) المقابل لمدينة تادمكة، وعلى بعد تسعة مراحل منها، فهي للسودان، وفي شرق جبل مَقّورس، الفاصل بينها وبين كانم، ينتشر الكانم وأتباعهم من البربر الذين أسلموا على يد سلطانهم، في شرق ما كان مجالا للزغاويّين، وإلى الشمال من كانم تقع أرض الكوّار[9]، وتقع عاصمتها كوّار

1 ...رة الإفريقية، ص 40.
2 ...المغرب، ص 180.
3 ...المغرب، ص 181.
4 صورة الأرض، ص 105.
5 ...المغرب، ص 189.
6 ...رة الإفريقية، ص 40.
7 ...رة الإفريقية، ص 43.
8 كتاب الجغرافيا، ص 93.
9 كتاب الجغرافيا، ص 96.

حيث الطول 45 0 والعرض 20 0 ودقائق[1]. وأهلها، حسب اليعقوبي، مسلمون من سائر الأحياء، أكثرهم بربر يأتون بالسودان[2]، وقد نَسب الإدريسي، أكثر من مرّة، كوّار إلى بلاد السودان، دون أن يتعرّض للحديث عن عناصر سكانها.[3]

ويلاحظ ابن سعيد أن بلاد كوّار كانت، في عهده، (بداية القرن الثامن الهجري/13م)، على طاعة سلطان كانم، وأنّ أهلها سودان مسلمون تخلّقوا بأخلاق البيض، في لبس الصوف والقطن والرّحلات التجارية[4] ويختلف هذا المؤلف مع الإدريسي في شأن قبائل يطلق عليها تسمية سَنْد راتة ويحدّد مجالاتها شمال شرق كوّار ويصفهم ببربر مسلمين ملثّمين في حين يطلق عليهم الإدريسي تسمية سدراتة، ويروي ما قيل عنهم بأنّهم بربر تشبهوا بالزّغاويّين (السودان) في جميع حالاتهم. وصاروا جنساً من أجناسهم[5] كما يُضيف أن هناك أمّة تُسمّى سغو، من زغاوة، تعيش في جَبَل لُونْيا، جنوب أرض زغاوة.[6]

ويحدّد ابن سعيد مجالات زغاوة هؤلاء، جنوب جبل لونيا الواقع جنوب بلاد كوّار، ويمتدّ من الغرب إلى الشرق، وفي شماله بلاد بركامي، وهم سودان، وفي جنوبه الغربي، تقع مدينة تادمكه، وأهلها بربر مسلمون في طاعة سلطان كانم مثلهم مثل غدامس وودّان وفزّان[7] وكان سكان غدامس، حسب البكري، بربراً مسلمين، وسكان وُدّان، حسب اليعقوبي، يدّعون أنّهم عرب من اليمن ولكن أكثرهم من مزاتة (البربر)[8] في حين يجعل الإدريسي أرضها عامرة بالسودان الذين هربوا أمام الفاتحين المسلمين وتفرّقوا في الصحراء، ولم يبق بها في عهده (ق.6هـ/12م)، كما يقول، سوى مدينة دَاوُد، وهي خراب ويعيش فيها بقايا قوم سودان بسفح جبل طنطنة.[9]

ويجعل اليعقوبي أهل فزّان أخلاطا من الناس غير أنّ ابن حوقل، بعده، يوضح أنّ قبائل من البربر المهملين تعيش على المياه الموجودة في نواحيها[10] وفي جنوبي فزّان

---

1 نفس المصدر، ص 115.
2 كتاب البلدان، ص 345.
3 القارة الإفريقية، ص 99.
4 كتاب الجغرافيا، ص 115.
5 القارة الإفريقية، ص 92-93.
6 نفسه.
7 كتاب الجغرافيا، ص 115 و 127.
8 كتاب البلدان، ص 345.
9 القارة الإفريقية، ص 97.
10 صورة الأرض، ص 84.

وودان تمتد مجالات قبيلة أزكان أو أزكار البربرية[1]، وهم رحالة يصيّفون ويربّعون حول جبل طنطنة[2] الذي يمتدّ من الشرق إلى الغرب على مسافة ستة مراحل، بالقرب من خط الإقليم الثالث[3]، وإلى الشرق من أرض كوّار تقع أرض الواحات الجنوبية[4]، أي واحة تكفرة، وكانت، في عهد الإدريسي، خرَابا، وإلى الشمال منها تقع أرض الواحات الخارجة المعروفة بسنتريّه.

وخلاصة القول: إنّه عند أخذ العنصر البشري بعين الاعتبار يتبيّن أن البربر، من مختلف القبائل، كانوا يتجوّلون في الصحراء طولا وعرضا، ولهم بها مراكز تجمُّع كثيرة، والكثير منها مشرف على بلاد السودان، ومن بينها: نَغيرة، مركز تجمع بني جدّالة، بالقرب من المحيط الأطلسي، جنوب موريطانيا الحالية، ويبعد عن نهر السنغال مسافة ستة مراحل، وأوْلِيل، جزيرة الملح، الواقعة على مجرى (يوم) من نهر السنغال، ثم أُودغست التي تفصلها عن مدينة باريسى السودانية اثنتا عشر مرحلة، وكذلك الأمر بالنسبة لغانة الواقعة في جنوبها الشرقي، وتادمكة، على الحافة الجنوبية للصحراء، في تراز إيفوراس، على بعد تسعة مراحل من مدينة كوكو السودانية؛ وكوّار، غرب كتلة جبل تبستي، وسط الطريق الذي يربط بين فزّان، شمالا، والتشاد جنوباً، وأخيرا، الواحات شمال شرق كوّار.

مع العلم أنّ التواجد البشري البربري، شمال خط تادمكة - أَوْدغُسْت - نغيرة- أوليل، مؤكد أكثر منه، في الخط الواقع شرق تادمكة ونواحي كوّار والواحات، حيث يلاحظ نوعٌ من التداخل العِرْقي بين السكان البيض البربر وبين السكان الزنوج السودان، في مناطق كثيرة.

وفي النهاية يمكن القول: إنّ حدود بلاد المغرب، تبدأ في الناحية الشمالية، عند بداية هضبة برقة أو العقبة الكبرى، عند السّلّوم أو السّلّم، وتتبع سواحل البحر الأبيض المتوسط إلى مدينة سَلاَ، في أقصى الناحية الشمالية الغربية، ثم تنعطف جنوباً على طول سواحل المحيط الأطلسي إلى موقع أوليل، من بلاد جدّالة والتي يُعدُّ مركز تجمّعها (أي قاعدتها) نغيرة، ثم أودغست فتادمكة وكوّار والواحات، في الزاوية الجنوبية- الشرقية، إلى نقطة البداية في السّلّم، في الناحية الشمالية الشرقية.

1- سعيد: المصدر السابق، ص 127.
2- الإدريسي: المصدر السابق، ص 94.
3- سعيد: المصدر السابق، ص 127.
4- نفس المصدر، ص 115.

2- فتح بلاد المغرب

1.2- دور عمرو بن العاص في فتح بلاد المغرب

يَعْتَبِر ابن عذاري " أوّل من دخل إفريقية غازيا ، في زمن عمر بن الخطاب -رضي ـنه عنه- عمرو بن العاص ؛ وكان استفتح مصر في سنة 20 من الهجرة (640-641م) ووجّه منها عقبة بن نافع الفهري إلى لوبية وإفريقية ، فافتتحهما ، ثم توّجه عمرو بنفسه ـى برقة..."[1] المسمّاة " بالرومية الإغريقية بنطابلس ، تفسيره خمس مدن "[2] ومدينتها أي عاصمتها برقة و ذلك سنة21 أو 22 هـ/641-643م[3] فحاصرها وقاتل أهلها ، وهم بربر ـواتة "[4] ، على الجزية ، على أن يبيعوا من أبنائهم من أرادوا في جزيتهم ، وكتب لهم بذلك كتابا."[5] أي عهداً يدفعون بموجبه ثلاثة عشر ألف دينار[6] أو دينارا واحداً على كل حالم[7] ، سنويا ، ولم تكن لوّاتة برقة في حاجة إلى جابي خراج لدفع جزيتها ، بل كانت ترسلها إلى والي مصر ، كلما حان وقتها[8] ولم تدخل بلادها فتنة.[9]

وقد وجّه ابن العاص ، بعد ذلك ، " عقبة بن نافع حتى بلغ زويلة ، وصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين "[10] وبعث يخبر بذلك الخليفة عمر ويعلمه " أن مِنْ بين زويلة وبرقة سلم كلهم ، حسنة طاعتهم ، قد أدّى مسلمهم الصدقة ، وأقرّ معاهدهم بالجزية ، وأنّه قد وضع على أهل زويلة ومَنْ بينه وبينها ما رأى أنّهم يطيقونه ، وأمر عمّاله جميعا ـن يأخذوا الصدقة من الأغنياء فيردّوها في الفقراء ، ويأخذوا الجزية من الذمّة فتحمل ـيه بمصر ، وأن يؤخذ من أرض المسلمين العُشر ونصف العشر ، ومن أهل الصلح صلحهم". [11]

---

1 بيان المغرب ، جــ.1، ص 8.

2 ـكري: المغرب ، ص 4.

3 ـلاذري: كتاب فتوح البلدان ، ص 26.

4 ـ عبد الحكم: فتوح إفريقية ، ص 34.

ـلاذري: نفس المصدر، ص 264؛ البكري، المصدر السابق، ص 4؛ ابن الأثير: الكامل، 2، 429.

5 ـكري: المغرب، ص 4-5، ابن عذاري: البيان، 1، 8.

6 ـكري: المغرب، ص 4، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، ط.الثانية، بيروت 1418هـ/1998م، جــ.2، ص 429.

7 ـ عذاري: البيان،1، 8.

8 ـن عبد الحكم: المصدر السابق، ص 36؛ البلاذري: المصدر السابق، 264.

9 ـلاذري: نفس المصدر، ص 264.

10 ـن عبد الحكم: نفس المصدر، ص 36.

11 ـلاذري: المصدر السابق، ص 264-265.

وفي سنة 22هـ[1]/ 642-643 أو 23هـ/643-644م[2] زحف عمرو على طرابلس وحاصرها مدّة شهر، فتمكّن منها عن طريق الصدفة[3] ولم ينجو من كان بها من الروم، على متن سفنهم التي كانت راسية بمنائها، إلاّ بما خف لهم، وغنم المسلمون ما تركوه فيها[4] ثمّ أرسل عمرو عسكرا كثيفا إلى سبرت[5] (Sabrata) أو حصن سبرة[6]، وكان أهلها تحصنوا منه، عندما بلغهم حصاره لمدينة طرابلس، لكن امتناعها عليه جعلهم يطمئنون ويفتحون الباب لتَسْرَح مواشيهم فصبّحها ذلك العسكر قبل اطلاع سكانها على ما جرى لطرابلس فدخلها وغنم ما فيها ثم رجع إلى عمرو.[7]

ويفيد ابن عذاري أنّ أهل طرابلس استغاثوا أثناء تعرّضهم للحصار "بقبيل من البربر يقال لهم نفوسة، إذ كانوا دخلوا معهم في دين النصرانية "[8] وتقع أرضهم "جبل نفوسة" على بعد ثلاثة أيام من طرابلس، وطول ذلك الجبل، من الشرق إلى الغرب، ستة أيام وأُمّ قُراه"مدينة شروس"، بينها وبين طرابلس خمسة أيام؛ "وافتتح عمرو... نفوسة و... رجع... بكتاب عمر رضي الله عنه"[9]: ذلك أنّ ابن العاص كتب إلى الخليفة عمر، يقول له، حسب ابن عبد الحكم، "إن الله قد فتح علينا طرابلس وليس بينها وبين إفريقية إلاّ تسعة أيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل"[10] مع الإشارة أنّه من الصعب هنا معرفة قصد ابن عبد الحكم من " إفريقية " التي تبعد تسعة أيام عن طرابلس، إنه يريد أن يقول، ولا شك، مدينة إفريقية أي عاصمتها، وكانت آنذاك، كما هو معروف، سبيطلة، مقرّ البطريق جرجير. ومن الطريف ملاحظة أنّ البلاذري عبّر عن نفس الفكرة بأسلوب مغاير[11]، لكنه حدّد في

---

1 ابن عبد الحكم: نفس المصدر، ص 36؛ البلاذري، المصدر السابق، ص 266؛ ابن عذاري: البيان، 1، 8.

2 نفسه؛ البكري: المصدر السابق، ص 8؛ الكندي: المصدر السابق، ص 9.

3 عن طريق اكتشاف مجموعة من الجيش خرجت تتصيّد لمسلك تركه جَزْرُ البحر عن المدينة التي لم يكن يفصلها عنه سور، وبفضل ذلك تسلّلت تلك المجموعة داخل المدينة وسهّلت مهمة بقية الجيش فاقتحمها (ابن عبد الحكم: فتوح، ص 36 و 38؛ البكري: المغرب، ص 8-9).

4 ابن عبد الحكم: نفس المصدر، ص 36 و 38؛ البكري: نفس المصدر، ص 8-9؛ ابن الأثير: الكامل، 2، 428.

5 نفس المصدر، ص 38.

6 ابن الأثير: الكامل، 2، 428.

7 ابن عبد الحكم: فتوح، 38؛ ابن الأثير: الكامل، 2، 428

8 البيان، 1، 8.

9 البكري: المغرب، ص 9-10.

10 ابن عبد الحكم: فتوح، ص 40.

11 يقول البلاذري: وكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب: " إنّا قد بلغنا طرابلس وبينها وبين إفريقية تسعة أيام فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا في غزوها فعل " (فتوح البلدان، 1، 266).

مكان آخر، موقع " برقة " بين مصر وإفريقية[1] أي أنّ إفريقية حسب هذا التحديد، تشمل طرابلس ولا تبعد عنها بتسعة أيام، وهذا، لا شك، ما جعل ابن عذاري يختار تعبيرا أنسب بقوله: إنّ عمرا كتب إلى الخليفة، بعد فتح طرابلس، " يخبره بما أفاء الله عليه من النصر والفتح، وأن ليس أمامه إلاّ بلاد إفريقية"[2] دون أن يتعرّض إلى ذكر موقعها من طرابلس.

ويضيف ابن عذاري أيضا إلى ما كتبه المؤرخان السابقان أنّ " ملوكها كثير وأهلها في عدد عظيم، وأكثر ركوبهم الخيل "[3] وهذا كلام ينسجم تماما مع ما ذكره ابن خلدون من أنّ بلاد المغرب " لم تزل... إلى طرابلس بل وإلى الاسكندرية عامرة...(بالبربر)، ما بين البحر الرومي وبلاد السودان، منذ أزمنة لا يعرف أوّلها... وكان دينهم دين مجوسية، شأن الأعاجم كلهم،... إلاّ في بعض الأحايين، يدينون بدين من غلب عليهم من الأمم.. وقد كانوا دانوا لعهدهم بما تَعبّدوهم به من دين النصرانية، وأعطوهم المهادنة وأدّوا إليهم الجباية طواعية، وكان للبربر في الضواحي وراء ملك الأمصار المرهوبة الحامية ما شاء من قوّة وعدّة وعدد وملوك ورؤساء وأقيال، وأمراؤها لا يرامون بذلّ، ولا ينالهم الروم والإفرنج في ضواحيهم تلك بمسخطة الإساءة... فكان الفرنجة هم الذين ولوا أمر إفريقية ولم يكن للروم فيها شيء من ولاية، وإنما كان كل من كان منهم بها جندا للافرنج ومن حشودهم ".[4]

ومن غير المعقول ألاّ يكون الخليفة عمر قد أُحيط علما بأحوال إفريقية السياسية عندما استشاره عمرو في أمر فتحها، ولا بدّ أن يكون ما وصله عنها من معلومات كافيا لـ " أمْرِه بالإنصراف عنها "، على حدّ تعبير ابن عذاري[5] أو لأن يكتب له حرفيا "لا! إنها ليست بإفريقية ولكنّها المفرّقة غادرة مغدور بها لا يغزوها أحد ما بقيت "[6] كما سمعه أحد أصحابه وهو يقول" إفريقية المفرّقة، ثلث (ثلاث) مرّات، لا أوجّه إليها أحداً ما مقلت عيني الماء ".[7] ويردّ البلاذري سبب وصف عمر لإفريقية بالغادرة لأنّ

---

1 نفس المصدر، ص 264.
2 ابن عذاري: البيان، 1، 8.
3 نفسه.
4 ابن خلدون (عبد الرحمان): كتاب العبر، ط. دار الكتاب اللبناني، 1959، جـ6، ص 212 فما بعدها.
5 البيان، 1، 8.
6 ابن عبد الحكم: فتوح، 40.
7 نفسه.

" أهلها كانوا يؤدّون إلى مَلِك الروم شئا، فكانوا يغدرون به كثيرا "[1] وسبب وصفها بالمغدور بها لأنّ ملك الأندلس كان قد " صالحهم ثم غدر بهم "[2] مضيفا أنّ خبرهم "كان... قد بلغ عمر"[3] وبتعبير آخر أنّ الخليفة عمر كان يعلم أنها كثيرة الاضطرابات .

والذي يمكن استخلاصه من كل هذه الروايات أنّ المعلومات التي توفّرت عن إفريقية للخليفة عمر لم تشجعه، آنذاك، على مدّ حركة الفتح الإسلامي، غرب مثلث برقة - زويلة - طرابلس لكن هذا لا يعني أنّ نشاط المسلمين الرّامي إلى جمع المزيد من المعلومات عن إفريقية والتعرّف عن نقاط ضعفها وقوّتها قد توقف، وهذا ما يمكن أن يفسّر به قول ابن عبد الحكم، " فلما عزل عثمان عَمْرًا بن العاص عن مصر وأمرّ عبد الله بن سعد بن أبي سرح، كان يبعث المسلمين في جرائد الخيل، كما كانوا يفعلون في أيام عمرو، فيصيبون من أطراف إفريقية ويغنمون "[4] ومن هذه الجرائد تلك التي "استأذن عمراً عبدُ الله بن سعد بن أبي سرح... (فيها) فأذن له..."[5] أو أنّه سيّره " إلى أطراف إفريقية غازياً بأمر من عثمان "[6] قبيل عزله به عن مصر وذلك سنة 25هـ[7] أو سنة -/ 645-646م.[8]

2.2- دور عبد الله بن سعد بن أبي سرح في فتح بلاد المغرب

هو عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري[9] واسمه الحسام[10] وهو أخٌ لعثمان بن عفّان من الرّضاعة[11] أو أخوه لأمّه[12] وقد تباغيا[13]، وكان يكتب الوحي إلى الرسول

---

1 فتوح البلدان، 1، 266.

2 نفسه.

3 نفسه.

4 المصدر السابق، ص 42.

5 ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن...) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ط. دار الكتاب المصرية، القاهرة، 1383هـ/1962م، جـ1، ص 66.

6 ابن الأثير: الكامل، 2، 480.

7 ابن تغري بردي: النجوم، 1، ص 65-66؛ قارن، ابن الأثير: الكامل، 2، 480؛ ابن عذاري: البيان، 1، 8.

8 ابن الأثير: الكامل، 2، 482؛ يرجّح ابن تغري بردي أن يكون تاريخ 25هـ/ أصح من 27هـ. (النجوم الزاهرة، 1، ص 66).

9 البيان، 1، 9.

10 النجوم الزاهرة، 1، 79.

11 البيان، 1، 9؛

En- Noweiri: Conquête de l'Afrique septentrionale par les musulmans et histoire de ce pays sous les émirs arabes, dans Ibn- Khaldun, histoire des Berbères et des dynasties musulmanes de l'Afrique septentrionale, traduite de l'arabe par le Baron de Slane, T.1, Paris 1968., p.314.

12 ابن تغري بري: المصدر السابق، ص 79.

13 ابن الأثير: نفس المصدر، 2، 482.

صلى الله عليه وسلم) ثم ارتدّ عن الإسلام، ولحق بالمشركين في مكة، ولمّا فُتِحت استجار بعثمان فأخذ له الآمان من النبيّ، ومنذ ذلك الوقت حسُن إسلامه[1] وله عنه حديث واحد[2] وشارك في فتح مصر إلى جانب عمرو بن العاص[3]، وكان صاحب ميمنة جيشه[4]، وولاه الخليفة عمر صعيدها[5] ولما أفضت الخلافة إلى عثمان كتب يقول له: "إنّ عمرا كسر علي الخراج، وكتب عمرو يقول: إن عبد الله كسر عليّ مكيدة الحرب".[6] ثم إنّ عمرا قدم على عثمان وسأله عزل ابن أبي سرح عن صعيد مصر فلم يكتف عثمان بالامتناع عن ذلك بل فعل عكسه فعزله هو " وعقد لعبد الله... على مصر كلها مضافة للصعيد وغيره "[7] أو أنّ ذلك العزل تمّ بينما كان عمرو" واليا على الاسكندرية فحارب الروم بها حتى افتتحها، وعبد الله بن سعد مقيم بالفسطاط على ولايته حتى فتحت الاسكندرية الفتح الثاني عنوة سنة خمسا وعشرين، ثم جُمع لعبد الله بن سعد أمرُ مصر كله..."[8]، ويردّ ابن تغري بردي سبب اتخاذ عثمان لهذا القرار في تباطؤ قدوم عمرو عليه، بعد اعتلائه عرش الخلافة[9] أو أنّ عثمان، بعد تلقيه مراسلتي عبد الله وعمرو، "عزل...عمرا واستقدمه، واستعمل بدله عبد الله على حرب مصر وخراجها فقدم مغضبا، فدخل على عثمان وعليه جبّة مَحْشوة [قطنا]. فقال له: ما حشو جبّتك؟ قال عمرو... قد علِمتُ ولم أُرِد هذا، [إنما سألتُ أقطن هو أم غيره]؟".[10]

ويلاحظ ابن تغري بردي أنّ ابن سعد " لما وليَ مصر أحسن السيرة في الرعيّة، وكان جوّاداً كريما "[11] ومن الصعب معرفة ما إذا كانت هذه مجرّد ملاحظة عابرة أم أنّها مقارنة بعمرو أو مقارنة به هو نفسه، قبل التولية وبعدها.

وينفرد ابن الأثير بالقول: إنّ عثمان أمر ابن أبي سرح بغزو إفريقية سنة خمس وعشرين (25هـ/645-646م) وكان من جند مصر وقال له: " إنْ فتح الله عليك فلك، من الفيء، خُمس الخُمس نَفَلاً. وأمَّر عبد الله بن نافع بن عبد القيس وعبد الله بن نافع بن الحارث على جندٍ وسرّحهما [إلى الأندلس] وأمَرهما بالاجتماع مع... ابن سعد

1 ـ عذاري: البيان، 1، 9.
2 نفسه.
3 ـ تغري بردي: النجوم، 1، ص 20.
4 ـ تغري بردي: النجوم، 1، 83.
5 ـ المصدر، ص 66؛ الكندي: المصدر السابق، ص 11.
6 ـ الأثير: الكامل، 2، 482.
7 ـ تغري لابردي: النجوم، 1، 66؛ قارن الكندي: المصدر السابق، ص 10.
8 الكندي: كتاب الولاة، ص 11.
9 النجوم الزاهرة، 1، 66.
10 ـ الأثير: الكامل، 2، 482.
11 النجوم الزاهرة، 1، 79.

على صاحب إفريقية وثَمَّ يقيم عبد الله في عمله [ويسيران إلى عملهما]. فخرجوا حتى قطعوا أرض مصر، ووطئوا أرض إفريقية، وكانوا في... عشرة آلاف، من شجعان المسلمين، فصالحهم أهلها على مال يؤدونه، ولم يقدموا على دخول إفريقية والتوغّل فيها لكثرة أهلها".[1] ولما وُلّيَ ابن سعد أمر مصر " أرسل إلى عثمان في غزو إفريقية والاستكثار من الجموع عليها وفتحها ".[2]

وتذكر مصادر أخرى أنّ عبد الله بن سعد، بعدما وُلّي " كان يبعث المسلمين في جرائد الخيل، كما كانوا يفعلون في أيام عمرو "[3] فيصيبون من أطراف إفريقية ويغنمون[4] "كثيراً من الأنفس والأموال"[5] أو أنّه أخرج إليها جريدة خيل فعادت إليه بغنائم كثيرة[6]، فأخبر عثمان بذلك وأحاطه علما بقربها من حوز المسلمين[7] واستأذنه في غزوها[8] وكان متوقفا عنه من قبل[9] فلما وصله خطاب ابن سعد عزم على ذلك[10] واستشار أصحابه فوافقوه على المضيّ إلى الأمام.[11]

ثمّ شرع الخليفة في حشد المقاتلين، لإمدادهم بهم، فلما اكتمل جمعه أمّر عليهم عثمان بن الحرث بن الحكم[12] أو مروان بن الحكم[13] ليسير بهم إليه فيتولّى قيادتهم مع من كانوا معه و" كتب... (إليه) يأمره بغزوها "[14] وإذا " فتحها كان له خُمس الخُمس من الغنيمة نفلاً "[15] وكان ذلك سنة 27هـ/647-648م[16] ولم يتأخر ابن أبي سرح في تنفيذ أمر

---

1 الكامل، 2، 482.
2 نفسه.
3 ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص 42؛ المالكي: رياض النفوس 1، جـ1، ص 8.
4 نفسه؛ نفسه؛ البلاذري: المصدر السابق، ص 267.
5 ابن عذاري: البيان، 1، 9.
6 En- Noweiri : Conquête. p.314.
7 المالكي: رياض، 1، 8.
8 ابن عبد الحكم: فتوح، ص 42.
9 البلاذري: المصدر السابق، 267، 1.
10 نفسه.
11 باستثناء الأعور سعيد بن زيد (المالكي: رياض، 1، 9) أو أبو الأعور سعيد بن زيد (En - Noweiri: Conquête, p.314) بحجة أنه سمع عمر يقول " لا أغزيها أحداً من المسلمين ما حملت عيناي الماء ".
12 ابن عبد الحكم: فتوح، ص 42.
13 En- Noweiri : op.cit., p.316
14 البلاذري: المصدر السابق، 2625.
15 ابن تغري بردي: النجوم، 1، 79.
16 ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص 54؛ البلاذري: المصدر السابق، ص 267؛ المالكي: رياض، ص 10؛ (En- Noweiri, op.cit., p.314)؛ يذكر البلاذري روايتين: تحدّد إحداهما ذلك التاريخ بسنة 28هـ و تحدده الأخرى بسنة 29هـ (المصدر السابق، ص 267)؛ و يحدده ابن خلدون بسنة 29هـ (العبر، 6، 215).

حَنيفة فتحرّك نحوها على رأس عشرين ألف رجل[1] بعدما ترك عقبة بن نافع لينوب عنه في مصر[2] أو أنّ عقبة انضمّ إليه عندما وصل إلى برقة فيمن معه من المسلمين، وكانوا به. وساروا إلى طرابلس فنهبوا مَنْ عندها من الروم "[3] أو أن سرّية تقدّمت على بقية الجيش إلى طرابلس فوجدت بها مركبا قد أُرْست، وعلى متنها مائة راكب فهاجمتهم وتمكّنت من أسرهم ولحق بها ابن أبي سرح قتلهم، وتحصّن أهل طرابلس من المسلمين، فلم يعرضوا لهم، واكتفوا بأخذ ما كان في السفن[4]، أو أنّ ابن سعد بث السّرايا أمام جيشه فلما وصل إلى طرابلس وجد أهلها متحصنين بها فحاصرها ثم أمر برفع الحصار عنها حتى لا يحيد عن الهدف الذي كان نَصْبَ عينيه. وبينما كان أصحابه يتهيأون للرحيل عنها لَمحُوا مراكب وصلت إلى الساحل فأسرعوا إليها وألقوا من كانوا بها في ... فحاولوا الدفاع عن أنفسهم لكنهم سرعان ما استسلموا وقيّدت أيديهم وراء ظهورهم، وكان عددهم أربعمائة، ولما وصل إليهم عبد الله قطع رؤوسهم وغنم ما كان في مراكبهم[5] فكانت تلك أوّل غنيمة أصيبت في تلك الحملة.[6]

وتقدّم ابن أبي سرح نحو قابس فحاصرها، لكنّ الصّحابة أشاروا عليه بالتخلّي عنها حتى لا يحيد عن مشروعه ضدّ إفريقية فواصل طريقه[7] إليها حيث نزل " بموضع يسمّى " قمّونية "، وهو موضع مدينة القيروان "[8]، فيما بعد، وبث السرايا في كل ناحية[9] فكانت تأتيه بالبقر والغنم فتذبح وبالإبل فتُنحر وبالعلف[10] للحيوانات، وأقام بينما كانت الرسل تجري فيها بينه وبين " جرجير "، دعاهُ عن طريقها إلى الإسلام فرفض رفضا قاطعا، فدعاه إلى إخراج " الجزية كلّ عام، فقال لو " سألتموني درهما لم أفعل " فتهيأ الناس للقتال ".[11]

---

1 بن عبد الحكم: فتوح، ص 44؛ المالكي: رياض، 10؛ ابن عذاري: البيان،1،9؛ ابن خلدون: العبر،6، 215؛ En- Noweiri: op.cit., p.316؛ حسب ابن تغري بردي فإن عدد جيش ابن سعد بلغ عشرة آلاف رجل (النجوم الزاهرة،1، 80).

2 En- Noweiri : op.cit., p.316

3 بن الأثير: الكامل،2، 483.

4 المالكي: رياض،1، 10.

5 En- Noweire : op.cit., p.316

6 المالكي: رياض،1، 10؛ En- Noweiri : op.cit., p.316 ;

7 En- Noweiri : op.cit., p.316

8 المالكي: رياض، 1، 12.

9 بن الأثير: الكامل،2، 483؛ En- Noweiri : op.cit., pp.316-317

10 قارن. المالكي: رياض،10،1، En- Noweiri : op.cit., p.317

11 المالكي: رياض، 1، ص 10-11، En- Noweiei : op.cit., p.317 حسب ابن الأثير فإن المراسلة التي دعا فيها ابن سعد جرجير للإسلام أو الجزية، كانت أثناء وقوع المعركة بينهما(الكامل،2، 483).

وتتفق المصادر على القول بأنّ سلطان " جرجير "[1] هذا كان يمتدّ من طرابلس إلى طنجه[2] وكان يلقّب بالملك[3] أو البطريق[4] وكان " هرقل قد استخلفه "[5] أو " ولاّه إفريقية فهو يحمل إليه الخراج كل سنة "[6] ثم خلع جرجيرُ هرقل " وضرب الدنانير على وجهه"[7] أو أنّه كان يحكم البلاد باسمه.[8] ويتفق أغلب المؤرخين على أن مقرّ حكمه كان مدينة "سُبَيْطلة"[9]، ولما علم بخبر زحف المسلمين على إفريقية " جمع لهم... من كان بأمصارها من الفرنج والروم، ومن بضواحيها من جموع البربر وملوكهم."[10] فبلغ عدد من اجتمعوا إليه مائة وعشرين ألف مقاتل.[11]

ولما يئس المسلمون من إقناعه بمطالبهم تهيأوا لقتاله، بعد إعذاره[12] ثم زحفوا إلى أن وصلوا عَقُوبَة[13] وهو سهل واسع يبعد عن مقرّ حكومة الروم (سبيطلة) مسافة يوم وليلة وعن مدينة قرطاجنة بمثلها[14] وهناك نشب القتال بين الطرفين[15] أو أنّه نشب بينهما في سبيطلة[16] نفسها، واستمرّ أياماً.[17]

وتُلقي المصادر العربية الضوء على ما جرى بين الطرفين. منذ لقائهما فتُفيد أنّ المسلمين ضاقوا في أمرهم عندما رأوا كثرة أعدائهم فاختلفوا على أميرهم في الرأي حتى اختلى في فسطاطه ليفكّر في الأمر في حين اشتدّ رُعب جرجير. عندما رأى خيل العرب،

---

1 يسميه ابن خلدون جرير (العبر، 6، 215).

2 ابن عبد الحكم: فتوح، 42، En- Noweiri : op.cit., p.317؛ ابن عذاري: البيان، 1، 9؛ ابن خلدون: العبر، 6، 215.

3 ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص 42؛ المالكي: رياض، 1، 10؛ En- Noweiri : op.cit.317؛ ابن خلدون: العبر، 6، 215؛ ابن الأثير: الكامل، 2، 483.

4 البلاذري: المصدر السابق، 1، 26؛ ابن عذاري: البيان، 1، 9.

5 ابن عبد الحكم: فتوح، 42.

6 ابن الأثير: الكامل، 2، 483.

7 ابن عبد الحكم: فتوح، ص 42.

8 En- Noweiri : op.cit., p.317

9 المالكي: رياض، 1، 12؛ ابن الأثير: الكامل، 2، 483؛ ابن خلدون: العبر، 6، 215؛ أنظر أيضا En- Noweiri : op.cit., p.317 Sq؛ ابن عذاري: البيان، 1، ص 9-10؛ ينفرد ابن عبد الحكم من بين المصادر المستخدمة في جعل مقره مدينة قرطاجنة (فتوح، ص 42).

10 ابن خلدون: العبر، 6، 215.

11 ابن الأثير: الكامل، 2، 483، ابن عذاري: البيان، 1، 10.

12 En – Noweiri Conquête, p.317

13 البلاذري: المصدر السابق، ص 267؛ En- Noweiri :op.cit., p.317 et note 2

14 En – Noweiri : op.cit., p.317؛ أنظر: ابن الأثير: الكامل، 2، 483.

15 البلاذري: نفس المصدر، 267؛ En – Noweiri : op.cit., p.317؛ ابن الأثير: الكامل، 2، 483.

16 المالكي: رياض، 251؛ ابن عذاري: البيان، 1، ص 9-10.

17 البلاذري: المصدر السابق، 1، 267.

وأهمته نفسه فصعد في دَيْدبَانه ليُشرف على القتال[1]، وأمر ابنته فصعدته، هي الأخرى، برُفقة أربعين من جواريها، في الحِلَى والحِلَلِ، ثم وَعد من يستطيع قتل أمير العرب، من كراديسه، بتزويجه آيّاها وإعطائه ما معها من الجواري والنعمه وإنزاله منزلة لا يطمع فيها أحد عنده.[2]

ولما انتهى إلى ابن أبي سرح ما فعله جرجير جمع عسكره وأحاطهم علما بذلك ثم وعد مَنْ يتمكّن، منهم، من قتل جرجيز أن ينفّله ابنته ومن معها، وبعد ذلك، زحف على عدوّه واندلعت المعركة وأشْكَلَ الأمر عليه لقلّة أصحابه، بالنسبة لأعدائهم، فدخل فسطاطه ليفكّر في الأمر، في وقت رأى فيه عبد الله بن الزبير بن العوّام ما اعتبره عورة من جرجير، حيث بدا له منقطعا خلف أصحابه، على برذَوْنٍ، ومعه جاريتان تُظلاّنه من الشمس بريش الطواويس فقصد ابنُ الزّبير ابنَ سعد في فسطاطه وأخبره بما رأى، ولما خرج معه وتأكّد من الأمر مكّنه من اختيار ثلاثين فارسا لحماية ظهره، فخرق بهم صفوف جيش جرجير حتى أدركه وقتله، وتجمع أصحاب ابن الزبير في ذلك المكان، وأخذوا يكرون، فانهزم الروم ولاحقهم المسلمون بالقتل.[3]

أو أنّ الحرب طالت بين الطرفين[4] وانقطع خبر المسلمين عن الخليفة عثمان فسيّر إليهم عبد الله بن الزبير " في جماعة "[5] أو " مع اثني عشر فارسا من قبيلته "[6]، ليأتيه بأخبارهم، فلما وصل كثر الصيّاح والتكبير فيهم، لشدّة سرورهم، فأقام معهم ولاحظ غياب ابن أبي سرح عن ميدان القتال الذي كان يجرى يوميا، من الصباح الباكر إلى آذان الظهر، وقيل له إنّ سبب ذلك الغياب يعود إلى كونه سمع مناديً جرجير يقول " من قتل عبد الله بن سعد فله مائة ألف دينار وأزوّجه ابنتي " فخاف على نفسه[7] أو أنّ وصول ابن الزبير من المشرق كان ليلا، وفي الغد أمّ صلاة الصبح ثم خرج، مع المسلمين، لقتال الروم فكبّدهم خسائر معتبرة ولم ير ابنَ سعد في ساحة القتال، وقيل له إنّه لم يغادر فسطاطه، منذ عدّة أيام، ولم يكن ابن الزبير قد قابله بَعدُ، فحضر عنده وأبلغه تعليمات عثمان، ثم سأله عن سبب ابتعاده عن المعارك، فأجابه بأنّ ملك الروم أمر مناديا يقول لهم وللمسلمين باللغتين: الرومية والعربيّة " من قتل عبد الله بن سعد

1 ابن عذاري، البيان،1، 10.
2 نفسه؛ المالكي: رياض، 1، 14.
3 ابن عذاري: البيان،1، ص 10-11؛ المالكي: رياض،1، ص 14-15.
4 En- Noweiri : op.cit., p.317
5 ابن الأثير: الكامل،2، 483.
6 En- Noweiri : op.cit., p.317
7 ابن الأثير: الكامل،2، 483.

أزوّجه ابنتي وله مائة ألف دينار "، وكانت ابنته، ذات جمال خارق. ترافقه في المعركة، على ظهر جواد، وشرح ابن سعد لابن الزبير أنّ سبب تخوّفه يعود إلى كون غالبية مرافقيه حديثي عهد بالإسلام، فخشي أن يؤثر فيهم إغراء جرجير فيقتلوه.[1]

ومهما كان فإنّ ابن الزبير أشار على ابن أبي سرح أنْ يأمر منديا ينادي في جيشه حتّى يسمعه الروم: " أيها المسلمون والروم، من قتل منكم الملك جرجير نفلتُه ابنته ومائة ألف دينار "[2] أو أنْ يأمر " مناديا ينادي: " من أتاني برأس جرجير نفلته مائة ألف وزوّجته ابنته واستعملته على بلاده ففعل ذلك، فصار جرجير يخاف أشدّ من عبد الله"[3]، واستمرت الحرب، كما كانت من قبلُ، إلى أن خطرت ببال ابن الزبير فكرة، فسار إلى ابن سعد ليلا وعرضها عليه فوافقه عليها[4]. وتقضي تلك الفكرة تطبيق خطة تكتيكية جديدة، في اليوم الموالي، بترك جماعة من أبطال المسلمين في خيمهم متأهبين ويذهب رفاقهم، كما جرت العادة، لقتال الأعداء حتى يضجروا ويملوا. فإذا رجعوا إلى خيامهم، ورجع المسلمون، ركب من كان في الخيام ولم يشهدوا القتال، وهم مستريحون فيفاجئوهم.[5]

وبعد سماع هذا الاقتراح أحضر ابن سعد جماعة من أعيان الصحابة[6] واستشارهم فلم يعارضوا الخطة المطروحة فطبّقها في الغد. حيث دفع من قتلوا " الروم إلى الظهر قتالا شديداً "[7] بقيادته، هو شخصيا، مع ابن الزبير وأحسّ الطرفان بحرارة شديدة، وكان ملك الافرنج (جرجير) يشجّع جيوشه وهو يمتطي جواده ومعه لواء (étendard) وصليب، وعلى رأسه تاج (diadème) يعبّر عن مكانته المرموقة[8] فلما أُذّن لصلاة الظهر، همّ الروم بالانصراف، على العادة، فلم يمكّنهم ابن الزبير وألحّ عليهم بالقتال حتى أتعبهم ثم عاد عنهم هو والمسلمون وألقى كل من الطائفتين سلاحه، ووقع تَعِباً وعندئذ " أخذ عبد الله بن الزبير من كان مستريحاً. من شجعان المسلمين، وقصد الروم فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم وحملوا حملة رجل واحد وكبّروا فلم يتمكن

---

1 En- Noweiri : op.cit., p.318-319

2 En- Noweiri : op.cit., p.319

3 ابن الأثير: الكامل،2، 483.

4 En- Noweiri : op.cit., p.319-320

5 ابن الأثير: الكامل،2، 483؛ En- Noweiri : op.cit., p.320

6 ابن الأثير: الكامل، 2، 484.

7 نفسه؛ En – Noweiri : op.cit., p.320

8 En – Noweiri : op.cit.320

الروم من لبس سلاحهم حتى غشيهم المسلمون، وقُتل جرجير، قَتلَه ابن الزبير، وانهزم الروم، وقتل منهم مقتلة عظيمة ".[1]

فعبد الله بن الزبير، حسب هؤلاء المؤرخين الثلاث، كانت له حصة الأسد في النصر المسجل بهذه الحرب التي دارت رحاها بين المسلمين بقيادة عبد الله بن أبي سرح وبين الروم أو الفرنج ومن معهم من الأفارقة والبربر، بقيادة جرجير، لكنّ الدّور الذي أسنده إليه ابن عذاري يختلف في تفاصيله عن الدّور الذي أسنده إليه كل من ابن الأثير والنويري، فقُدُومُه من المشرق، بالنسبة للمؤرخ الأول، كان ضمن الجيش الذي قادهُ ابن أبي سرح وبرز دوره بفضل اكتشافه خللاً تكتيكيا في صفوف العدو فأحسن استغلال الفرصة فيه، بفضل ما وفّره له ابن سعد من وسائل بشرية وحقّق النصر لأصحابه.

أمّا بالنسبة للمؤرخيْن الأخيريْن فإن الخليفة عثمان هو الذي أوفده، من المشرق، يأتيه بأخبار الحملة، بعد انقطاعها عنه، وكان وصوله مفيداً جداً لابن أبي سرح، فهو الذي أشار عليه بما ينبغي عمله للتخلّص من حالة الخوف التي كانت ترتابه نتيجة المكافأة التي وعد بها جرجير من يقتله، وهو الذي رسم له الخطة التكتيكية التي مكّنته من تحقيق النصر النهائي على أعدائه.

لكنّ أبا بكر المالكي لم يتعرّض للتفاصيل التي أوردها المؤرخون المذكورون أعلاه، و بالنسبة إليه فإن ابن سعد " زحف... إلى جرجير الملك، فلقيه في خلق عظيم من الروم... والتحم القتال، ووقع الصبر، حتى ظنّ الناس أنه الفناء. فانهزم "جرجير"، ولزمه عبد الله بن الزبير في عجاج الموت، فعرفه، بمن معه من أشراف قومه، ففرّق عنه أصحابه، وقتله إلى جانب السور ".[2] كما أشار نفس المصدر إلى رواية الواقدي التي ينسب فيها ابن الزبير لنفسه قتل جرجير، دون أن يسند إليه أي دور آخر، مما يعني، حسب هذا المؤرخ أنّ وصول ابن الزبير إلى جرجير وقتله وهو "في عجاج الموت" كان عن طريق الصدفة ولم يكن ناجما عن تخطيط مسبق مع العلم أن المعلومات التي ذكرها ابن عذارى في شأن جرجير وابنته لم تكن تخفى على المالكي إلا أنّه يبدو، من خلال الأسلوب الذي تناولها به، "وقيل..."، أنّه لم يكن شخصيا مقتنعا بصحتها[3]

---

1 ابن الأثير: الكامل،2، 484؛ En- Noweiri : op.cit., p.321
2 رياض النفوس، 1، 12.
3 أنظر. رياض،1، ص 14-14.

وهو هنا أقرب إلى المنطق من غيره بل هناك، من المؤرخين، من يشك أصلا في أن يكون ابن الزبير هو قاتل جرجير، وهو ما يستنبط من قول ابن عبد الحكم " وكان الذي ولى قتله، فيما يزعمون، عبد الله بن الزبير."[1]

ويتّفق كل من المالكي وابن عذاري على القول بأنّ خيول المسلمين سبقت الروم إلى باب حصن سُبيطلة، بعد هزيمتهم، فحالوا بينهم وبين الدخول إليه وطاردوهم في السهل والوعر وقتلوا أنجاهم وفرسانهم[2] وبلغ عدد أسراهم، في بعض الأماكن، أكثر من ألف أسير[3] لكنّ النويري يذكر أنّ بقايا الروم فرّوا، بعد الهزيمة إلى المدينة، ونهب المسلمون معسكرهم، وأُسرت ابنةُ جَرجير[4] التي كانت تنظر إلى قاتل والدها من السور الذي قُتل إلى جانبه.[5]

ولما تنازع الناس في قتله لجأ إليها ابن أبي سرح في التعرّف على الفاعل فدلّته على ابن الزبير، فنفلها له[6] أو أنّ ابن سعد سألها، عندما أُخذت إليه، عن مصير أبيها فأجابته بأنّه مات، ولما طلب منها التعرّف على من قتله وأحضر أمامها كل الذين ادّعوا ذلك، دلّته على ابن الزبير فوهبها له.[7]

ويردّ المالكي سبب هذه الهبة إلى أنّ ابن الزبير كان "صاحب الأفاعيل ذلك اليوم"[8] دون الإشارة إلى قتله جرجير وما تبع ذلك من تعرّف ابنته على القاتل، ويقول ابن خلدون بأنّها " اختصّت... بقاتله، عبد الله بن الزبير، لعهد المسلمين له بذلك، بعد الهزيمة، وخلوصه بخبر الفتح إلى الخليفة والملأ من المسلمين بالمدينة "[9] المنوّرة، وابن خلدون، هنا، كما يلاحظ، يتحدّث عن عهد المسلمين له بها " بعد الهزيمة " وليس قبلها مضيفا سببا آخر لهذا الاختصاص، وهو الخلوص بخبر الفتح إلى الخليفة[10]، وهذا ما يُمكن استنتاجه أيضا من قول ابن الأثير، وهو يتحدّث عن ابن أبي سرح: "ونَفَل عبدُ الله ابن الزبير ابنه الملك وأرسله بالبشارة بفتح إفريقية"[11] وكأن ابن الأثير ربط

1 فتوح إفريقية والأندلس، ص 42.

2 رياض النفوس،1، 12؛ البيان، 1، 11.

3 البيان،1، 11.

4 Conquête, p.321

5 المالكي: رياض،1، 12.

6 ابن عذاري: البيان،1، 320-321؛ أنظر المالكي: رياض، 1، 13.

7 En- Noweiri : op.cit. , p.31

8 رياض، 1، 12.

9 العبر،6، 215.

10 ابن خلدون: المصدر السابق،6، 215.

11 الكامل،2، 484.

الإرسال بالنَّفَل، دون الإشارة إلى مكافأته عن قتل جرجير، مع أنه سبق له وأن تحدّث عن دوره في قطع ابن أبي سرح لوعده بمكافأة قاتلته وفي إلحاق الهزيمة بالروم وقتْل بطريقهم؛ مع العلم أنّ ابن عبد الحكم يشير، في إحدى رواياته، إلى أن ابن أبي سرْح "بعث... بالفتح عقبةَ بن نافع "[1] ويشير في أخرى أنّه " كان وجّه مروان بن الحكم إلى عثمان من إفريقية"[2] مع اعترافه أنه لا يدري ما إذا كان ذلك في الفتح أم بعده[3]، ويرجّح أن يكون المبعوث إلى عثمان هو ابن الزبير[4] وهذا ما تذهب إليه مصادر أخرى.[5]

فأغلب المصادر، إذن، تجعل ابنة جرجير من نصيب عبد الله بن الزبير، مع اختلافها في ذكر تفاصيل موضوع ذلك، ويشير بعضها إلى ما يقال من أنّه اتّخذها أم ولد[6] ويشير البعض الآخر إلى أنّ ابن الزبير، عَلِمَ، أنّها كانت تشرف على عسكر العرب، مع أبيها، قبل اندلاع القتال فاستقلّتهم وقالت له: " لا تسرع بالقتل في هؤلاء، وانحلنيهم " فقال: " قد أنحلتكهم " ثم وقعت المعركة التي قتل فيها أبوها وهزم جيشه وهي تنظر فلما نُفِلت له قال فيها:

إِبنةَ جرجير تَلقّي نحلتَك ❖❖❖ لقيت بالنّحلة ثكلى أبتك

لتأخُذن في الطريق عقبتك ❖❖❖ لتسقّين شرّ ماء قربتك

شرّ عجوز بالحجاز ربّتك[7]

وذُكرَ في رواية أخرى أنّ ابن الزبير عندما وصل من سبيطلة إلى المدينة " وكان يومئذ ابنَ بضعٍ وعشرين سنة... كان يرتجز لابنة جرجير البطريق، ويقول:

يا ابنة جرجير ننهي غضبك ❖❖❖ ستبصرين في الحجاز ربّتك

ما أحسن الوجه وأجلى مقلتك ❖❖❖ لتحملنّ من تدير قربتك

لتعظمنّ في الإماء لقمتك "[8]

1 فتوح إفريقية و الأندلس، ص 48.
2 نفس المصدر، ص 50.
3 نفسه.
4 نفس المصدر، ص 48.
5 ومنها المالكي: رياض،1؛ En- Noweiri : op.cit., pp.322-23؛ ابن عذاري: البيان، 1، 12-13.
6 ابن عذاري، البيان،1، 12 ؛ En – Noweiri : op.cit., p.322
7 المالكي: رياض،1، 13.
8 المالكي: رياض،1، 15.

وهناك رواية تفيد أنّ ابنة جرجير " صارت لرجل من الأنصار، في سهمه، فأقبل بها منصرفاً، قد حملها على بعير له فجعل يرتجز.

يابنةَ جَرجير تَمشي عُقبَتَك ❖❖❖ إنَّ عَلَيكِ بالحجاز ربَّتَك

لَتَحمِلَنّ مِن قُباء قربَتَك[1]

ولما سألت عمّا يقول " هذا الكلب فَأخْبرت بذلك فألقت نفسها عن البعير الذي كانت عليه، فاندقّت عنقها فماتت "[2] والذي يتبيّن للباحث المتمعّن في كل ما قيل عن ابنة جرجير وعبد الله بن الزبير، لا بدّ وأن يقتنع، في نهاية المطاف، أنّ الأمر لا يتجاوز حدود أسطورة يصعب أن يستنتج منها أكثر مِنْ أنّ كليْهما كان معنيا بتلك الحرب وأنّ ابنة جرجير ربّما كانت من نصيب ابن الزبير في الغنيـمة.

ومهما كان مصير ابنة جرجير فالمهمّ أنّ ابن أبي سرحٍ نزل على باب مدينة سبيطلة وحاصرها حتى فتحها[3] و "وجد فيها سبيا كثيرا وأموالا جمة عظيمة... أكثرها ذهبا"[4] أو " ذهبا وفضّة "[5] أو أنّه " رأى فيها من الأموال ما لم يكن في غيرها "[6] وكان يُوضع بين يديه " الكوم من الورق (الفضة)"[7] أو " أكوام الذهب والفضّة "[8] لأنّه " هو الذي افترع إفريقية "[9] أو أنّه افترعها " بكراً " على حدّ تعبير ابن عذاري[10] فلما سأل الأفارقة عن مصدر تلك الأموال أتاه أحدهم بزيتونة[11] أو بنواة زيتون[12] وشرح له " أنّ الروم ليس عندهم زيتون "[13] أو أنّ " أهل البحر والجزُر ليس لهم زيت "[14] فكانوا يشترونه منهم بهذه الأموال.

---

1 ابن عبد الحكم: فتوح إفريقية و الأندلس، ص 46؛ ابن الأثير: الكامل، 2، 484.

2 ابن عبد الحكم: فتوح إفريقية و الأندلس، ص 46.

3 المالكي: رياض،1، 12؛ ابن الأثير: الكامل، 2، 484؛ En – Noweiri : op.cit., p.322؛ ابن خلدون: العبر، 6، 215؛ وينفرد ابن عذاري من بين المصادر المستخدمة في هذا البحث باعتبار مدينة جرجير العظمى التي فتحت بعد قتله وهزيمة جيشه هي قرطاجنة. (ابن عذاري : البيان، 1، 12).

4 المالكي: رياض، 1، 13.

5 En – Noweiri : op.cit., p.322

6 ابن الأثير: الكامل،2، 484.

7 ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص 46.

8 ابن عذاري: البيان، 1، 12.

9 ابن عبد الحكم: المصدر السابق، 46.

10 البيان،1، 12

11 ابن عبد الحكم: المصدر السابق، 12.

12 ابن عذاري: البيان،1، 12.

13 ابن عبد الحكم: المصدر السابق، 46.

14 ابن عذاري: البيان، 16،12.

وقد بثّ ابن أبي سرح السّرايا وفرّقها فبلغت قصور[1] أو قصر[2] قفصة كما بلغت، حسب المالكي "موضعا يقال له" قرطاجنّة "[3]" ووصلت حسب النويري إلى مرماجنّة[4]، وانساحت، حسب ابن خلدون، في البسائط بالغارات، ووقع بين المسلمين " وبين البربر، أهل الضواحي، زحوف وقتْل وسبي. حتى لقد حصل في أسْرهم، يومئذ من ملوكهم، وَزْمَارُ بن صقلاب (صولات)، جدّ بني خزر، وهو يومئذ أمير مغراوة وسائر زناتة، ورفعوه إلى عثمان بن عفان فأسلم على يده، ومنّ عليه، وأطلقه، وعقد له على قومه "[5] وقد يكون وزمار وصل عثمان وافداً.[6] وأصاب المسلمون من تلك الغارات غنائم كثيرة، وساقوا من السبي والمواشي ما قدروا عليه[7] ونالت هزيمة سبيطلة والوقائع التي تلتها من عزائم الروم فلجأ بعضهم إلى جزيرة شريك، الواقعة بين مدينتي سوسة وتونس، " وتبادروا منها إلى مدينة إقليبية وما حولها، ثم ركبوا منها إلى جزيرة قوسرة، وهي بين صقلية وإفريقية، و... أقاموا بها إلى خلافة عبد الملك بن مروان فأغزا عبدُ الملك ابن مروان عبدَ الملك بن قطن في البحر ففتح ما كان هنالك من الجزائر والقصور، خرّ بها وقفل ظافرا "[8] ورعب البعض الآخر " رعبا شديداً، فلجأوا إلى الحصون والمعاقل، ثم طلبوا من عبد الله بن سعد أن يقبض منهم ثلاثمائة قنطار من الذهب، في السنة، جزية، على أن يكفّ عنهم ويخرج من بلادهم ؛ فقبل ذلك منهم "[9] أو أنّ البعض منهم فقط لجأوا إلى الحصون والمعاقل وتجمعّت غالبيتهم في سهل الأَجَمّ، حول حصن كان من أقوى حصون مقاطعة إفريقية، ومن هناك بعثوا إلى ابن سعد يعرضون عليه ثلاثمائة قنطار (Talents) من الذهب، على أن يكفّ عنهم ويغادر بلادهم، فأبدى بعض التحفضات ثم قبل عرضهم[10] أو أن ابن أبي سرح " سيّر عسكراً إلى حصن الأجمّ، وقد احتمى به أهل تلك الناحية فحصره وفتحه بالأمان.

---

1 المالكي: رياض،1، 13 ؛ En -- Noweiri : op.cit.. p.322

2 ابن عذاري: البيان،1،12.

3 رياض،1، 13.

4 op.cit., p.322

5 العبر، 6، 215-216.

6 نفس المصدر،6، 216.

7 ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص 42؛ البلاذري: المصدر السابق،1، 267؛ المالكي: رياض،1، 12؛ En – Noweiri : op.cit.. p.322

8 البكري: المغرب، ص 45.

9 ابن عذاري: البيان،1، 12.

10 En – Noweiri : op.cit.. p.322؛ قارن. ابن خلدون: العبر،6، 216؛ البلاذري: المصدر السابق،1،267-268.

فصالحه أهل إفريقية على ألفي ألف وخمسمائة ألف دينار "[1] أو أنه " أقام... بسبيطلة على عسكره، فلما رأى الرّومُ، الذين بالساحل، ما حلّ " بجرجير" وأهل سبيطلة، غارت أنفسهم وتجمعوا، وكاتب بعضهم بعضا في حرب ابن أبي سرح، فخاف منهمَ لَما معه من الغنائم، فكتب إلى خليفته، بمصر، يأمره أن يُنفذ إليه مراكب في البحر يجعل فيها غنائم المسلمين، فأخذ خليفتُه بما أمره به، فاتصل بالروم قصدُ ابن أبي سرح إيّاهم واستقتاله في حربهم، فخافوه وراسلوه، وجعلوا له جعلاً على أن يَرحل بجيشه ولا يعترضوه بشيء، ووجهوا إليه مائة قنطار ذهبا، فأجابهم إلى ذلك"[2] أو أن بَطريقَ إفريقية " صالحه على أَلْفي ألف دينار وعشرين ألف دينار "[3] (2.520.000 د) وهذه المعلومة الأخيرة إن ثبتت صحتُها تعني أن روم إفريقية قد اختاروا لأنفسهم خلفا لجرجير، بعد الهزيمة والقتل، مباشرة. وكان في شرط صلحهم "أنّ ما أصاب المسلمون، قبل الصلح، فَهُوَلَهُم، وما أصابوه، بعد الصلح، ردّوه عليهم".[4]

وتتّفق المصادر على أنّ نصيب الفارس الواحد، من الغنائم المحصّل عليها، في هذه الحرب، بعد إخراج الخمس، بلغ ثلاث آلاف دينار ونصيب الراجل ألف دينار[5] قسّمها عليهم عبد الله بن عباس بأمر من ابن أبي سرح[6] الذي " قسم لرجل من الجيش توفي بذات الحمام فدفع إلى أهله، بعد موته، ألف دينار "[7] مما يدلّ على أن تلك الغنائم قسمت على جميع أفراد الجيش، بالتساوي، بمن فيهم الذين ماتوا موتا طبيعيا، قبل حلولهم بميدان القتال، وكانت تلك الدنانير تزيد عن مثيلتها في المشرق بقيمة الربع.[8]

وغادر ابن أبي سرح إفريقية، بعد إقامته بها سنةً وشهرين[9] أو سنة وثلاثة أشهر[10]، دون أن يولّي عليها أحداً وأن يتخذ بها قيروانا[11] ولا مِصرًاجا معا[12] أو أنّه

---

1 ابن الأثير: الكامل،2، 484؛ البلاذري: المصدر السابق، 268.

2 المالكي: رياض،1، 17.

3 ابن تغري بردي: النجوم،1، 80.

4 ابن عذاري: البيان،1، 12؛ En – Noweiri : op.cit., p.322.

5 ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص 44؛ الكندي: المصدر السابق، ص 12؛ المالكي: رياض،1، 13؛ ابن الأثير: الكامل،2، 484؛ En – Noweiri : op.cit., p.322.

6 المالكي: رياض،1، 13.

7 ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص 44.

8 نفسه.

9 المالكي: رياض، 1، 7.

10 ابن الأثير: الكامل،2، 484؛ En – Noweiri : op.cit., p.323.

11 ابن عبد الحكم: المصدر السابق، 44.

12 البلاذري: المصدر السابق،1، 268.

غنائمها بعدما ترك شخصا، يُدعى جُناحة، والياً خلفاً لجرجير[1] وقد يكون جناحة هذا هو الذي خلف جرجير، بالفعل، لكن يُستبعد أن يكون الذي خلّفه هو ابن أبي سرح الذي انسحب، بناءً على المعاهدة المشار إليها آنفا والتي أُبرمت بينه وبين روم إفريقية، مقابل المبلغ المالي المذكور ولا شك أنّ هؤلاء الروم كان لهم مُمثّل، ومن سيكون هذا الممثل إن لم يكن هو جناحة؟ أو أنّ ابن سعد ترك عبد الله بن نافع بن قيس[2]. ولم يُفقَد من المسلمين إلاّ بضعة أنفار[3] أو " ثلاثة نفر، قتل منهم أبو ذُؤيب الشاعر فدفن هناك ".[4]
وحين وصل ابن سعد إلى طرابلس وافته مراكب من مصر فحمل فيها أثقال جيشه وقصد مقرّ ولايته بالفسطاط.[5] ويقول ابن عذاري نقلا عن الطبري إنّ الخليفة عثمان " قال لعبد الله بن سعد: "إنْ فتح الله عليك إفريقية. فَلَك... خُمُس الخُمس نَفلاً. "فلما فتح إفريقية... قسّم عبد الله الفَيءَ على المسلمين، فأبقى الخمس لنفسه، وبعث بأربعة أخماسه إلى عثمان، وضرب فسطاطه في أرض القيروان؛ فوفد وفدٌ على عثمان يشكون بابن أبي سرح فيما أخذ... فقال لهم ..." أنا نفّلتُه أيّاه! وذلك الآن إليكم؛ فإن رضيتُم، فقد جاز، وإن غضبتم، فهو ردٌّ! " قالوا: " فإنّا نسخط! " فكتب عثمان إلى ابن سعد بردّ ذلك. قالوا: " فأعْزِله عنّا... فكتب إليه أن استخلِف على إفريقية رجلا ترضاه ويرضونه؛ وأقسِم خمس الخمس الذي كنتُ نفّلتك في سبيل الأخماس... ففعل... ورجع إلى مصر... ثم وَرَدَ الخُمُسُ على أمير المؤنين..."[6] بالمدينة فأخذ منه مروان بن الحكم... خمسين ألف دينار؛ فسلّم له من ذلك عثمان... فكان ذلك مما نُقِمَ عليه".[7]

ويتّفق ابن تغري بردي مع ابن عذاري، فيما رواه عن الطبري، في القول بأخذ ابن أبي سرح لِخُمسِ خمسِ الغنيمة وإرسال أربعة أخماسها إلى عثمان، ثم تقسيم الباقي في الجيش، دون أن يشير إلى المشاكل الناجمة عن ذلك التقسيم، ولا إلى ما يكون قد وقع في المدينة. نتيجة تصرّف الخليفة، فيما وصل إليه من نصيب بيت مال المسلمين.[8] غير أنّه يشير، من جهته، إلى رواية للواقدي تقول: إن ما صالح بطريق إفريقية به ابن أبي سرح،

---

1 En – Noweiri : op.cit., p.323

2 ابن الأثير: الكامل، 2، 486.

3 En- Noweiri : op.cit., p.323.

4 ابن الأثير: الكامل، 2، 484.

5 المالكي: رياض، 1، 17.

6 نفسه، 1، 13-14.

7 نفس المصدر، ص 13.

8 النجوم الزاهرة، 1، 80.

من ألفي ألف دينار، وخمسمائة ألف دينار، وعشرين ألف دينار، (2520.000د.) "أطلقها عثمان كلها في يوم واحد، في آل الحكم، ويقال: في آل مروان".[1]

ويذكر ابن الأثير أنّ ابن أبي سرح، بعد عودته إلى مصر، " حمل خمس إفريقية إلى المدينة فاشتراه مروان بن الحكم بخمسمائة ألف دينار، فوضعها عنه عثمان، وكان هذا مما أُخِذَ عليه "[2] ملاحظا بأنّ "هذا أحسن ما قيل في خمس إفريقية"[3] ويضيف قائلا: "إنّ بعض الناس يقول: أعطى عثمان خمسَ إفريقية عبدَ الله بن سعد، وبعضهم يقول: أعطاه مروان بن الحكم، وظهر بهذا أنّه أعطى عبد الله خمس الغزوة الأولى، وأعطى مروان خمس الغزوة الثانية التي فتحت فيها جميع إفريقية..."[4] مع العلم أنّ فتح جميع إفريقية لم يحدث في عهد عثمان ولا في عهد مروان وإنما حدث بعد ذلك بكثير كما سيتضح لاحقا.

ويتحدّث كل من ابن عذاري وابن تغري بردي عن قيام ابن أبي سرح بحملة ثانية على إفريقية سنة 33هـ/653-654م " حين نقض أهلها العهد "[5] فأقرّهم " على الإسلام والجزية، واستشهد معه في هذه المرة... جماعة، منهم: معبد بن العباس بن عبد المطلب وغيره."[6] غير أنّهما لا يشيران إلى أية غنائم يكون ابن أبي سرح قد حصّل عليها فيها، إن كانت حدثت بالفعل.

وبنفس هذا التاريخ يحدّد ابن تغري بردي، في مكان آخر، غزو ابن أبي سرح لإفريقية و "معه عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن الزبير بن العوّام، وكان المسلمون في عشرين ألفا، وكان العدوّ (يعني جرجير) في مائتي ألف مقاتل، وفتح الله وغنم المسلمون شيئا كثيرا"[7] والمعلومات المشار إليها هنا، كما هو واضح، لا تختلف عن تلك التي أوردتها المصادر بإسهاب في حديثها عن حملة 27هـ/647-648م المعروفة باسم حملة العبادلة. مما يدل على وقوع خلط له في الموضوع.

وقد استمرّ ابن أبي سرح في منصبه إلى شهر رجب سنة 35هـ/655-656م، وآنذاك، أستَخلف عقبة بن عامر الجهني أو السائب بن هشام وسافر في وجوه الجند إلى

---

1 النجوم الزاهرت، 1،80.
2 الكامل،2، 484.
3 نفسه.
4 ابن الأثير: المصدر السابق،2، 484.
5 البيان،1، 14؛ النجوم الزاهرة،1، 80.
6 ابن تغري بردي: نفس المصدر،1، 80.
7 النجوم الزاهرة،1، 85.

عثمان[1]. وقد انتهز محمد بن أبي حُذيْفة بن عُتبة فرصة غيابه، فجمع جمعا، وركب بهم على عقبة بن عامر الجُهَنِي خليفته، وأخرجهُ من الفسطاط ثم دعا الناس لخلع عثمان من الخلافة، ومنهم معاوية بن حُديج ومسلمة بن مخلّد، وبعثوا إلى عثمان منه. وقويّت شوكة ابن أبي حُذيفة، قبل أن يأتي جواب عثمان، فلما حضر سعد بن أبي وقّاص من قِبَله لتهدئة الأوضاع خَاشَنَه جماعة من أنصار ابن أبي حذيفة وقلبوا عليه فسطاطه ونَهبوه فكرّ راجعا من حيث أتى وعاد ابن أبي سرح بعد ذلك إلى مصر فمنعوه من دخولها وقاتلوه فغادَرها إلى عسقلان أو إلى الرملة حيث قتل[2] أو أنّه سكن عسقلان بعد مقتل عثمان ومات بها سنة ست وثلاثين، دون أن يبايع أحدا أو أنّه لما سافر إلى عثمان بلغَه قتل خلفِه على مصر، السائب بن هشام، فلما رجع إليها منعه تغلب عليها محمد بن أبي حُذيفة من دخولها، فمضى إلى عسقلان أو إلى الرملة، أو ثم شهد صفّين، وعاش إلى سنة 57هـ/676-677م.[3]

3.2- دور معاوية بن حُديج في فتح بلاد المغرب

تسجّل بعض المصادر قيام معاوية بن حديج بحملة على المغرب سنة 34هـ/654-655م وتلاحظ أنّها أوّل غزواته هناك[1] قبل اشتغال " الناس... بأمر عثمان... وبوقائع الجَمَل وصفين وغيرهما، إلى أن اعتدلت الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان".[2]

ومعاوية بن حُديْج أو ابن خُديج، التُّجيبي أو السَّكوني أو الكندي[3]، من الذين شاركوا في فتح مصر، إلى جانب عمرو بن العاص سنة 20هـ/640-641م، وكان رسوله "إلى عمر بن الخطاب بفتح الإسكندرية، وقد اختُلِف فيه، فقال قوم: له صُحبة، وقال آخرون: ليست له صحبة"[4] مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) كما شارك إلى جانب عبد الله بن سعد بن أبي سرح في حملة العبادلة سنة 27هـ/647-648م[5]

---

1 الكندي: المصدر السابق، ص 13-14؛ ابن تغري بردي: النجوم،1، 81 (83-92) وهنا وهناك.

2 ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،1، 94.

3 ابن تغري بردي: النجوم،1، 83.

1 ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص 56 فما بعدها؛ المالكي (نقلا عن أبي العرب)؛ رياض،1، 18؛ ابن عذاري: البيان،1، 14.

2 ابن عذاري: البيان،1، 14-15.

3 قارن ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص 56؛ البلاذري: المصدر السابق،1، 268؛ المالكي: رياض،1، 17؛ ابن خلدون: العبر، ج 216.

4 ابن تغري بردي: النجوم ،1، 22.

5 En – Noweiri : op.cit., pp.314-315

وشارك إلى جانبه أيضا في حملة على النوبة، وصلت إلى دَمْقَلة، سنة 31هـ/651-652م وأصيب بها في عينه.[1]

ولما ثار محمد بن أبي حُذيفة بن عتبة على عقبته بن عامر الجهني أو السائب بن هشام العامري الذي استخلفه ابن أبي سرح على مصر، قبل سفره إلى عثمان سنة 35هـ/655-656م[2] فقاتله وأخرجه من الفسطاط، كان معاوية بن حُديج من بين الذين تصدّوا لمحمد، وراسلوا الخليفة بذلك، وبعد قتل هذا الأخير، في ذي الحجة، من نفس السنة ثار شيعته بمصر وعقدوا لمعاوية بن حديج وبايعوه على الطلب بدمه وساروا إلى الصعيد، وعندما وجّه إليهم ابنُ أبي حُذيفة جيشه هزموه وافترق الطرفان وقصد ابن حُديج بأصحابه إلى جهة برقة ثم عاد إلى الإسكندرية فبعث إليه ابن حذيفة جيشا آخر سنة 36هـ/ 656-657م فهزمه أيضا، وأقام بخَرِبْتا.[3]

وبعد أن ولّى علي بن أبي طالب محمدَ بن أبي بكر الصديق مصر سنة 37هـ/657-658م[4] راسل معاوية بن أبي سفيان المطالبين بدم عثمان وكانوا عشرة آلاف يقيمون بخَرِبتا، وعلى رأسهم كلّ من معاوية بن حُديج ومسلمة بن مُخلّد الأنصاري فحثّهم على الصمود ومنّاهم بالقدوم عليهم، ولما أجابه ابن حديج ومسلمة بن مخلّد الأنصاري، الذي يبدو أنه كان شريكا له في قيادة أصحابهما، بطلب المدد، جهّز لهم ستة آلاف مقاتل وأرسلهم من فلسطين مع عمرو بن العاص، فلما وصل مصر واجتمعت عليه العثمانية، أي المطالبين بدم عثمان، حاول دون جدوى إقناع محمد بالاستسلام فأخبر هذا الأخير الإمام عليا بما كان يجري على الساحة وطلب منه المدد فلم يتلق منه سوى "الوصية والشدة".[5]

فما كان على محمد إلاّ الخروج بمن معه، وعددهم أربعة آلاف، للتصّدي لابن العاص الذي تمكن من تفريق أصحابه عنه، بعد قتل قائد مقدّمته كنانة بن بشر، بفضل الدعم الذي قدّمه له ابن حُديج، وبعد وقوع ابن أبي بكر في أسر هذا الأخير أَسَرَّ على وضعه في جيفة حمار وحرقه بالنار رغم أنّ ابن العاص أمره بالإتيان به إليه حيّا، كرامة

1 الكندي: المصدر السابق، ص 12.

2 ابن تغري بردي: النجوم،1، 92.

3 ابن تغري بردي: نفس المصدر، ص 94.

4 ابن عذاري: البيان،1، 15؛ ابن تغري بردي: النجوم،1، 107.

5 ابن تغري بردي: النجوم، 1، 109.

لأخيه عبد الرحمن، أو أنه قطع رأسه وأرسله إلى معاوية بدمشق[1] وذلك سنة 38هـ/ 658-659م.[2]

وقد يكون عصيان هذا الأمر، إن صح، هو السبب في اختفاء أي دور، إداري أو عسكري لابن حديج، طيلةَ ولايةِ عمرو الثانية بمصر، والتي امتدّت من سنة 38هـ/658-659م إلى سنة 42 أو 43هـ/662-663-664م[3]، إذ من المنطقي تصوّر أنّ أي والٍ لا يمكنه أن يستعين في تسيير شؤونه بمن يرفضون الامتثال لأوامره وقد استمرّ اختفاء دوره أيضا في فترة عبد الله بن عمرو الانتقالية التي استخلفه فيها أبوه، قبل وفاته، والتي امتدّت إلى قدوم وال جديد، هو عتبة بن أبي سفيان، شقيق الخليفة معاوية، في ذات السنة[4]، وكذلك في ولاية عتبة التي استمرّت مدّة عام وشهر، ثم توفي، وفي ولاية عقبة بن عامر الجهني التي انتهت سنة 47هـ/667-668م.[5]

ويختلف حديث المصادر عن الدور الذي لعبه ابن حديج في بلاد المغرب: إذ يجعل ابن عبد الحكم خروجه إليها " بعد عبد الله بن سعد... سنة أربع وثلاثين، وكان معه في جيشه عامئذ عبد الملك بن مروان... واتّخذ قيروانا، عند القرن، فلم يزل فيه حتى خرج إلى مصر"[6] أي عاد إليها. ولم يشر ابن عبد الحكم إلى تاريخ تلك العودة، وكان موضع القيروان، حسب نفس المصدر، هو " قونية" وقد انتقل منها إلى جبل يقال له " القرن " فعسكر إلى جانبه " وبعث عبد الملك بن مروان إلى مدينة... جلولاء... فدخلها المسلمون وغنموا ما فيها، وانصرف عبد الملك إلى معاوية بن حُديج، فاختلف الناس في الغنيمة، فكُتب في ذلك إلى معاوية بن أبي سفيان، فكتب: إن العسكر " ردءٌ للسرّية" و " ردّة للسرية "[7] فقُسّم ذلك بينهم، فأصاب كلّ رجل منهم لنفسه مائتي دينار، وضُرب للفرس بسهمين ولصاحبه بسهم[8] "أو أن ابن حديج غزاها بنفسه وفتحها " وفيها السّبي، لم يردَّهم أحد، فغنموا وانصرف منها راجعا إلى مصر.[9]

---

1 نفس المصدر، ص 109-110.
2 ابن عذاري: البيان،1، 15.
3 قارن. البلاذري: المصدر السابق،1، 269؛ ابن عذاري: البيان،1، 15؛ ابن تغري بردي: النجوم، 1، 113؛ فما بعدها بعدة صفحات؛ الكندي: المصدر السابق، ص 34.
4 الكندي: المصدر السابق، ص 34-35؛ ابن تغري بردي: المصدر السابق،1، 122.
5 الكندي، ص 36 فما بعدها؛ ابن تغري بردي: النجوم، 1، ص 122 فما بعدها من عدة صفحات.
6 فتوح إفريقية و الأندلس، ص 56.
7 نفس المصدر، ص 58.
8 البكري: المُغرب، ص 32.
9 نفسه؛ البكري:المغرب،1، 32.

ويسجِّل ابن عبد الحكم لابن حُديج ثلاث غزوات أولاها هذه، ملاحظا أنّ كثيرا من الناس لا يعرفونها وأنّها وقعت قبل قتل الخليفة عثمان الذي أعطى مروان بن الحكم الخمس[1]، ويسترسل هذا المؤرخ في كلامه قائلا إنّ الحملة الثانية وقعت " سنة أربعين (40هـ/660-661م) والثالثة سنة خمسين (50هـ/ 670-671م) " دون إضافة معلومات أخرى عنهما، وهو يلتقي فيه مع المالكي، فيما نقله عن أبي العرب في هذا الموضوع، مع الفرق أنّ هذا الأخير لم يتعرّض إلى ما قد يكون وقع من أحداث في غزوة 34هـ[2] كما يلتقي المؤرخان السابقان في مبدإ قيام ابن حديج بثلاث غزوات مع ابن عذاري، ولكن اتفاقه معهما لا يتجاوز تحديد تاريخ الحملة الأولى بسنة 34هـ/654-655م. إذ يُلاحِظ، زيادة عنهما، أنّ الناس اشتغلوا، بعد ذلك بأمر عثمان وما نجم عنه من أحداث[3]، كما يحدّد تاريخ غزوته الثانية بسنة 41هـ/661-662م، وليس بسنة 40هـ/ 660-661م مثلهما، دون أن يحدد مكان انطلاقها. وينقل عن مختصر عريب أنّ " معاوية ابن حديج نزل جبلا فيها (إفريقية) فأصابه فيه مطر شديد؛ فقال: " إن جبلنا هذا ممطورٌ! " فسمّي البلد ممطورا... وقال " إذهبوا بنا إلى ذلك القرن." فسُمي ذلك الموضع قرنا."[4] ولم يذكر ابن عذاري أي نشاط آخر، لابن حُديج، في هذه الغزوة ولا إلى أين اتجه بعدها.

أمّا غزوة ابن حديج الثالثة، بالنسبة إليه فهي تلك التي وقعت سنة 45هـ/665-666م، وهي الأخيرة. وقد اقتبس تفاصيل وقائعها عن كل من الرقيق والطبري الذي اقتبس بدوره معلوماته عن عريب وتقضي أنّ هرقل، مَلِكَ القسطنطينية العظمى ورومة، كان يتلقّى من كلِ نصرانيّ، في البرّ أو البحر " جزْيَتَه؛ (و) مِنْهم... روم إفريقية والأندلس. فلما بلغه ما صالح عليه أهل إفريقية عبد الله بن أبي سرح. فَنزل قرطاجنة، وأخبرهم بذلك. فأبوا عليه وقالوا: " إن الذي كان بأيدينا من الأموال، فَدَيْنا به أنفسنا من العرب! وأمّا الملكُ، فهو سيّدنا؛ فيأخذ عادته مِنّا! "، وكان القائم بأمرهم رجلا يقال له حُباجِة؛ فطردوا وليمة الواصل إليهم، واجتمع رأيهم على تقديم الأطربون."[5] عِوَض حُباجِة.

1 نفس المصدر، ص 60.
2 أنظر المالكي: رياض، 18-19؛ أنظر الدبّاغ و ابن ناجي: معالم الإيمان، 1، 44.
3 البيان، 1، 14-15.
4 ابن عذاري: نفس المصدر، ص 15.
5 ابن عذاري، نقلا عن الرقيق: البيان، 1، 17.

عندئذ توجّه هذا الأخير إلى معاوية بن أبي سفيان بالشام " فوصف له حال إفريقية "[1] وسأله أن يبعث إليها جيشا فوجّه " معه معاوية بن حديج، في جيش كثيف ؛ وذلك سنة 45هـ/665-666م "[2] أو " وجّه... (معه) ابن حديج، في عشرة آلاف مقاتل، فسار حتى انتهى إلى الاسكندرية، فاستعمل عليها حُباحبة الرومي، ومضى... حتى دخل إفريقية "[3] وقد " صارت ناراً "[4] وأرسل " ملك الروم البطريق المتقدّم ذكره (أي ونيمة) في ثلاثين ألفا، فبعث ابن حُديج إليه عبد الله بن الزبير؛ فقاتله فأقلع منهزما في البحر "[5] أو أنّ البطريق الذي أرسله ملك الروم يقال له نجفور، ونزل على الساحل، فأخرج إليه ابن حديج عبد الله بن الزبيرِ " في خيل كثيفة. فسار حتى نزل على شَرَفٍ عالٍ، ينظر منه إلى البحر، بينه وبين مدينة سوسة اثنا عشر ميلا، فلما بلغ ذلك نجفورا، قلع في البحر منهزما، من غير قتال، فأقبل ابن الزبير حتى نزل على باب سوسة ؛ فوقف على البحر وصلى بالمسلمين صلاة العصر، والرومِ يتعجبون من جرأته، فأخرجوا إليه خيلا، وابن الزبير مقبلٌ على صلاته، لا يهوله خبرها، حتى قضى الصلاة، ثم ركب وحمل على الروم بمن معه، فانكشفوا منهزمين، ورجع... إلى معاوية بن حديج، وهو بجبل القرن ".[6]

وحاصر ابن حديج، بعد ذلك، مدينة جَلُولاء، فكان يقاتلهم وسط النهار، وينصرف إلى عسكره، " فلما انصرف ذات يوم، نسيَ عبد الملك بن مروان قوسا له معلقا بشجرة ؛ فانصرف إليها ؛ فإذا بجانبٍ من [سور] المدينة قد انهدم، فصاح في أثر الناس، فرجعوا ؛ فكان بينهم قتال شديد، حتى دُخلت المدينة عنوة، واحتوى المسلمون على جميع ما فيها. وكان بين معاوية بن حديج وعبد الملك بن مروان تنازع في ذلك، لأنّ عبد الملك أراد محاباة إخوانه وأصحابه، لأنّه كان سبب فتح المدينة ."[7] أو أنّ ابن حديج وجه عبد الملك بن مروان " في ألف فارس إلى مدينة جلّولا (جلولاء)، فحاصرها، وقتل من أهلها عددا كبيرا حتى فتحها عنوة، فقَتَل المقاتلة وسبى الذرية

---

1 نفسه.
2 نفسه.
3 نفس المصدر، نقلا عن الطبري، ص 16.
4 نفس المصدر، نقلا عن الرقيق، ص 17.
5 ابن عذاري : المصدر السابق، ا، 17.
6 ابن عذاري ، نقلا عن الطبري: البيان، ا، 16.
7 ابن عذاري، نقلا عن الرقيق: البيان 616، ص 17-18.

وأخذ جميع ما كان في المدينة، وحمل ذلك كُلّه إلى معاوية بن حديج؛ فقسّمه على المسلمين. وأصاب كل رجل منهم مائتي مثقال".[1]

وكان ابن حديج أوّل من أخرج من المسلمين، حملة بَحْريّة، من مائتي مركب، إلى صقلية سنة 46هـ/666-667 م بقيادة عبد الله بن قيس، فأقام بها شهراً ثم انصرف بغنائم كثيرة ورقيق وأصنام منظومة بالجوهر أو أصنام من ذهب وفضّة مكلّلة بجوهر، حُملت إلى معاوية بن أبي سفيان، إلى جانب الخمس، فبعث بها إلى الهند وأخذ ثمنها فأنكر الناس عليه ذلك إنكارا شديدا[2] وقد نقل الدباغ عن الوراق أنّ ابن حديج غزا إفريقية أوّل مرّة سنة 34هـ/654-655م وغزاها ثاني مرّة سنة 45هـ/666-667م أو 51هـ/671-672م وآنذاك " غزا... جزيرة صقلية... وأصاب فيها غنائم كثيرة، وانصرف إلى قمّونية... وبعث بالخمس إلى معاوية بن أبي سفيان، وهو إذ ذاك خليفة "[3] ويذكر ابن أبي دينار مرّة أنّ ابن حديج بعث " روَيْفع بن ثابت الأنصاري إلى جربة ففتحها "[4] دون أن يحدد لذلك تاريخا معينا، كما يذكر مرّة أخرى أن رُوَيفع، كان عاملا لابن حُديج على طرابلس سنة 46 فغزا إفريقية سنة 47/667-668م[5] وهذا الخبر إن صحّ يعني أن ابن حديج لم يكن موجوداً آنذاك.

ويجمع النويري، مثل ابن عذاري، بين روايتي الطبري والرقيق، دون الإشارة إلى ذلك أي دون اعترافه به، وكانت المعلومات التي قدّمها مطابقة تقريبا للمعلومات التي قدّمها ابن عذاري عن حملتي سنة 41هـ/661-662م وسنة 45هـ/665-666م مجتمعتين، ولكنّ النويري يصبّها جميعا في إطار حملة سنة 45هـ/665-666م ولم يشر إلى غزوة أخرى لابن حديج على إفريقية ثم إنّه يختلف معه في ضبط بعض التفاصيل ومنها: أنّ الذي كان يتولى أمر إفريقية، مكان جرجير، هو جُناحة (وليس حباحبة) وأنّ جناحة، عندما حل بالإسكندرية، توفي وتابع ابن حديج طريقه على رأس الجيش الذي كان معهما إلى إفريقية.[6] وأنّ ابن حُديج عسكر، لمّا وصل عند سَفْح رَبْوة. (au pied d'une colline)، يقع على عشر فراسخ من قَمّونية، غرباً، وهناك أصابه

---

1 ابن عذاري، نقلا عن الطبري: المصدر السابق، ص 16.

2 قارن. ابن عذاري نقلا عن الطبري: البيان، I، ص 16-17؛ ابن عذاري نقلا عن البلاذري، البيان، I، 18؛ En- Noweiri نقلا عن البلاذري op.cit., p.326

3 معالم الإيمان، I، 45.

4 المؤنس، ص 28.

5 المؤنس، ص 28-29.

6 En – Noweiri: op.cit., p.324

مصر شديد[1]، وأنّه كتب إلى الخليفة معاوية في شأن ما وقع من خلاف بين ابن حديج وعبد الملك حول تقسيم الغنائم فأجاب بوجوب تقسيمها على الجميع، فكان نصيب كل فرس منها ثلاثمائة دينار.[2]

ويحدّد النّويري تاريخ تعيّين الخليفة معاوية بن أبي سفيان لمعاوية بن حديج، على ولاية إفريقية سنة 45هـ/665-666م[3] كما يذكر ابن عذاري أنّ ابن حديج " كان العامل على بلاد إفريقية، من قِبَل معاوية بن أبي سفيان "[4] سنة 46هـ/666-667م؛ ويتّفق هذا الأخير مع ابن الأثير على القول بأنّ ابن حُديج عُيّن على ولاية مصر بدلا عن عبد الله بن عمرو بن العاص الذي استخلفه أبوه عليها، قبل وفاته سنة 42 أو 43هـ/662-663-664م. وقد حدث ذلك التغيير سنة 47هـ/ 667-668م.[5]

ثم توجّه ابن حديج إلى مقرّ عمله من إفريقية[6] التي أصبحت مستقلّة عن مصر، وتابعة مباشرة إلى الخلافة، فكان تعيّينه ذاك تعويضا له عنها[7] أي عن مصر، أو أنّه بقي واليا عليهما معا إلى أن عزله الخليفة عن إفريقية سنة 50هـ/670-671، عندما وجّه إليها عقبة بن نافع الفهري[8]، ولم يتنح عن مصر إلاّ سنة 55هـ/674-675 حيث حلّ مسلمة بن مخلد الأنصاري محلّه ومحلّ عقبة بن نافع في آن واحد.[9]

وقد لخّص ابن الأثير وقائع غزوة ابن حديج في هذه الحملة، دون التعرّض لتاريخها ولا لأسماء القادة أو المسؤولين الذين لعبوا دورا فيها، من روم ومسلمين، باستثناء اسمي معاوية بن أبي سفيان ومعاوية بن حديج، كما أنّه لم يشر إلى غزوة صقلية: فهو لا يختلف، فيما ذكره، عن هذا الموضوع، مع النويري وابن عذاري سوى في اختصاره لسرد وقائع الأحداث وحذف بعض تفاصيلها.[10]

ومثله فعل ابن خلدون، في وصفه لما حدث بإفريقية بعد حملة العبادلة سنة 27هـ/647، حيث ذكر أنّ المسلمين رجعوا إلى المشرق " وشُغلوا بما كان من الفتن

---

1 Ibid, p.325
2 Ibid. p.326
3 op.cit.. p.324

4 البيان، 1، 18.
5 الكامل، 3، 311؛ البيان، 1، 18.
6 البيان، 1، 18.

7 En – Noweiri : op.cit., p.326

8 ابن عذاري: البيان، 1، 18-19.
9 نفس المصدر، ص 21.
10 أنظر الكامل، 2، 485.

الإسلامية، ثم كان الاجتماع على معاوية بن أبي سفيان، وبعث معاوية بن خديج (حديج) السكوني من مصر لافتتاح إفريقية سنة خمس وأربعين، وبعث ملك الروم، من القسطنطينية عساكره لمدافعتهم، في البحر فلم تُغْن شيئاً، وهزمهم العرب بساحل أجم، وحاصروا جلولاء وفتحوها، وقفل معاوية بن خديج إلى مصر فولّى معاوية بن أبي سفيان على إفريقية بعده عقبة بن نافع"[1] بعدما أقرّ على مصر ابن حديج[2] ويلاحظ أنّ ابن خلدون هنا تجنّب الحديث عن الوضعية الإدارية التي كان عليها ابن حديج في مصر، عند إخراجه على رأس تلك الحملة، وعن الصّفة التي خرج بها إلى إفريقية، وكذلك عن تاريخ عودته إلى مصر ووظيفته بها بعد ذلك؛ لكنّه أوضح أنه انطلق على رأس حملته من مصر(وليس من بلاد الشام) بهدف استئناف عملية الفتح، ثم عاد إلى مصر أيضا، مما يوحي أنّ ابن حديج كان، وقتئذ، واليا على مصر، على اعتبار أنّ مثل هذه المهام كانت تُسنِدُها الخلافة لوالي مصر شخصيا حتى ذلك الحين.

ويلتقي ابن خلدون، في هذه النقطة بالذات، مع البلاذري فيما قاله من أن والي مصر عمرو ابن العاص استخلف ابنه عبد الله في منصبه، قبل أن يموت سنة 42 أو 43هـ/662-663-664م " ثم عزله معاوية (بن أبي سفيان) وولّى معاوية بن حديج، فأقام بها أربع سنين، ثم غزا فغنم ثم قدم مصر "[3] وهذا يعني أن ابن حديج كان واليا على مصر، عندما أقدم على غزو إفريقية أو كلّفة الخليفة بذلك، سنة 46 أو 47هـ (بعد أربع سنوات من سنة 42 أو 43هـ) ثم عاد إلى مقرّ عمله، فهو إذن خرج منها وعاد إليها بصفته واليا عليها، تماما مثلما فعل ابن أبي سرح، أيام عثمان بن عفّان، لكن ما يُستنبط من كلام البلاذري عن تاريخ قيام ابن حديج بتلك الغزوة سنة 46 أو 47هـ (بعد أربع سنوات من سنة 42 أو 43هـ) لا ينسجم مع التاريخ الذي حدّده لها المؤرخون المذكورون أعلاه. وهو سنة 45هـ/665-666م.

ومهما يكن من أمر فإنّ المعلومات التي قدمها المؤرخون، سابقو الذّكر، في غزوة ابن حديج هذه، تبدو متكاملة ولا تختلف مع بعضها إلاّ في بعض الجزئيات أو بعض التّفاصيل لكن ما ذكره المالكي ويوافقه فيه الدبّاغ يختلف عنها إلى حدّ بعيد: إذ يفيد هذان المؤرخان أن إفريقية بقيت على حالها، بعدَ غزوة العبادلة، وعندما استتب الأمر لمعاوية بن أبي سفيان " عُزل عبد الله بن أبي سرح عن مصر وإفريقية، وولّى عليها

---

1 العبر،6، 216.

2 المؤنس، ص 29.

3 المصدر السابق،1، 269.

[معوية] بن حديج... سنة أربعين (40هـ/660-661م) [فأراد معاوية غزو إفريقية] فأغزاها معوية بن حديج، فخرج من مصر سنة خمس وأربعين "[1] (45هـ/665-666م) ويتّفق المؤرخان الأخيران مع البلاذري وابن خلدون في تحديد دافع هذه الغزوة، باستئناف عملية الفتح، كما يتّفقان مع غير البلاذري من المؤرخين المذكورين في تحديد تاريخها بسنة 45 لكنهما ينفردان في القول بتعيّين ابن حديج"على مصر وإفريقية "مكان" ابن أبي سرح " سنة 40هـ/660-661م، ويختلفان مع الجميع في وصف وقائع ما جرى من أحداث بإفريقية: فابن حديج - حسب رأيهما دخل إفريقية " وعليها عامل جرجير الذي كان مَلِكَ سبيطلة ".[2]

ومعنى ذلك، إنْ صحّ، أنّ حُباحبة أو جناحة، لم يتنقّل إلى دمشق، ولم يستنجد بخليفة المسلمين، كما ذكرت المصادر الأخرى، ثم إنّ ابن حديج نزل، عند وصوله إلى إفريقية بـ " قمونية " ورحل إلى الجبل الذي سُمِيَ فيما بعد، " القَرْنُ " أو أنّه نزل الجبل الذي صار يُعرف " ممطوراً "، ثم سار إلى " جلولاء " فحاصرها، ولما استعصى عليه أمرها سار عنها، ونسي رجل من جيشه قوساً فرجع في طلبها، فرأى ركنا من أركانها قد تهدّم، فلحق بمعاوية وأخبره. أو أنّ الذي نسي القوس هو عبد الملك بن مروان أو أنّ سَاقَة العسكر رأت، أثناء انسحابها، غباراً شديداً ووهجاً فخفّ من كانوا بها إلى مكانه، فرأوا انهيار جانب من حصنها، فأخبروا العسكر بذلك، فأسرعوا في عين المكان ودخلوا المدينة بالسيف وأصابوا سبيا كثيرا، وغنموا ما كان فيها، وبعث بن حُديج بالغنائم إلى معاوية بن أبي سفيان.[3]

مع الإشارة هنا إلى أنّ ابن أبي دينار سجّل لابن حُديج ثلاث غزوات: أولاها سنة 34هـ/654-655م، قبل مقتل عثمان، وثانيها سنة أربعين، "وفي سنة خمس وأربعين، في زمن معاوية ابن أبي سفيان، أرسل معاوية بن حديج إلى إفريقية... ففتح مدينة سوسة، وكان أرسل إليها عبد الله بن الزبير... وأرسل ابن حديج عبد الملك إلى جلولاء... وفتحت... والله أعلم هل كانت في سنة أربع وثلاثين أو خمس وأربعين"[4]، أي أنّ ابن أبي دينار يتردّد في تحديد تاريخ وقوع الأحداث التي تمّ فيها فتح مدينتي سوسة وجلولاء بين سنتي 34 و 45هـ، ويتحدّث، في مكان آخر، عن فتح ابن

---

1 رياض، 1، 17؛ الدباغ وابن ناجي: معالم، 1، 43.
2 رياض، 1، 18.
3 رياض، 1، 18؛ معالم الإيمان، 1، 43-44.
4 مؤنس، ص 27-28.

حديج لبنزرت سنة 41هـ/661-662م[1] أي في الحملة الثانية في حين أن المالكي وصاحب كتاب المعالم يتفقان على أنّ الخليفة الأموي، بعد استيلامه تلك الغنائم أعان ابن حديج " بجيوش الشام ومصر إلى إفريقية وذلك في سنة خمسين (50هـ/670-671م)... فوصلوا... واحتفروا..." آبار حُديج " بباب تونس... ثم غزا " بنزرت " وغنم غنائم كثيرة من نواحيها، ورجع قافلا إلى " قمّونية " وبنى بناحية القرن منازل وسمّاها " قيروان "... ثم رحل... إلى معاوية ابن أبي سفيان، فدفع الغنائم إليه، فعزله... عن مصر، وولّى عليها مَسْلَمة بن مخلّد الأنصاري ".[2]

فالخليفة معاوية بن أبي سفيان عيّن، حسب هذه المعلومات، معاوية بن حديج على ولاية مصر وإفريقية سنة 40هـ/660-661م، خلفا لعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وأخرجه في حملة إلى إفريقية سنة 45هـ/665-666م، ثم زوّده بإمدادات من الشام ومصر، وصلت إلى إفريقية سنة 50هـ/ 670-671، استعان بها للقيام بعدة نشاطات، ثم سافر، بعد ذلك، إلى معاوية بن أبي سفيان فعزله بمَسْلَمة بن مخلّد، مع ملاحظة أنّ المالكي والدباغ لم يشيرا إلى عودة ابن حديج إلى مصر، بعد خروجه منها، ولا إلى تاريخ عودته إلى دمشق.

وهناك أخبار أخرى تذهب في اتجاه مخالف، تماما، لما ذكرته تلك المصادر مجتمعة عما يكون قد لعبه ابن حُديج من دور إداري أو عسكري بمصر أو انطلاقا منها، منذ أن سيطر عليها معاوية بن أبي سفيان الذي أسند ولايتها - ونار الفتنة مشتعلة - إلى عمرو ابن العاص سنة 38هـ/658-659م، فحكمها للمرة الثانية، واستمرّ في منصبه إلى سنة 42هـ أو 43هـ/662-663-664م[3]، حيث توفي وعيّن الخليفة معاوية بن أبي سفيان أخاه عتبة بن أبي سفيان ليتولّى إدارة شؤونها، بدلا عن عبد الله بن عمرو الذي استخلفه أبوه عليها قبل موته. فوصلها عُتْبة، في نفس العام الذي توفي فيه عمرو ومارس أعماله فيها مدة عام وشهر، ثم مات بدوره فعُيّن في منصبه عُقبة بن عامر الجهني الذي استمرّ يباشر مَهامه إلى سنة 47هـ/667-668م، وعندئذ عُزل بمسلمة بن مخلّد الأنصاري الذي بقي بها إلى أن توفي سنة 62هـ/[4] أو أنّه عُزل مرّة بسعيد بن يزيد الأنصاري ثم أعيد

---

1 نفس المصدر، ص 28.

2 نفس المصدر، ص 19؛ معالم الإيمان، I، 45-46.

3 البلاذري: المصدر السابق، I، 269؛ الكندي: المصدر السابق، ص 34، ابن عذاري: البيان، I، 15، ابن تغري بردي: النجوم، I، 113 فما بعدها من عدة صفحات.

4 الكندي: المصدر السابق، ص 38 فما بعدها من عدة صفحات، ابن تغري بردي: المصدر السابق، I، 132 فما بعدها من عدة صفحات.

ـي منصبه فلم يغادره حتى مات.[1] فهذه الأخبار، كما هو واضح، لا تُخصِّص أيَّ حيّز ـحديث عن أي دور يكون معاوية بن حديج قد لعبه بمصر في فترة ما بين 38 و62هـ 658-683م، وكل ما هنالك أنّ ابن تغري بردي يشير مرّة، في كلامه عن حوادث ـسنة الأولى من ولاية عقبة بن عامر الجهني، أنّ معاوية بن حديج غزا إفريقية من بلاد ـغرب، سنة 45هـ/665-666م[2]، لكن دون ذكر نقطة انطلاقه، ولا أي شيء آخر، كما يشير مرّة أخرى، في حديثه عمّا وقع من الحوادث في السنة الثالثة من ولاية مَسْلَمة بن مخلد على مصر، إلى قيام ابن حديج بفتح كبير بالمغرب، بعدما وصل إليه عبد الملك بن مروان هناك في مدد أهل المدينة، وذلك سنة 50هـ/670-671م.[3]

وخلاصة القول فإنّ مُجمل الأخبار الواردة في شأن ما يُحتمل أن يكون معاوية بن حديج قد لعبه من دور في مصر وإفريقية غامضة ومتناقضة فمنها التي تقول إنه غزا إفريقية سنة 34هـ/654-655م، في عهد الخليفة عثمان بن عفان، في ولاية ابن أبي سرح ـصر، ومنها التي تقول إنه تولى مصر بعد ابن أبي سرح سنة 40هـ/660-661م، وغزا إفريقية انطلاقا منها سنة 45هـ/665-666م، وتَلقى امدادات من بلاد الشام ومصر، أرسلها إليه الخليفة فقام بعدة نشاطات ثم سافر إلى بلاد الشام فعزله معاوية بن أبي سفيان بمسلمة بن مخلد الأنصاري، ومنها التي تقول إنه تولى مصر بعد عبد الله بن عمرو بن العاص، الذي استخلفه أبوه عليها قبل وفاته سنة 42 أو 43 هـ (662-663-664م) وبعد أربع سنوات من ذلك غزا إفريقية وعاد إلى مصر، ومنها التي تقول إنّ معاوية بن أبي سفيان قد أغزاه إفريقية بعد استتباب الأمر له، فخرج إليها من مصر سنة 45هـ/665-666م ثم عاد إلى مصر، دون أن تتطرّق إلى وضعيته الإدارية هنا و هناك، ومنها التي تقول بأنّ الخليفة معاوية ولاّه إفريقية وأخرجه إليها من بلاد الشام سنة 45هـ/665-666م، تلبية لاستنجاد حباحبة أو جناحة الرومي الذي تولى أمرها، خلفا لجرجير، ثم قدّم بدلا عنه، شخص آخر هو الأطربون، ثم ولاه الخليفة معاوية على مصر خلفا لعبد الله بن عمرو بن العاص، فسار إليها سنة 47هـ/667-668م، دون أن يتخلى عن إفريقية التي لم تستقل عن مصر إلاّ سنة 50هـ/670-671م، عندما عيَّن معاوية بن أبي سفيان، على رأسها، عَقبةَ بن نافع الفهري، واستمرّ ابن حديج في ولاية مصر إلى أن عُزل بمسلمة بن مخلد الأنصاري سنة 55هـ/674-675م، ومنها التي لا تذكر له أي دور في

ـكي: رياض، 1، 19 فما بعدها.

ـنجوم الزاهرة، 1، 130.

ـن تغري بردي: المصدر السابق، 1، 139.

مصر، منذ تولية عمرو بن العاص عليها، للمرة الثانية سنة 38هـ/658-659م، ولكنّها تشير إلى بعض نشاطه ببلاد المغرب، وكان آخر ما أشير إليه من نشاط له سنة 55هـ/674-675م.

ومن اللاّفت للإنتباه أنّ ابن تغري بردي يتحدّث عن وفاته سنة 52هـ/672-673م، أي بثلاث سنوات قبل سنة 55هـ/674-675م ويقول، في مكان آخر، إنّه وفد على الخليفة معاوية بن أبي سفيان سنة 58هـ/677-678م، مضيفا أنّه " كان إذا قَدِم... على معاوية زُينت له الطرق [بقباب الريحان] تعظيما لشأنه "[1] وأنّه دخل على معاوية " وعنده أخته أم الحَكَم، فقالت: من هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال: بَخٍ بَخٍ! هذا معاوية بن حديج؛ فقالت: لا مرحبا " سماعك بالمُعيديّ خير من أن تراه " فسمعها ابن حديج، فقال: على رِسْلِك يا أمَّ الحكم، والله لقد تَزَوّجتِ فما أُكرمتِ، وولدتِ فما أَنجبت، أردْتِ أن يَلِي ابنُك الفاسق علينا فيسير فينا كما سار في أهل الكوفة! ما كان الله ليريه ذلك، ولو فعله لضربناه ضربا يُطأطيء منه، ولو كره هذا القاعد (يعني خاله معاوية)، فَالْتفَت إليها معاوية وقال لها: كُفِّي فكفّت عن الكلام".[2]

والذي يهمُّ، من هذه الزيارة، والقصة المترتبة عنها هو استنتاج ما يلي: لو أنّها تمّت فعلا، وفي نفس التاريخ المذكور، فمعنى ذلك أنّ وفاته كانت بعد سنة 58هـ/677-678م، وليس سنة 52هـ/ 672-673م، كما سبق وأن ذَكَر ابن تغري بردي؛ ثمّ إنّ رأي أمِّ الحكم فيه كان، ولا شك، يَعْكس بعضَ جوانب سُمعته في البلاط الأموي، مثلما يعكس تَزْيين الطرق له، عند قدومه على الخليفة، جوانب أخرى. بل إنّ جواب الرجل لها، أمام أخيها الخليفة إنما يدلّ على جرأته الفائقة في التعامل مع وِصَايته. وموقفه هذا ينسجم تماما مع الموقف الذي اتّخذه من عمرو بن العاص، عند رفض الانصياع لأمره بعدم قتل محمد بن أبي بكر وإرساله إليه، بل أحرقه في جيفة حمار ومع كل ذلك، فإنّ أَمْرَ الخليفة لأخته بالسكوت، بالرغم مما تَحْمِله إجابة ابن حديج من مسّ له شخصيا، يدلّ على تقديره الكبير لشجاعة الرجل الذي كان له عليه فضل كبير في الصعود على عرش الخلافة.

1 النجوم الزاهرة، 1، 151.

2 نفس المصدر، ص 151-152.

4.2- دور عقبة بن نافع الفهري في فتح بلاد المغرب

أ)- نشاط عقبة قبل توليته على إفريقية :

يَعتَبر أبو بكر المالكي عقبةَ بن نافع بن عبد قيس، من الصحابة الذين دخلوا إفريقية[1]. وينسبه ابن عذاري المراكشي إلى فِهْر بن مالك الذي تفرّقت منه القبائل، كما ينقل عن ابن الفياض أنه " ولد قبل وفاة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بسنة واحدة."[2] ويؤيّد الدبّاغ قول: إنّه ولد في عهد الرسول، دون أن يضبط لذلك تاريخا، ملاحظا أنّه " لم يُروَ عنه شيء "[3] من الأحاديث النبوية.

وقد أَوْرَدَ أبو المحاسن بن تغري بردي اسم والد عقبة " نافع بن عبد قيس الفهريّ" في جملة الذين شاركوا في فتح مصر سنة 20هـ/640-641م " من أصحاب رسول الله... من قريش وغيرهم ومن لم يكن له برسول الله... صحبة "[4]، كما ذكر ابن الأثير أنّ الخليفة عثمان بن عفّان، بعدما استعمل على مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح، بَدَلَ عمرو بن العاص سنة 27هـ/647-648م وأمر بغزو إفريقية، أمَّر " عبد الله بن نافع بن عبد القيس " إلى جانب عبد الله بن نافع بن الحارث على الجند " وسرحهما [إلى الأندلس] وأمرهما بالاجتماع مع عبد الله بن سعد على صاحب إفريقية وثمَّ يقيم عبد الله في عمله [ويَسيران في عملهما] فخرجوا حتى قطعوا أرض مصر، ووطئوا أرض إفريقية، وكانوا في... عشرة آلاف من... المسلمين، فصالحهم أهلها على مال يؤدّونه ولم يقدموا على دخول إفريقية والتوغل فيها لكثرة أهلها".[5]

ولما فَتحت إفريقية أمر عثمانُ عبدَ الله بن نافع بن الحصين " وعبد الله بن نافع بن عبد القيس أن يسيرا إلى الأندلس فأتَيَاها من قبل البحر، وكتب عثمان إلى من انتدب معهما: " أمّا بعد فإن القسطنطينية إنّما تفتح من قبل الأندلس..." فخرجوا ومعهم البربر [فأتوها من برّها وبحرها] ففتح الله على المسلمين...، ولما عَزل عثمانُ عبد الله بن سعد عن إفريقية ترك في عمله عبد الله بن نافع بن عبد القيس، فكان عليها...".[6]

---

1 رياض النفوس، جـ.1، ص 62.

2 البيان المغرب، جـ.1، ص 19.

3 الدباغ وابن ناجي: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تصحيح وتعليق ابراهيم سبوح، ط. الثانية، القاهرة 1388هـ/ 1968م، جـ.1، ص 164.

4 النجوم الزاهرة، جـ.1، ص 20.

5 الكامل في التاريخ، جـ.2، ص 482.

6 ابن الأثير: نفس المصدر، ص 486؛ أورد ابن تغري بردي نفس المعلومات الخاصة بفتح الأندلس لكنه لم يشر إلى عزل عثمان لابن أبي سرح عن إفريقية بعبد الله ابن عبد قيس (أنظر. النجوم الزاهرة، جـ.1، ص 84).

وينسب ابن تغري بردي إمارة هذا الجيش الذي فتح الأندلس من البحر إلى "عبد الله بن الحُصين وعبد الله بن عبد القِيس" أي بدون اسمي والديهما المتشابهين " نافع " حسب رواية ابن الأثير السابقة، مما يدفع إلى التساءل الآتي : هل هذا حذف متعمّد قام به هذا المؤلف، أم أنه نقله، كما هو، نقلا صحيحا من مصدر آخر غير ابن الأثير أو الذي نقله عنه هذا الأخير؟ وما يهمّ من هذا الأمر أنّه: في حالة الحذف المقصود فإنّ " عبد الله ابن نافع بن عبد القيس" يُفترض أن يكون شقيقا لعقبة بن نافع بن عبد القيس كما يتضح ذلك من نسب كل منهما؛ أمّا إذا لم يكن هناك حذف وكان نقل ابن تغري بردي سليما " عبد الله بن عبد القيس " فيُفترض أن يكون الشخص المعني عَمًّا لعقبة بن نافع، لأنه منسوب كوالده، مباشرة إلى عبد القيس.

والنتيجة التي تهمّ هذا البحث، هي بروز شقيق عقبة أو عمّه، إلى جانبه، في أحداث إفريقية والغرب الإسلامي، في آن واحد تقريبا؛ بصرف النظر عمّا إذا كانت المعلومات الواردة صحيحة أم لا، لأنّ التمعّن الجيّد في مضمونها، يوحي أنّ هناك خلط كبير بين مختلف أحداث الفتح الأولى التي جرت ما بين سنة 27 و 50هـ/ 647 و671م.

ويشير ابن عبد الحكم (ت. 214هـ/830م) في حديثه عن فتح عمرو بن العاص لبرقة، أي أنطابلس، أنّ هذا الأخير وجّه " عقبة بن نافع حتى بلغ زويلة وصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين "[1] ويربط كلامه عن فتح برقة بكلامه عن فتح طرابلس " ثم سار عمرو بن العاص حتى نزل إطرابلس في سنة اثنتين وعشرين 22هـ/642-643م... [أو] في سنة ثلث (ثلاث) وعشرين 23هـ/643-644م... فحاصرها شهرا..."[2] وهو ما يعني أنّ توجيه عقبة لزويلة حدث بين سنة 23هـ، على أقصى تقدير، وسنة 21هـ/642م التي تمّ فيها فتح برقة.[3]

ويروي البلاذري (ت.279هـ/892-893م) أنّ عمرو بن العاص، بعدما فتح مصر، بعث إلى القرى التي حولها خيلا، وعلى رأسها " عقبة بن نافع الفهري،... فدخلت خيولهم أرض النوبة، كما تدخل صوائف الروم، فلقي المسلمون بالنوبة قتالا شديدا: لقد لاقوهم فرشقوهم بالنبل حتى جُرِح عامتهم، فانصرفوا بجراحات كثيرة وحَدَقٍ

1 فتوح إفريقية، ص 36.

2 نفسه.

3 ماجد (عبد المنعم) التاريخ السياسي للدولة العربية، ط.3، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، جـ1، ص 228.

مفقوءة، فسمَّوا رُماة الحدق "[1] مع ملاحظةِ أنّ الكندي، يضبط تاريخ وقوع هذه الحملة بسنة 31هـ/ 651-652م، في ولاية عبد الله بن سعد، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

ويرى البلاذري أنّ ابن العاصِ " كتب... إلى عمر بن الخطاب، يُعلمه أنه قد ولّى عقبة بن نافع... المغرب فبلغ زويلةَ، وأنّ من بين زويلة وبرقة سَلِمَ كلّهم، حسنة طاعتهم، قد أدّى مسلمهم الصدقة وأقرّ معاهدُهم بالجزية، وأنّه قد وضع على أهل زويلة، ومَن بينه وبينها، ما رأى أنهم يطيقونه. وأمر عمّاله جميعا أن يأخذوا الصدقة من الأغنياء فيردّوها في الفقراء، ويأخذوا الجزية من الذّمة فتَحمل إليه بمصر، وأن يؤخذ من أرض المسلمين العُشر ونصف العُشر، ومن أهل الصلح صلحهم ".[2]

وإذا ثبت أنّ ابن العاص أرسل فعلا هذا التقرير إلى الخليفة عمر، فهو يقوم دليلا على تولية عقبة بن نافع على المنطقة الواقعة ما بين برقة وزويلة، آنذاك، وهو ما يؤكّده، فيما بعد، كل من أبي عبيد البكري (ت.487هـ/ 1097م)[3] وصاحب كتاب الاستبصار (عاش في القرن 6هـ/12م)[4] وعزّ الدّين بن الأثير (ت.630هـ/1232-1233م)[5] وغيرهم.

إلاّ أنّ المتمعّن في التسلسل الزمني لتلك الأحداث يلاحظ أنّ سنّ عقبة بن نافع الذي وُلد سنة واحدة قبل وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، أي سنة 10هـ/631م، لأنّ الرسول (ص) توفي سنة 11هـ/632م[6]، لم يكن يتجاوز اثنتي عشر أو ثلاث عشرة سنة، عام 22 أو 23هـ/642-643-644م الذي تمّ فيه حصار طرابلس والذي سبقته تولية عقبة على برقة وزويلة، بل إنّ سنّهُ لم يتجاوز خمس عشرة سنة، طيلة ولاية عمرو بن العاص الأولى على مصر، والتي انتهت سنة 25هـ/645-646 [7] مما يستوجب طرح السؤال التالي:

هل في استطاعة إنسان دون سنّ الخامسة عشر، بل دون الثالثة عشر، أن يتحمل مسئوليةً في ذلك المستوى؟ من الصعب جدًّا الإجابة على هذا السؤال بنعم، غير أنّ ما يتبادر إلى الذهن أنّ عمره كان أكبر من ذلك وبالتالي يمكن التفكير في أنّ هناك خطأ في

1 فتوح البلدان، جـ.1، ص 280.
2 فتوح البلدان، ص 264-265.
3 أنظر. المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص 10.
4 مؤلف مجهول: ، ص 32؛ مع العلم ان هذا المؤلف يجعل إرسال عمرو لعقبة إلى زويلة بعد فتح برقة وجبل نفوسة أي أنه أضاف جبل نفوسة إلى برقة، بالنسبة لسابقيه من المؤلفين.
5 أنظر. الكامل في التاريخ، جـ.3، ص 320.
6 أنظر. ماجد (عبد المنعم): المرجع السابق، ص 143.
7 أبو المحاسن: المصدر السابق، جـ.1، ص 66.

تاريخ ولادته مما قد يدفع إلى افتراض يقضي أنّ تلك الولادة تكون قد حدثت بسنة واحدة قبل هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وليس قبل وفاته، وعند التسليم بصحة هذا الافتراض يصبح بالإمكان التسليم المنطقي بتولية عمرو لعقبة على ولاية (برقة- زويلة)، لأنّ سنّه، عندها، يكون قد بلغ ما بين اثنتين وعشرين وأربعة وعشرين سنة مما يؤهله إلى القيام بتلك المهمة.

ويذكر ابن الأثير أنّ عقبة بن نافع لقي جيش عبد الله بن سعد بن أبي سرح في برقة، عندما كان متوجِّها إلى فتح إفريقية سنة 27هـ/647-648م " فيمن معه من المسلمين وكانوا بها وساروا إلى طرابلس الغرب..."[1] ويعدّه النويري ممن كانوا في صفوف جيش العبادلة[2] أثناء ذلك الفتح لكنه يقول، في مكان آخر، إنّ ابن أبي سرح ولّى عقبة بن نافع شؤون مصر، قبل أن ينطلق على رأس تلك الحملة[3]، ويفيد ابن عبد الحكم، في إحدى رواياته، أنّ ابن أبي سرح قد بعث بخبر فتح إفريقية إلى الخليفة عثمان مع عقبة بن نافع، ثم يستدرك فيرجّح صدق الرواية التي تسند تلك المهمة إلى عبد الله بن الزبير.[4]

ولم تورد المصادر أي خبر عن عقبة بعد ذلك، لا قبل الفتنة التي بدأت بقتل الخليفة عثمان- رضه - سنة 35هـ/655-656م، وانتهت بتسليم الحسن بن عليّ الأمر إلى معاوية بن أبي سفيان سنة 41هـ/661-662م[5] ولا أثناءها، وكأنّه اعتزلها ولم يكن له فيها أيّ دور، ولم يرجع الحديث عنه إلاّ في ولاية عمرو بن العاص الثانية على مصر[6] حيث أورد الكندي أنّ هذا الأخير عقد " لشريك بن سُمَيّ الغُطيفي على غزو لَوَاتة من البربر فغزاهم... سنة أربعين، فصالحهم ثم انتقضوا... فبعث إليهم عقبة بن نافع بن عبد قيس الفهري في سنة إحدى وأربعين فغزاهم ".[7]

وكان هؤلاء قد صالحوا المسلمين، عندما فتحوا برقة، في ولاية عمرو الأولى على مصر ثم " نقضوا زمن معاوية فغزاهم عقبة... فتنحّوا ناحية أطرابلس فقاتلهم... حتى هزمهم فسألوه أن يصالحهم ويعاهدهم فأبى عليهم، وقال: إنّه ليس لمشرك عهد

---

1 الكامل في التاريخ،جـ.2، ص 483.

2 أنظر: Conquête de l'Afrique septentrionale. pp.314-315.

3 Ibid., p.316

4 فتوح إفريقية و الأندلس، ص 48.

5 البيان المغرب، جـ.1، ص 15.

6 استمرت ولاية عمرو بن العاص الثانية على مصر من سنة 38هـ إلى سنة 43هـ/ وهي سنة وفاته (الكندي: المصدر السابق، ص 34. Le Baron de Slane, dans En- Noweiri. Conquête de L'Afrique Septentrionale : p.327, note. 1

7 المصدر السابق،1، ص 32.

عندنا، إنّ الله عزّ وجلّ، يقول في كتابه: كيف يكون للمشركين عهد (سورة 9، آية 7) ولكن أُبَايعكم على أنّكم توفوني وذأمتي، إن شئنا أقررناكم، وإن شئنا بعناكم "[1] كما عقد له عمرو أيضا على غزو هوّارة، في نفس الوقت الذي عقد فيه لشريك بن سُميّ على غزو لبدة فغَزَوَا هُما سنة ثلاث وأربعين (43هـ/ 663-664م) وعادا إلى الفسطاط فوجداه على فراش الموت.[2] كما سجّل ابن عذاري، نقلا عن الطبري، قيامه بغزوة سنة 42هـ/662-663م على إفريقية " وافتتح غدَامس؛ فقَتل فيها وسَبَى "[3] وفي سنة 43هـ/663-664م ذكر أبو المحاسن بن تغري بردي افتتاحه "كوّرا من بلاد السودان وورادن (ودّان) من بلاد برقة ".[4]

ويحدّد ابن عبد الحكم تاريخ خروج عقبة بن نافع إلى المغرب بسنة 46هـ/666-667م، بعد غزوة معاوية بن حديج الثانية[5]، ولما وصل إلى مغمداش من سُرت، وكان بُسر بن أبي أرطأة قد توجّه إليها سنة 23هـ/643-644م، أدركه الشتاء، وكان مضعفا، وبلغه أنّ أهل ودّان قد نقضوا عهدهم ومنعوا ما كان بُسر بن أبي أرطأة فرض عليهم عندما فتحها أيام عمرو بن العاص " فخلّف عقبة جيشه هنالك... ثم سار (في): أربع مائة فارس وأربع مائة بعير وثماني مائة قربة حتى قدم ودّان فافتتحها وأخذ ملكهم فجدَع أُذُنه... واستخرج منه ما كان بُسر فَرضَهُ عليهم، ثلاثمائة رأس وستين رأسا".[6]

ولم يكتف عقبة بإنجاز المهمة المعلنة، قبل انطلاق حملته، بل راح يسأل السكّان عمّن وراءَهم " فقيل له جَرمة، وهي مدينة فزّان العظمى، فسار إليها ثماني ليال من ودّان، فلمّا دنا منها، أرسل: فدعاهم إلى الإسلام فأجابوا."[7] وكان نزوله على بعد ستة أميال منهم، ولما خرج إليه ملكهم قصْدَ مقابلته أرسل عقبة خيلا، حالت بينه وبين موكبه، " فأمشوه راجلا حتى أتى عقبة وقد لَغِبَ، وكان ناعما فجعل يبصق الدّم... وفرض عليه ثلثمائة عبدٍ وستين عبدا. ووجه... الرّحْلَ من يومه ذلك إلى المشرق".[8]

---

1 الكندي: المصدر السابق، ص 32.

2 نفس المصدر، ص 32-33.

3 البيان المغرب، جـ.1، ص 15.

4 النجوم الزاهرة، جـ.1، ص 125.

5 قام معاوية بن حديج، حسب ابن عبد الحكم، بثلاث غزوات على إفريقية: أولاها كانت سنة 34هـ وهي التي أعطا الخليفة عُثمان مروان بن الحكم خمسها ولا يعرفها كثير من الناس، وكانت الثانية سنة 40هـ/ 660-661 والثالثة سنة 50هـ/670-671 (فتوح إفريقية والأندلس، ص 58 و 60).

6 ابن عبد الحكم: نفس المصدر، ص 60.

7 نفس المصدر، ص 62.

8 نفسه.

والمتأمِّل في كلام ابن عبد الحكم هنا، إن صحّ، يمكنه أن يتفهّم الإجراء الذي قام به عقبة ضد مَلِكٍ ودّان بجذع أذنه ما دام قد نكث العهد الذي قطعه على نفسه للمسلمين قبل ذلك، ولكن من الصّعب عليه تفهّم العِقاب الذي أنزله بملك جرمة الذي أجاب دعوته إلى الإسلام، وأتاه طائعا، وكان اتصاله به لأول مرّة. ألاَ يكون من المنطقي التفكير في وجود خطأ أو مبالغة في هذا النص؟ خاصة وأنّه لم يُعهد على عقبة ولا على غيره، من المسلمين، آنذاك مثل هذه التصرفات، فما الذي يكون، يا تُرى، وراء وصف عقبة بهذه (القسوة) ألأنّه كان حقيقة قاسيا مع خصومه وأعدائه، حتى عندما يُقدّمون له تنازلات؟ وإذاً لماذا لم يعامل يوليان أمير سبتة بنفس الطريقة، فيما بعد؟ أم لمجرّد إظهار حزمه وشدّته قصد إعطاء درس للأحفاد عن شجاعة الأجداد؟ مع العلم أنّ مثل هذه الأوصاف لم تُطلق على عقبة وحده بل عُمّمت على أغلب قادة الفتح.

وقد توجّه عقبة، بعد مدينة جرمَة " إلى قصور فزّان فافتتحها، قصراً قصرا، حتى انتهى إلى أقصاها "[1] وهناك سأل السكان فأرشدوه إلى " أهل خاوار، وهَو قصر عظيم على رأس المفازة، في وعورة، على ظهر جبل، وهو قصبة كوّار، فسار إليهم خمس عشرة ليلة... فحاصرهم شهرا فلم يستطع لهم شيئا، فمضى أمامه على قصور كوّار فافتتحها حتى انتهى إلى أقصاها وفيه ملكها فأخذه فقطع إصبعه... وفرض عليه ثلثمائة عبدٍ وستين عبداً."[2] ثم عاد من حيث أتى لأنّ الدليل لم يزوّده عمّا وراء ذلك بمعلومات، بل كان جوابه له، عندما سأله، " ليس عندي... معرفة ولا دلالة ".[3]

ومرّ عقبة، أثناء عودته، بقصر خاوار، دون أن يتوقف عنده، وبعد تجاوزه بمسافة ثلاثة أيام أصابه، هو وأصحابه، عطش شديد أشرفوا " على الموت فصلّى... ركعتين ودعا الله وجعل فرسه... يبحث بيديه في الأرض حتى كشف عن صفاه فانفجر منها الماء، فجعل الفرس يمصّ ذلك الماء فأبصره... فنادى في الناس أن احتفروا فحفروا سبعين حسيا فشربوا واستقوا."[4] فسُميَ بذلك " ماء فرس ".[5]

---

1 ابن عبد الحكم: فتوح، ص 62.

2 ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص 64.

3 نفسه.

4 نفس المصدر، ص 64.

5 نفس المصدر، ص 64.

وبعدئذ " رجع عقبة إلى خاوار من غير طريقه التي كان أقبل منها، فلم يشعروا به حتى طرقهم ليلا، فوجدهم مطمئنين، قد تمهدوا في أسرابهم، فاستباح ما في المدينة من ذرياتهم وأموالهم، وقتل مقاتلتهم. ثم انصرف ."[1]

وما يلفت الانتباه، في كلام ابن عبد الحكم هنا أيضا، هو قطع أصبع ملك كوّار، دون سبب يُذكَر، مما يوحي أيضا بوجود مبالغة أو خطأ فيه، كما أن مرور عقبة، دون توقف عند قصر خاوار الذي امتنع عليه لا يعود، بدون شك، إلى خطة تكتيكية، يكون عقبة قد رسمها لمباغتته، فيما بعد، كما يمكن أن يستنتج من نص ابن عبد الحكم، بل يُرجَّح أن يعود ذلك إلى نفاذ احتياطي الماء مع أصحابه، وما العطش الذي أصابهم بعد مسافة ثلاثة أيام منه، إلاّ دليل على ذلك، ولما لعبت الصدفة دورا في اكتشاف ماء فرس، وحُلّ مشكل العطش استغلِ عقبة معرفته لموقع خاوار وفاجأ سكانه ليلا لتفادي أيّة مقاومة، وكانت خطة ناجحة تمكّن فيها من تحقيق أهدافه بكلّ سهولة.

ومن خاوار (جاوان) انصرف عقبة، هذه المرة، إلى موضِع مَا صَار يُعرف، فيما بعد، بزويلة ومنها إلى عسكره فوصله بعد غياب دام خمسة أشهر، ومنه توجّه غربا إلى إفريقية، بجانب الطريق الأعظم، وافتتح في طريقه قصور مزاتة وغدامس وقفصة وقصطيلية ثم وصل إلى القيروان[2] أي إلى مكان ما صار يعرف فيما بعد بالقيروان.

وما يلاحظ هنا أن ابن عبد الحكم، في حديثه عن " خروج عقبة إلى المغرب بعد معاوية بن حديج " لم يشر إلى تعيينه على رأس ولاية إفريقية، غير أنّه ربط كلامه في هذا الموضوع بكلامه عن تأسيس القيروان، وعن إساءة عزل أبي المهاجر دينار له، مما يوحى أنّ قصده من ذلك الخروج هو الذي تم بعد تعيينه في ولايته الأولى على إفريقية.

وعلى العكس من ذلك، فإنّ أبا عبيد البكري لم يَقُم بربط تلك الأحداث، بعضها ببعض، ممّا لا يوحي بوجود علاقةٍ مَا بينها، مع أنّ هذا الأخير نقل حرفيا تقريبا المعلومات الخاصة بحملة عقبة هذه عن ابن عبد الحكم أو عن نفس المصادر التي نقل منها، ولا يخالفه في شأنها إلاّ في أمور قليلة، منها: نقطة انطلاق الحملة إلى ودّان، وهي عنده غدامس وليست مغمداش، كما عند بن عبد الحكم، وكذلك تسمية عاصمة كوّار بجاوان وليس خاوار ولم يذكر أيضا، كما فعل بن عبد الحكم، أن عقبة قد افتتح قصور

1ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص 64.

2 المصدر السابق، ص 64.

غدامس، وهو في طريقه إلى المكان الذي أسست به، فيما بعد، مدينة القيروان[1]. مما يدلّ على أنّ استخدامه لكلمة غدامس بدل مغمداش كنقطة انطلاق كان مقصوداً وليس سهواً أو خطأً وبالتالي فهي كانت مفتوحة ولا مجال للحديث عن فتحها مرّة أخرى.

ويلخّص أبو بكر المالكي المعاصر للبكري (عاش كلاهما في ق.5هـ/11م) كلام ابن عبد الحكم، دون الإشارة إلى تاريخ ولا إلى نقطة انطلاق تلك الحملة ودون الحديث عن عودتها إلى مكان انطلاقها، ولا عن سيرها، بعد ذلك، غربا نحو إفريقية، ويتفق، فيما أورده، مع البكري في تسمية عاصمة كوار بجاوان لكنه ينفرد بذكر معلومة جديدة مفادها أن أهل ودّان وفزان أسلموا على يديه عندما فتح بلديهم.[2]

وقد وردت في كتاب معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان روايتان عن محمد بن يوسف الورّاق القيرواني: تتّفق أولاهما مع ما رواه ابن عذاري عن الطبري في تحديد تاريخ غزوة عقبة لأفريقية بسنة 42هـ/662-663م، مضيفة تاريخا محتملا آخر، قيل أنها وقعت فيه، هو سنة 41هـ/ 661-662م، وموضّحة أن ذلك كان بين غزوتي معاوية بن حُديج أو ابن خُديج، وكانت إحداهما سنة 34هـ/654-655م، والأخرى سنة 45هـ/665-666م أو 51هـ/671-672م.[3]

وتحدّد ثاني الروايتين المشار إليهما تاريخ ما تُسمّيه غزوة عقبة الثانية لإفريقية بسنة 46هـ/666-667م وتفيد أنه " افتتح كثيرا من حصونها وأثخن في قتل الروم والبربر، واختطّ مدينة القيروان..."[4] ولا تشير بتاتاً إلى ما رواه ابن عبد الحكم عن قيام عقبة بحملة على ودّان وفزّان وكوار، قبل التوجه إلى إفريقية في تلك السنة، وهذا يتفق تماما مع الرواية التي نقلها ابن الأثير عن الواقدي.[5]

أمّا ابن أبي دينار القيرواني فيتحدث، عن فتح عقبة لغدامس " في ولايته الأولى سنة اثنتين وأربعين (42هـ/662-663م)... ويبلغ في غزوته إلى بلد السودان، وعامة بلاد البربر، وفتح فزّان وودّان وقفصة وقسطيلية، فتحاً ثانيا، لأنها فُتحت قبله وارتدوا فأعادهم بغزوته هذه... وكذلك نفطة وتقيوس وقابس والحامة، ولما غزا فزّان خرج إليه ملكهم فصالحه على ثلاثمائة وستين عبداً. وغزا قصور كوّار وفرض على أهلها ثلاثمائة

1 أنظر. المُغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب، ص 12 فما بعدها.
2 كتاب رياض النفوس، جـ.1، ص 63.
3 الدباغ و ابن ناجي: المصدر السابق، جـ.1، ص 44-45.
4 الدبّاغ و ابن ناجي: المصدر السابق، جـ.1، ص 47.
5 الكامل في التاريخ، جـ.3، ص 321.

وستين عبداً، وهنالك أدركه، هو وأصحابه، العطش فصلى ركعتين... فجعل فرسه يبحث برجلَيْه حتى مطلع الماء، وهو الذي يقال له عين فرس إلى يومنا هذا (أواخر القرن 11هـ/17م). وضايق على أهل كوّار ورحل عنهم وأخذهم بغتة، بعد ما رحل عنهم واطمأنوا... ثم انصرف إلى زويلة، ثم رجع إلى معسكره فأقام به عشرة أشهر وسار، بعد ذلك إلى قفصة وقسطيلية... ثم توجه إلى المغرب ففتح مدينة سبتة ومدينة طنجة..."[1]

ومع أنّ ابن أبي دينار نقل نصّه كما هو واضح، عن كل من ابن عبد الحكم والبكري إلاّ أنّه خالفهما في تحديد تاريخ تلك الحملة بسنة 42هـ/662-663م بدل سنة 46هـ/666-667م، وفي عدم ذكر نقطة انطلاق تلك الحملة، وعدم مراعاة تسلسل سير الأحداث التاريخية، وحذفِ ما يتعلق بمعاملة عقبة لملوك ودّان وجرمة وكوّار وتسمية ماء فرس بعين فرس، كما ربط بين قيام عقبة بهذه الحملة و قيامه بحملته المشهورة التي جال فيها بالمغرب الأقصى، في ولايته الثانية، بدلاً من ربطها، كما فعل ابن عبد الحكم، بالحملة التي أسّس فيها القيروان، في ولايته الأولى، مع أنه لاحظ في بداية كلامه أن فتح غدامس حدث أثناء تلك الولاية ولم يفصل بين هذا الحدث وبقية الأحداث التي شملها نصه.

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو: هل الأحداث التي وقعت في غدامس وودّان وفزّان وكوّار سنة 41 أو 42 أو 43هـ/ 661 أو 662 أو 663 أو 664م كما تَضْبط بعض المصادر تاريخها، أو سنة 46هـ/666-667م، كما تضبطها مصادر أخرى، حدثت أثناء ولاية عقبة بن نافع الأولى على إفريقية والمغرب؟ أي الولاية التي أسس فيها مدينة القيروان؟ فإذا صحت المعلومات التي أشار إليها كل من ابن عذاري وأبي المحاسن ابن تغري بردي، والتي تفيد أن عقبة بن نافع غزا " سنة 49هـ/669-670م... الروم في البحر بأهل مصر."[2] أو كانت له " غزوة... في البحر فشتّى بأهل مصر "[3] فإنّ الجواب عن هذا السؤال يكون " لا! "، بطبيعة الحال، لأنّ المعروف تاريخيا أنّ عقبة عندما شرع في عملية البناء انشغل بها، إلى أنْ عُزِل، واقتصر على إرسال سرايا إلى النواحي القريبة من القيروان للقيام بنشاط محدود كان هدفه منه، ولا شك، توفير التموين لرجاله والعلف لحيواناته؛ أمّا نشاطه الحربي الواسع، الذي قاده هو شخصيا، فلم يستأنفه إلاّ في ولايته

---

1 المؤنس، ص 30.

2 البيان المغرب، جـ1، ص 19.

3 النجوم الزاهرة، جـ1، ص 138.

الثانية التي بدأت سنة 62هـ/ 681-682 فيكون قيامه بحملة بحرية، على رأس أهل مصر، سنة 49هـ/669-670م، دليلا على أن ذلك تمّ قبل ولايته الأولى على إفريقية والمغرب، وبالتالي فإن الأحداث التي تكون قد وقعت قبيل وفاة والي مصر، عمرو بن العاص سنة42أو 43هـ /663-664م، أو بُعيْد قيام معاوية بن حُديج بحملته الثانية على إفريقية سنة 45هـ/ 662-663م، لا تكون لها أية علاقة بولاية عقبة الأولى على إفريقية، والمغرب بل تدخل في إطار نشاطه الذي قام به عندما كان عاملا على محور: برقة - زويلة. ويبقى السؤال المطروح هو: متى كانت ولاية عقبة بن نافع الأولى على إفريقية والمغرب؟

ب)- ولاية عقبة بن نافع الأولى على إفريقية والمغرب:

يفيد المالكي أنّ معاوية بن أبي سفيان، ولّى على مصر معاوية بن حديج، فأغزا إفريقية سنة 45هـ/ 665-666م ففتح جلولاء، ثم أرسل إليه ابن أبي سفيان إمدادات أخرى، من مصر وبلاد الشام سنة 50هـ/670م، فغزا بها بنزرت، وبنى بناحية القرن "قيروانا". ولما رحل إلى الخليفة بالغنائم عزله عن مصر" وولى عليها مسلمة بن مخلد الأنصاري... فوجه... [خالدا] بن ثابت الفهمي إلى إفريقية... سنة أربع وخمسين (54هـ/673-674م)... ثم عزله... وولى أبا المهاجر مولاه... سنة خمس وخمسين (55هـ/ 674-675م)... و... حارب [أهل] قرطاجنة... ثم انصرف فنزل " بدكّرُور " مدينة البربر بالقرب من موضع " القيروان " ... ثم إنّ معاوية... عزل مسلمة... وولى سعيد بن يزيد الأنصاري. فلما بلغ ذلك أبا المهاجر لحق بمولاه. ثم وجّه سعيد بن يزيد عقبة بن نافع الفهري واليا على إفريقية بجيوش من قبله، عددهم عشرة آلاف، سنة سبع وخمسين (57هـ/676-677م). فنزل حتى وصل " قفصة " فافتتحها، وافتتح ما مرّ به في طريقه، حتى وصل إلى موضع " القيروان ".[1]

وقد وردت هذه المعلومات، كما هي تقريبا، في كتاب معالم الإيمان إلاّ أن ناقلها غيّر في آخرها بعض التفاصيل الهامة، في موضوع ولاية عقبة الأولى على إفريقية، حيث حدّد تاريخ تولية مسلمة بن مخلّد لخالد بن ثابت بسنة 50هـ/670-671م بدَلَ سنة 54هـ/ 673-674م الواردة في كتاب رياض النفوس، ولم يحدّد تاريخ عزله بأبي المهاجر دينار، في حين حدّده المالكي بسنة 55هـ/674-675م، وذكر الناقل المشار إليه أن أبا المهاجر، عندما وصل إفريقية. أخذ عقبة فحبسه وضيّق عليه، وهو ما لم يَرِد في نص المالكي ولم يتعرض كذلك لتاريخ تعيين هذا الأخير على ولاية إفريقية ووصوله إليها.

---

1 رياض النفوس، جـ1، ص 17 فما بعدها من عدة صفحات.

وبعد إعلان الناقل المذكور عن انتهاء نقله لكلام المالكي، ينتقل إلى محمد بن يوسف الوراق ويسجّل منه: أنّ عقبة بن نافع غزا إفريقية، غزوته الثانية، في سنة ست وأربعين (46هـ/666-667م) وفيها اختط القيروان[1]، وكأنّ ناقل هذه المعلومة الأخيرة قصد بنقلها ملء الفراغ، غير المعلن، الذي تركه عند نقله من كتاب رياض النفوس.

ويتمثّل ذلك الفراغ، بالإضافة إلى عدم ذكر تاريخ تعيّين أبي المهاجر على ولاية إفريقية ووصوله إليها، في عدم الإشارة إلى محاربة هذا الأخير لقرطاجنة وإلى نزوله بمدينة دكرور وإلى عزل معاوية بن أبي سفيان لمسلمة بن مخلّد بسعيد بن يزيد الأنصاري والتِحاق أبي المهاجر بمولاه، عند سماعه خبر ذلك التغيير، وتعيين سعيد بن يزيد لعقبة على رأس ولاية إفريقية سنة 57هـ/676-677م.

والأسئلة التي تَطْرح نفسها، عند ملاحظة هذا النقص أو هذا الحذف غير المعلن، هي: ألا يعود عدم تسجيل تلك المعلومات إلى عدم تسليم الناقل بصحة مضمون ما جاء فيها؟ وهل المعلومات المنقولة من نفس النص بدت له أكثر مصداقية؟ المهم، في الأمر، أنّ النقطة التي تشكل محلّ خلاف، بين المؤلفين، هي التي تهم موضوعنا، وهي تمسّ ظروف وتاريخ ولاية عقبة الأولى على المغرب، ومن ثمّ يتطلب الأمر التوقف عندها واستشارة المصادر فيها، أولاً بأوّل، بدءاً بالبلاذري (ت.279هـ/892-893م) الذي يرى أن معاوية بن أبي سفيان، بعد توليته الخلافة، " ولّى معاوية بن حُديجْ السكوني مصر، فبعث في سنة خمسين (50هـ/670م) عقبة بن نافع... فغزاها واختطّها "[2] ويروي في مكان آخر أن ابن حديج بعدما عُيّن والياً على مصر، مكانَ عبد الله بن عمرو بن العاص الذي تولّى مكان أبيه المتوفى سنة 42 أو 43هـ/ 662 أو 663 أو 664م، "أقام بها أربع سنين، ثم غزا فغنم. ثم قدم مصر فوجّه عقبة...، ويقال بل ولاّه معاوية المغرب، فغزا إفريقية في عشرة آلاف من المسلمين. فافتتح إفريقية واختطّ قيروانها".[3]

ويتّفق المالكي (ت.453هـ/1061-1062م)، في رواية له، مع هذا الاحتمال الأخير بقوله "وذُكر أن معاوية وجّه عقبة في جيش عظيم إلى إفريقية غازيا، فدخلها وافتتحها، ووضع السيف على مَن فيها من النّصارى، وقال لأصحابه: " أرى لكم

---

1 الدبّاغ و ابن ناجي: المصدر السابق، جـ.1، ص 44 فما بعدها من عدة صفحات.

2 كتاب فتوح البلدان، جـ.1، ص 268.

3 البلاذري نفس المصدر، ص 269.

يا معشر العرب أن تتخذوا بها مدينة تجعلونها عسكراً، وتكون عِزًّا للإسلام إلى آخر الدّهر"، فأجاب الناس ذلك ...".[1]

مع ملاحظة أنّ المالكي لم يحدّد تاريخ التوجيه الذي يتحدّث عنه لكن صاحب كتاب الاستبصار (عاش في النصف الثاني من القرن 6هـ/12م) يذكر أنه " في سنة سبع وأربعين (47هـ/668-667)... ولى معاوية بن أبي سفيان بن عقبة... على إفريقية فافتتحها في عشرة آلاف... وأفنى من بها من النصارى ثم قال إني أرى إفريقية إذا دخلها إمام تحوّموا بالإسلام، فإذا خرج عنها، رجع كل من أجاب منهم عن دين الله، فهل لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا مدينة تكون لكم عزًّا للأبد، فأجابه الناس...".[2]

وقد وضع ابن عذاري المراكشي (عاش في أواخر القرن 7هـ/13م) تولية الخليفة معاوية لعقبة في سياق ما كان يجري في المنطقة من أحداث فذكر أنّ الخليفة الأموي أخرج ابن حُديج في غزوة إلى إفريقية سنة 45هـ/665-666م، هزم فيها أسطولا بيزنطيا بقيادة البطريق نجفور، وهزم الروم بسوسة وفتح مدينة جلولا : "وفي سنة 46هـ/67-666م... كان العامل على بلاد إفريقية، من قبل معاوية بن أبي سفيان، معاويةُ بن حديج الكندي"[3]، أي أن ابن أبي سفيان عيّن ابن حديج عاملا على إفريقية فقط، دون مصر. و"في سنة 47هـ/68-667م عَزَل معاوية بن أبي سفيان عبدَ الله بن عمرو بن العاص عن مصر وولاّها... ابن حديج...، فسار متوجها إليها من إفريقية".[4]

وهذا يوحي بأنّ معاوية لم يجرؤ على تنحية عبد الله بن عمرو، عن مصر، إلاّ بعد ما اقتطع عنها إفريقية للحدّ من قوته ولمحاصرته من الناحية الغربية، حتى لا تُرَاوِده نفسه إلى الإنفصال عن الدولة، نظرا لما كان لوالده من دهاء ونفوذ بتلك الولاية.

وإذا سلّمنا بوقوع هذه التّولية وأخذنا بعين الاعتبار التاريخ الذي حدَّد به صاحب كتاب الاستبصار تولية ابن أبي سفيان لعقبة علىٍ إفريقية، وهو 47هـ/68-667، يمكن استنتاج أنّ الخليفة أخذ قرارين في آن واحد : قراراً بتعيّين ابن حُديج على مصر، وقرارا بتعيين عقبة على إفريقية، لكن المشكل الذي يحول دون التسليم بصحّة هذا الاستنتاج هو أنّ عقبة كان قريباً لابن العاص، وهو من أشهر قادته، وهذا من شأنه أن يدفع معاوية ابن أبي سفيان، إن كانت له تخوّفات فعلا، من عبد الله ابن عمرو، أن يتفادى

1 رياض النفوس، جـــ1، ص 6.
2 مؤلف مجهول: ص 3-4.
3 البيان المغرب، جـــ1، ص 18.
4 نفســه.

تعيينه على ولاية إفريقية حتى يتمّ حلّ مشكلة عبد الله وإبعاد خطره نهائيا، عن تلك المنطقة، كي يتفادى شبح تحالفهما ضدّه فيها.

وبالتالي فإنّ تسلسل الأحداث يكون قد جرى وِفق ما أكّده ابن عذاري بقوله " وفي سنة 48هـ/ 668-669م كان العامل، على مصر وإفريقية، لمعاوية بن أبي سفيان، معاوية بن حديج... وفي سنة 50هـ/670م عَزل معاويةُ بن أبي سفيان معاويةَ بن حديج عن إفريقية، وأقرّه على ولاية مصر، ووجه إلى إفريقية عقبة بن نافع الفهريّ"[1] فوصلها " في عشرة آلاف من المسلمين... ووضع السيف في أهلها، فأفنى من بها من النصارى ...".[2]

ويتّفق عز الدين بن الأثير (ت.630هـ/1232-1233م) مع ابن عذاري في تحديد تاريخ تولية ابن حديج على مصر، مكان عبد الله بن عمرو، بسنة 47هـ/667-668م[3] لكنّه يذكر، في مكان آخر، أنّ الخليفة عَزل ابن حديج عن مصر سنة 50هـ/670م " ووليها مسلمة بن مخلّد مع إفريقية. وكان معاوية بن أبي سفيان بعث، قبل أن يولّي مسلمة... عقبةَ بن نافع إلى إفريقية [فافتتحها]، وكان اختطا قيروانها "[4] ولم يحاول ابن الأثير هنا التطرّق إلى تاريخ حدوث هذا البعث. غير أنه أدخل الشك، فيما بعد، على صحة هذه المعلومة وراح يسندها إلى أبي جعفر الطبري، مُعلّقا على ذلك بقوله " والذي ذكره أهل التاريخ من المغاربة، أنّ ولاية عقبة بن نافع إفريقية، كانت هذه السنة (أي سنة 50هـ/670م)، وبني القيروان "[5] وهذا يعني أنّه يريد أن يقول بأنّهم أدرى بشؤون منطقهم، ممّا جعله يلخّص أخبارهم بقوله: " إنّ معاوية بن أبي سفيان عزل... ابن حديج عن إفريقية واستعمل عليها عقبة بن نافع الفهري، وكان مقيما ببرقة وزويلة، مُذ فَتَحها أيّام عمرو بن العاص... فلما استعمله معاوية سيّر إليه عشرة آلاف فارس، فدخل إفريقية وانضاف إليه من أسلم مِن البربر، فكثر جمعه وَوَضع السيف في أهل البلاد، لأنّهم كانوا إذا دخل إليهم أمير أطاعوا، وأظهر بعضهم الإسلام فإذا عاد الأمير عنهم نكثوا وارتد من أسلم، ثم رأى أن يتخذ مدينة... فقصد موضع "القيروان".[6]

1 ابن عذاري: نفس المصدر، ص 18-19.
2 نفس المصدر، ص 19.
3 الكامل في التاريخ، جـ.3، ص 311.
4 نفس المصدر، جـ.3، ص 319.
5 نفس المصدر، جـ.3، ص 320.
6 الكامل،3، 320.

وبالنسبة للنويري (عاش في القرن 8هـ/14م) فإنّ تولية معاوية بن أبي سفيان لمعاوية بن حديج على إفريقية، كانت عندما أخرجه إليها في حملة سنة 45هـ /66-665م[1]، وهو يختلف في ذلك مع ابن عذاري الذي يجعلها سنة 46هـ/67-666م، كما أسلفنا، وينقل النويري أيضا عن ابن الرقيق أنّ تكليف ابن حديج بولاية مصر، عِوَضاً عن إفريقية، كان بعد دخوله مصر، دون الإشارة إلى تاريخ هذا الدخول، وفيما عدا ذلك فإنّ النويري لا يختلف في أي شيء عن مضمون ما أورده ابن الأثير في شأن ولاية عقبة الأولى على إفريقية.[2]

والذي يوضّحه ابن خلدون (ق.8هـ/14م) أن معاوية بن أبي سفيان " بعث معاوية ابن حديج من مصر، لإفتتاح إفريقية، سنة خمس وأربعين (45هـ/66-665)، وبعث مَلِكُ الروم عساكره، لمدافعتهم في البحر...، وهَزَمَهم العرب بساحل أجم. وحاصروا جلولاء وفتحوها، وقفل معاوية بن حُديج إلى مصر فوَلّى معاوية بن أبي سفيان على إفريقية، بعده، عقبة بن نافع، فاختط القيروان "[3]، أي أن توليه عقبة على إفريقية تمت بعد عودته إلى مصر. وبالنسبة لابن تغري بردي (813-874هـ/1410-1470م) فإن عقبة "غزا... من قبل مسلمة بن مخلّد القيروان واختط... مدينة القيروان وابتناها " سنة ثمان وخمسين 58هـ/677-678م.[4]

والنتيجة التي يمكن التوّصل إليها بعد القيام بهذه الجولة في أهمّ المصادر التي تحدّثت عن عقبة بن نافع الفهري تَكمُن في تولّد قناعة بأنّ تعيّينه على رأس ولاية إفريقية، لأوّل مرّة، حدث سنة 50هـ/670-671م، أمّا الأحداث والفتوحات التي نسبت إليه قبل هذا التاريخ، في سنوات 41هـ/662/661م أو 42هـ/662-663م أو 43/663-664 أو 46هـ/666-667م. فتدخل فيما كان له، عند إقامته " ببرقة وزويلة، مذ فتحها أيام عمرو بن العاص،... (من) جهاد وفتوح " على حدّ تعبير ابن الأثير[5]، دون استبعاد توغله، أثناء ذلك أحيانا، في النواحي الشرقية لإفريقية لغرض استكشافها، وهذا ما يبرّر ذكر المؤرخين لاسمه، عند تناولهم الحديث في تلك المواضيع، وخلطهم بين الأحداث السابقة للتعيين، وأحداث التعيّين، نفسه، الذي تم فيه تأسيس مدينة القيروان.

---

1 Conquête de l'Afrique, pp. 323-24

2 أنظر Conquête de l'Afrique, p. 327

3 كتاب العبر، جـ.6، ص 216.

4 النجوم الزاهرة، 1، 150.

5 الكامل في التاريخ، جـ.3، ص 320.

جـ)- تأسيس مدينة القيروان:

يذكر ابن عبد الحكم أنّ عقبة، عندما وصل إفريقية، " لم يُعجب بالقيروان الذي كان معاوية بن حديج بناه قبله، فركب والناس معه حتى أتى موضع القيروان اليوم "[1] أي في عهده (القرن الثالث الهجري/9م)؛ وكان ابن حديج، أثناء غزوته الأولى للمغرب، سنة 34هـ/654-655م أتخذ قيروانا عند جبل القرن، بمنطقة " قونية ".[2]

ويطلق المالكي على" قونية " هذه تسمية " قمّونية " وينقل عن " بعض أهل العلم بالسِّير ومغازي إفريقية " أنّ عبد الله بن سعد، عندما حل بالبلد نزل بها و " سأل عن أشرافِ مَن بإفريقية من الروم. فقيل " جرجير "، وهو صاحب مدينة سبيطلة، فزحف... إلى جرجير الملك...".[3]

ومع أنّ المالكي كان مطلعا على الرواية التي تُنْسب إلى معاوية بن حديج قيامه بثلاث غزوات على إفريقية، أوّلها كانت سنة 34هـ[4]/ 654-655، كما ذكر ابن عبد الحكم، لكنّه لا يشير إلى اتّخاذه قيرواناً بإفريقية ولا إلى أيّ نشاط له آنذاك، بل يسجّل نزول جيشه بـ " قمّونية " أي " قيروان إفريقية " كما يقول، أثناء الحملة التي قام بها سنة 45هـ/665-666م ومن قمونية انتقل ابن حديج بجيشه إلى جبل " القرن " أو إلى جبل " مطور " قبل أن يتوجّه لفتح مدينة " جلولاء " وبعد نجاح مهمته أرسل الغنائم إلى الخليفة معاوية بن أبي سفيان، فلما وصلته، أعانه بجيوش من الشام، ومن مصر، فالتحقت به سنة 50هـ/ 670-671م، وعندها حُفرت " آبار حُديج " بباب تونس، مقرّ الجيش آنذاك؛ ومن هناك غزا ابن حُديج " بنزرت " فغنم من نواحيها الكثير، ليعود بعدها إلى " قمونية " ويبني بناحية القرن مساكن سماها " قيرواناً "، ولم يكن موضعها معموراً قبل ذلك.[5]

لكنّ المالكي يذكر، في مكان آخر. أنّه " كان في موضع القيروان حصن لطيف للرّوم يسمّى " قمونية وكان فيه " كنيسة وفيها الساريتان الحمراوان اللتان هما اليوم

---

1 فتوح إفريقية والأندلس، ص 64

2 نفس المصدر، ص 56 و 58؛ يشير ابن عبد الحكم إلى قيام ابن حديج بحملتين أخريتين على إفريقية: إحداهما سنة 40هـ/660-661م و الثانية سنة 50هـ /670م (نفس المصدر ص58 و 60).

3 رياض النفوس، جـ1، ص 12.

4 نقل المالكي تلك الرواية عن أبي العرب، ووضعها في ثنايا كلامه في حديثه عن غزوة ابن حديج لإفريقية سنة 45، وهي رواية مطابقة لرواية ابن عبد الحكم (أنظر رياض النفوس، جـ1، ص 18-19)

5 المالكي، نفس المصدر، جـ1، ص 17 فما بعدها؛ الدباغ وابن ناجي: المصدر السابق، جـ1، ص 42 فما بعدها.

(أي أيام المالكي، ق.5هـ/11م) في المسجد الجامع..."[1] ويؤكد النويري هذه المعلومة، فيما بعد، دون الإشارة إلى الساريتين.[2] ولم يتحدث ابن عذاري عن نزول معاوية بن حديج بقونية أو قمونية ولا عن المساكن المسمّاة " قيروان " لكنه نقل عن الطبري قوله: إنه لما غزا إفريقية ووصلها سنة 45هـ/665-666م أَخرج عبدَ الله بن الزبير إلى البطريق نجفور الذي كان قد حلّ بالساحل، على رأس أسطول، فأقلع منهزما في البحر، ولما أخرج إليه روم سوسة خيلا هزمها "ورجع... إلى معاوية بن حديج، وهو بجبل القرن"[3] وبعد ذلك وجّه ابن حديج عبد الملك بن مروان إلى مدينة جلولاء[5] أو خرج إليها هو نفسه[4] فافتتحها وغنم كل ما كان بها.

ونقل ابن عذاري أيضا عن البلاذري قوله: إنّ ابن حديج بعث إلى صقلية " سنة 46هـ/ 666-667م، عبد الله بن قيس. ففتحها..."[5] ولما ولاه الخليفة مصر مكان عبد الله بن عمرو بن العاص، "سنة 47هـ/667-668م... سار متوجها إليها من إفريقية".[6]

فالواضح من كلام ابن عذاري، إذًا، أنّ معاوية بن حديج مكث في إفريقية حوالي سنتين، من 45هـ/ 665-666 إلى 47هـ/667-668، ولذلك كان لا بدّ له من مقر، أي معسكر، أي قيروان، ويستنتج من حديثه عن (رجوع) عبد الله بن الزبير، بعدما طرد أسطول نجفور وهزم روم سوسة، إلى ابن حديج، وهو بجبل القرن، أنّ ذلك القيروان كان موجودا هناك، ومنه كانت تنطلق مختلف الغزوات التي قام بها المسلمون آنذاك، على مختلف أنحاء إفريقية وصقلية.

وما يتّفق عليه الجميع، أي كلّ من ابن عبد الحكم والمالكي وابن عذاري، أن موقع ذلك القيروان "عند جبل القرن" حسب تعبير الأول، أو "بناحية القرن"، حسب تعبير الثاني أو "بجبل القرن"، حسب تعبير الثالث، ولا شك أنّ ثلاثتهم قصدوا بتعابيرهم المختلفة "سفح جبل القرن"؛ أمّا ما لم يتحدث عنه أيّ مصدر من المصادر المذكورة والذي سيختلف مع ما تحدّثت به هذه الأخيرة وغيرها عن القيروان الذي أسسه عقبة بعد ذلك، فهو تأسيس دار إمارة، ومسجد جامع، وتخطيط الموقع،

---

1 المالكي نفس المصدر، ص 21.

2 En- Noweiri : op.cit., p.330

3 البيان المغرب، جـ1، ص 16.

5 نفسه.

4 نفس المصدر، ص 17.

5 نفس المصدر، ص 18.

6 نفسه.

وتقسيمه بين الناس لبناء مساكن فيه، قصد استقرارهم هناك، وهذا هو الفرق الأساسيّ بين القيروانَيْن: قيروان معاوية بن حديج، وقيروان عقبة بن نافع.

وقد سُجل في كتاب معالم الإيمان أنّ "أوّل جيش نزل القيروان من جيوش المسلمين، حيش عبد الله بن أبي سرح... سنة سبع وعشرين (27هـ/647-648م). ثم جيش معاوية بن خُديج (حديج) السّكوني ثلاث مرّات، ولى ذلك سنة أربع وثلاثين (34هـ/654-655م)... ثم عقبة ابن عامر الجهني. ثم رُوَيفع بن ثابت الأنصاريّ سنة سبع وأربعين (47هـ/667-668م). ثم عقبة بن نافع الفهري سنة خمسين (50هـ/670-671)، وفيها اختط القيروان، وفي كلّ جيش من هذه الجيوش تنزل طائفة من الصحابة بأرض القيروان".[1]

والمقصود بالقيروان، بصرف النظر عن دقّة ما ورد من معلومات، في هذا النص، ليست المدينة، بدليل أنّ صاحبه يشير إلى اختطاط عقبة بن نافع لها سنة 50هـ/670-671م، أي بعد وقوع كل الأحداث المذكورة فيه وإلى نزول كل جيش من تلك الجيوش "بأرض" القيروان، فالمقصود إذاً هو "أرض القيروان" ولا يُعرف ما إذا كانت تلك الأرض ضيّقة أو واسعة، مع العلم أن تسمية القيروان كانت أحيانا ترادف تسمية إفريقية، وقد تكون وردت هنا بهذا المعنى.

أمّا فيما يخصّ مدينة القيروان ذاتها. فقد تحدّثت بعض المصادر عن حِوارٍ دارَ بين عقبة و بين بعض أصحابه، في موضوع اختيار موقعها، بالنسبة لساحل البحر ولسبخةٍ، بحيث اقترحوا عليه تقريبها من البحر ليتم لهم أو لأهلها " الجهاد والرّباط " فعبّر لهم عن تخوّفه من أن يطرقها صاحب القسطنطينية " بَغتة " فـ " يهلكها " أو " يملكها " ثم نَدّم اقتراحا، بديلا عن اقتراحهم يقضي أن يجعلوا بينها وبين البحر ما لا يُدركه غزاته، لأن أصحاب المراكب لا يَظهَرون منه حتى يستُرهم الليل، ويصلوا إلى الساحل في منتصفه، ثم يخرجون ويُقيمون في غارتهم إلى نصف النهار، فإن كان بينها وبين البحر ما لا يوجب فيه التقصير (للصلاة) فلا تُدركها منهم غارةٌ أبداً، ويكون أهلها مرابطين،

---

1 الدباغ وابن ناجي: جـ1، ص 33.

ومن كان على البحر فهُم حرس لهم، وهم عسكر معقود إلى آخر الدّهر، وميّتهم في الجنّة.[1]

ومثل هذا الجواب، إن صحّ قوله، يمكن أن يقوم دليلا على خبرة عقبة بالحملات البحرية ويزيد من احتمال قيامه، هو نفسه ببعضها. وبخاصّة تلك التي ذكر ابن عذاري أنّه قام بها سنة 49هـ/ 669-670م، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، والمهم أنه لما اقتنع أصحابه برأيه، قدّم لهم اقتراحا ثانيا بقوله " قرّبوها من السبخة "، وعندما أبدوا له تخوّفهم، من الذئاب هناك ومن حرّها في الصيف وبردها في الشتاء، أوضح لهم أن الأمر لا بدّ منه، ما دامت أكثرِ دوابّهم الإبل التي تحمل " أثقالهم " أو " عسكرهم " فتكون على أبواب مِصرِ هم أو قَصرِهم في مراعيها، آمنة من غازية أو عادية البربر والنصارى، فإذا فرغوا من بنائها، لا بدّ لهم من الغزو والجهاد لفتح البلادأوّلا بأوّل فلم يختلفوا معه.[2]

وعندئذ قصد بهم موضع القيروان، " وكان واديا "[3] أو " على ساحل واديها "[4] وكان " كثير الشجر، كثير القطف، تأوي إليه الوحوش والسباع والهوام " أو كان " غيضة ذات طرفاء وشجر، لا يُرام من السباع والحيات والعقارب القتالة." حسب تعبير البلاذري[5] أو أنّه كان " دخلة مشتبكة بها من أنواع الحيوان، من السباع والحيات وغير ذلك ." حسب تعبير ابن الأثير.[6]

ولما أمرهم بالشروع في عملية البناء عبّروا له عن خوفهم مما في الشعار والغياض من السباع والحيات وغيرها من الحيوانات[7]، وكان ابن نافع رجلا صالحا مستجاب الدعوة فدعا ربه ثم نادى: " أيتها الحيات والسباع إنّا أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ارحلوا عنا فإنا نازلون ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه[8] "أو أنّه نادى بأعلى صوته يأهل الوادي ارتحلوا رحمكم الله فإنا نازلون ونادى بذلك ثلثة (ثلاث) أيام فلم يبق من السباع شيء ولا الوحوش والهوام إلا خرج "[9] أو أنّه بات على الوادي هو

1 قارن. المالكي: رياض النفوس، جـ.1، ص 6؛ كتاب الاستبصار، ص 4؛ ابن عذاري: البيان، جـ.1، ص 19؛ الدباغ وابن ناجي: معالم، جـ.1، ص 9؛ يوضح المصدر الأخير أن نصّ كلامهم يبين أن الرّباط يحصل بسكنى الأهل في حين أن الفقهاء يقولون: " إن الرباط إنّما يحصل لمن خرج عن أهله وسكن بالسّواحل، وأمّا من استوطن فلا يحصل له فضل الرّباط..." (نفسه).

2 قارن المالكي: المصدر السابق، جـ.1، ص 6-7؛ ابن عذاري: المصدر السابق، جـ.1، ص 19-20؛ مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 4؛ الدبّاغ وابن ناجي: المصدر السابق، جـ.1، ص 9.

3 ابن عبد الحكم: فتوح ، ص 64.

4 المالكي: المصدر السابق، ص 7.

5 المصدر السابق، ص 269.

6 المصدر السابق، جـ.3، ص 320.

7 المالكي: المصدر السابق، جـ.1، ص 7؛ ابن عذاري: المصدر السابق، جـ.1، ص 20.

8 ابن الأثير: المصدر السابق، جـ.1، 320؛ قارن البلاذري: المصدر السابق، ص 269؛ مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 4.

9 ابن عبد الحكم: فتوح ، ص 64 و 66.

وأصحابه، وفي الصباح " وقف على رأس الوادي، فقال يا أهل الوادي اظعنوا فإنا نازلون، قال ذلك ثلث (ثلاث) مرّات فجعلت الحيات تنساب والعقاب وغيرها مما لا يعرف من الدواب تخرج ذاهبة..."[1]، أو قال: " يا أهل الوادي، اظعنوا فإنا نازلون، وإنّا من وجدناه قتلناه "[2] أو أنه " دعا ما كان في الغيضة من الوحوش والهوام، وقال اخرجوا بإذن الله "[3]، أو أنّه، قبل مناداته هذه، كان يدعو الله (عز وجلّ) برفقة من كان معه من الصحابة التابعين، وعددهم خمسة عشر أو ثمانية عشر رجلا، وكانوا يؤمنون على دعائه إلى أن وقف على السّبخة وواديها.[4]

وبعد ذلك الدعاء وتلك المخاطبة أخذت الحيوانات، بمختلف أنواعها، في الخروج، من أماكنها: فكانت السباع تحمل أشبالها، والذئاب أجراءها والحيات أولادها والعقارب تدبّ دبيباً سمعا وطاعة لرب العالمين، ونادى في أصحابه أن يكفوا عنهم حتى يرتحلوا وكان الناس ينظرون إليها[5] "حتى أوجعهم حرّ الشمس".[6] ورأى هذا المشهد " قبيلٌ كثير من البربر فأسلموا ".[7]

وانقرضت هذه الحيوانات تماما من القيروان " فبقيت... أربعين سنة لم يُر فيها خشاش ولا هوام "[8] ولا حية ولا عقرب ولا سبع[9] ولو التُمست في تلك المدة " حيّة أو عقرب بألف دينار ما وُجدت "[10]. مع ملاحظة أنّ كلّ المعلومات التي تتفق أغلب المصادر على مضمونها، وتختلف في بعض تفاصيلها، تَدخل في موضوع ما يعرف بكرامات عقبة، ويحتاج الأمر فيه إلى نقاش جاد، عسى أن يُتوصل إلى استنتاجات مقبولة منطقيا عنه. المهمّ أنّ المصادر تضيف أنّ عقبة، بعد خروج تلك الوحوش والحيات، أمر أصحابه بتهيئة المكان المخصّص لبناء المدينة بدءا بتنقيته، مما كان به من أشجار وأحراش، وتخطيط المساكن والمرافق ونقل الناس إليه " من الموضع الذي كان

---

1 ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص 66.

2 المالكي: رياض النفوس،1، 21؛ الدباغ و بن ناجي: مصدر سابق، جـ1، ص 9-10.

3 مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 4.

4 ابن عذاري: البيان، 1، 20؛ المالكي: رياض النفوس،1، 7.

5 المالكي: المصدر السابق،1، 7؛ ابن عذاري: مصدر سابق،1، 20؛ قارن ابن الأثير: الكامل،3، 320؛ مؤلف مجهول: الاستبصار، ص 4؛ الدباغ و ابن ناجي، 1، 9-10.

6 البيان، 1، 20؛ ابن عبد الحكم: فتوح، 66. حسب الدباغ وابن ناجي فإن حرّ الشمس أوجع الحيات وهي تخرج من جحورها، وأن عقبة أقام ثلاثة أيام وهو ينادي بأعلى صوته: يا أهل الوادي، قد أجلناكم ثلاثة أيام (معالم الإيمان، 1، 10). وينقل المالكي عن أبي العرب نفيه للرواية التي تقول إن عقبة بن عامر هو الذي جرى له ذلك لأنه لا يوجد في شيء من مغازي إفريقية أن عقبة بن عامر غزاها أو وُلي عليها (رياض النفوس، 1، 62؛ قارن . معالم الإيمان، 1، 10)

7 ابن الأثير: الكامل،3، 320؛ En – Noweiri : op.cit., p.328

8 مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 4؛ قارن المالكي: رياض النفوس،1، 21.

9 ابن عذاري: البيان، 1، 20؛ En –Noweiri : Conquête, p.328

10 ابن عبد الحكم: فتوح، 66، الدباغ وابن ناجي: معالم،1، 10.

معاوية بن حديج نزله... وركّز رُمحه، وقال: هذا قيروانكم "[1] ويلاحظ هنا استخدام ابن عبد الحكم لاصطلاحين مختلفين " الموضع " والقيروان " أي أن نقل الناس تَمّ من مجرّد " موضع " عادٍ إلى " قيروان " له خصائصه العمرانية.

وأوّل ما اختطه عقبة هو دار الإمارة[2] و " اتخذ لها من الخمس ما يتّخذ الأمراء لحرس المسلمين."[3] لكن مصادر أخرى تذكر أن عقبة اختط المسجد الأعظم، وبدأ يصلي فيه قبل بنائه وثار جدالٌ بينه وبين الناس في موضوع تحديد قبلته وطلبوا منه تقويمها، خاصة وأن أهل المغرب، كما قالوا له، يقتادون بها في توجيه قبلة مساجدهم، ثمّ راحوا يراقبون " مطالع الشتاء والصيف، من النجوم، ومشرق الشمس "[4] دون أن يتوصلوا إلى نتيجة .

ولّما تأثّر عقبة بهذا المشكل، دعا الله سبحانه و تعالى أن يُفرّج عنه، فأتاه في مَنامه آت، وطلب منه أن يأخذ اللّواء بين يديه، في الصباح، ويجعله على عاتقه أو عنقه، وعند سماعه تكبيرا لا يسمعه أحدٌ غيره يتحرك، إلى أن ينقطع عنه، فتكون القبلة والمحراب مكان ذلك الانقطاع. فاستيقظ عقبة من نومه، وهو جزع، وتوضأ وأخذ يصلّي في المسجد، ومعه أشراف الناس، وعندما صلّى الصبح بأصحابه سمع تكبيرا، ولّما تأكّد أنّ أصحابه لم يسمعوه، راح يطبّق الخطة المرسومة له وركّز لواءه في المكان الذي انقطع فيه التكبير قائلا " هذا محرابكم "[5] أو أنّ عقبة لّما " أراد تمصير القيروان فكّر في موضع المسجد منه. فرأى، في منامه كأنّ رجلاً أذّن في الموضع الذي جعل فيه مئذنته، فلمّا أصبح بنى المنابر (المنبر) في موقف الرّجل، ثم بنى المسجد."[6] ؛ وسواء تعلّق الأمر بوضعية قبلة المسجد ومحرابه أو بموقع المسجد نفسه فإنّ المصادر تتطرق، مرّة أخرى، إلى كرامة من الكرامات التي نسبتها إليه مما يتطلّب تريّثا وتأمّلاً كبيرين قصد الخروج بتفسيرات واستنتاجات يقبلها العقل والمنطق.

---

1 ابن عبد الحكم، فتوح، ص 66.

2 ابن عذاري: البيان، 1، 20؛ En –Noweiri : op.cit., pp.328-329

3 المالكي: رياض النفوس، 1، 7.

4 نفسه؛ ابن عذاري: نفس المصدر، 1، 20؛ En- Noweiri : op.cit., p.329

5 المالكي، نفس المصدر، ص 7-8؛ ابن عذاري: نفس المصدر، ص 20-21؛ En- Noweir : op.cit. 329؛ مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 4.

6 فتوح البلدان، 1، 271.

والمهمّ أنّ الناس شرعوا، بعد ذلك، في بناء مساكنهم ومساجدهم، وقصدوها من كل أفق فامتلأت بهم[1] وكان عقبة، أثناء عمارتها " يغزو ويرسل السرايا فتُغير وتنهب؛ ودخل كثير من البربر في الإسلام، واتّسعت خطة المسلمين وقوي جنان من كان هناك من الجنود... وأمنوا واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها "[2] و " افترق أمر الفرنجة وصاروا إلى الحصون، وبقي البربر بضواحيهم..."[3] ولما تمّ إنجازها سنة 55هـ/675م كان دورها أي محيطها 3600 باع[4] أي 13600 ذراع.[5]

د)- عزل عقبة بأبي المهاجر ثم إعادته إلى ولايته :

تذهبُ أغلب المصادر إلى القول: إنّ الخليفة معاوية بن أبي سفيان عزل معاوية ابن حديج عن مصر، وولّى عليها وعلى إفريقية مسلمة بن مخلّد الأنصاري الذي ولّى بدوره، مولاه أبا المهاجر دينار مكان عقبة بإفريقية.[6] ويتّفق أغلبها كذلك على تحديد وقوع هذا التغيير بسنة 55هـ/ 675م[7]، بعدما قضى بها " أربعة أعوام " على حد تعبير ابن عذاري المراكشي[8]، أي من أواخر سنة 50هـ/671م إلى أوائل سنة 55هـ/675م؛ أمّا

1 البيان، 1، 21؛ En – Noweiri :Conquête, 330
2 الكامل، 3، 220-221.
3 نفس المصدر، ص 320؛ En – Noweiri : op.cit.330
4 البيان، 1، 21.
5 ابن خلدون: العبر، 6، 216.
6 بن عبد الحكم: فتوح إفريقية والأندلس، ص 66؛ البلاذري: فتوح البلدان،1، 270؛ ابن الأثير: الكامل، 3، 321؛ ابن عذاري: البيان،1، 21؛ ينفرد المالكي برواية، مفادها أن الخليفة معاوية بن أبي سفيان عزل معاوية بن حديج عندما رحل إليه بالغنائم، بعد الغزوة التي قام بها على إفريقية سنة 50هـ/670م وحفر فيها آبار حديج، وغزا بنزرت، وبنى المساكن المسماة " قيروان " بناحية جبل القرن، وحدّد تاريخ عزله وتولية مسلمة بن مخلد مكانهُ بسنة 54هـ/ 674-675م، فوجّه مسلمة آنذاك خالد بن ثابت الفهمي إلى إفريقية فوصل إلى " موضع " منها ثم عزله مسلمة بمولاه أبي المهاجر فخرج إليها من مصر سنة 55هـ/675م نحو قرطاجنة ونزل دكرور مدينة البربر قرب القيروان ثم عزل الخليفة مسلمة بسعيد بن يزيد الأنصاري ولحق أبو المهاجر بمولاه فولى سعيد مكانه عقبة بن نافع فوصل إفريقية على رأس عشرة آلاف رجل وأسس مدينة القيروان وبعدئذ ردّ معاوية بن أبي سفيان مسلمة إلى ولايته مرّة أخرى فردّ هو بدوره أبا المهاجر إلى إفريقية فوصلها سنة 57هـ/676-677م (رياض النفوس، 1، ص 19 فما بعدها؛ وقد نُقلتْ رواية المالكي هذه في كتاب معالم الإيمان لكن مع إدخال بعض التغييرات عليها ومنها أن مسلمة بن مخلد وجّه خالد بن ثابت الفهمي إلى إفريقية سنة 50هـ/670م ولما عزله مسلمة بمولاه أبي المهاجر دينار ووصل إلى إفريقية أخذ عقبة بن نافع وحبسه وضيق عليه. ولم تتحدث هذه الرواية عن مصير خالد بن ثابت ولا عن كيفية تعيين عقبة على إفريقية ووصوله إليها ولا عن ولاية أبي المهاجر الثانية عليها (الدباغ وابن ناجي: المصدر السابق،ص 45-46).
7 ذلك حسب الرواية التي نقلت في معالم الإيمان عن محمد بن يوسف الوراق (المصدر السابق،1، 46-47)؛ وحسب ما يستنتج من سياق كلام ابن الأثير عن تأسيس القيروان وعزل عقبة (الكامل،3، 320-321)؛ ونفس التاريخ يحدده كل من النويري (Conquête. p.330) وابن عذاري (البيان،1، 21) غير أن ابن عبد الحكم يحدد تاريخ وقوع ذلك التغيير بسنة 51هـ/ 671-672م (المصدر السابق، ص 66)؛ ويحدّدها المالكي بسنة 57هـ (رياض النفوس، 1، 21)؛ ويحدّده الواقدي بسنة 62هـ/681-682م أنظر (ابن الأثير ، نقلا عن الواقدي، الكامل،3، 321) ويتفق هذا الأخير مع ابن خلدون في القول بأن الذي أحدث هذا التغيير هو يزيد بن معاوية (العبر،6، 216).
8 البيان،1، 21.

ابن تغري بردي فيجعل سنة 58هـ/677-678م تاريخا غزا فيه " عقبة... من قبل مسلمة بن مخلد القيروان واختط... مدينة القيروان وابتناها ".[1]

وقد أشير على مسلمة بإبقاء عقبة في منصبه، لما له من فضل وسابقة " وهو الذي بنى القيروان! " فقال...: " إنّ أبا المهاجر، كأحدنا، صَبَر علينا في غير ولاية، ولا كبير نيل! فنحن نحبّ أن نكافيه ونصطنعه! ".[2] وأوصاه، حين ولاّه " أن يعزل عقبة أحسن العزل فخالفه "[3] ولم يعمل بوصيته بل " أساء عزله وسجنه وأوقره الحديد "[4] أو أنه " استخفّ به ".[5]

ويجعل ابن تغري بردي ولاية سعيد بن يزيد على مصر " بعد موت مسلمة بن مخلّد، من قبل يزيد بن معاوية بن أبي سفيان... في... اثنتين وستين من الهجرة "[6] واستمرّت ولايته عليها حتى توفي يزيد وبعث عبد الله بن الزبير، المطالب بالخلافة لنفسه، أميرا له عليها، هو عبد الرحمان بن مجدم، فاعتزل سعيد بعدما قضى في ولايته سنتين إلاّ شهرا أو سنتين وأشهراً، وقد حدث في تلك الفترة " خروج كسيلة البربري وتجرّد (سعيد) بسببه غير مرّة إلى برقة وغيرها ".[7]

أو "حبسهُ وضيّق عليه "[8] أو أساء عزله، وكره أن ينزل الموضع الذي اختط به مدينته فنزل خارجها، "ومضى حتى خَلَفه بميلين، مما يلي طريق تونس (فيما بعد)؛ فاختط بها مدينة، وأراد أن يكون له ذكرها، ويُفسد عمل عقبة. وأخذ في عمرانها، وأمر الناس أن تُحرق القيروان ويعمّروا مدينته".[9] أو أنّه عندما شرع في بناء مدينته أمر بتخريب مدينة عقبة وقد أطلق البربر على المدينة الجديدة، تسمية " قيروان "[10] أو تيكروان[11] أو تاكروان.[12] وهذا عمل يمكن مقارنته بما فعله مولاه مسلمة بن مخلّد

---

1 النجوم الزاهرة،1، 150.
2 ابن عذاري: البيان،1، 22؛ قارن. بن عبد الحكم: المصدر السابق، 68.
3 ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص 66.
4 نفسه.
5 الكامل،3، 321.
6 ابن الأثير: المصدر السابق، ص 157.
7 نفس المصدر، ص 158.
8 المالكي: رياض النفوس،1، 21.
9 ابن عذاري: البيان،1، 22؛ تقع تلك المدينة. كما جاء في معالم الإيمان بغربي (شمالي) إفريقية، على نحو ميلين (الدبّاغ وابن ناجي، 1، 47).
10 En- Noweiri : Conquête, p.330
11 النويري: نهاية الأرب، جـ22، ص 13؛ الدبّاغ وابن ناجي:معالم،1، ص 47، هامش 1؛ ابن أبي دينار: المؤنس، 29.
12 الدباغ وابن ناجي: معالم،1، 47.

الأنصاري في الفسطاط، بمصر، عندما "أمر... بالزيادة في المسجد الجامع، فهدّم ما كان عمرو بناه في سنة ثلاث وخمسين"[1] (53هـ/ 672-673م)، و "بناه هو، وأمر ببناء منار المسجد، وهو أوّل من أحدث المنار بالمساجد والجوامع"[2]، مما يوحي بوجود نوع من الحزازات، بين القائدين عمرو بن العاص وبين مسلمة بن مخلد، وقد تكون نشأت بينهما، أثناء الفتنة، حيث كان كل منها يسعى، بدون شك، للحصول على مكافأة أكبر من صاحبه لقاء ما لعبه من دور بارز إلى جانب المطالبين بدم عثمان، والانتصارات التي حققاها على خُصومهما في مصر. وإذا صحّ هذا الافتراض فلا بدّ وأن يكون له انعكاس على أتْباعهما وخاصة المقرّبين منهما كعقبة بالنسبة لعمرو وأبي المهاجر بالنسبة لمسلمة وهذا ما يمكن أن يُفسَّر به إقدام كلّ من مسلمة وأبي المهاجر على محو آثار نظيره في المسؤولية، وتعويضه بآثار له، هو شخصيا.

وقد ركّزت المصادر، في حديثها عن تاريخ أبي المهاجر، على علاقته بعقبة بن نافع الفهري، بين الفعل وردّ الفعل. دون أن تخصّص حيّزاً كافيا لنشاطه في مدّة السنوات السبع (من 55 إلى 62هـ) التي قضاها على رأس ولاية إفريقية، إذ لم يزد بعضها عن كونه أشار إلى الحملة التي قام بها على تلمسان سنة 55هـ /674-675م... وإلى غزوة نزل فيها " على قرطاجنة وخرج إليه أهلها فالتقو وكثر القتل بين الفريقين حتى حجز الليل بينهم، وانحاز المسلمون من ليلتهم فنزلوا جبلا في قيلة بولس، ثم عاودوهم وصالحوهم على أن يُخلوا لهم الجزيرة. ثم افتتح أبو المهاجر ميلة، وكانت إقامته بها في هذا الغزو نحوا عن سنتين ".[3]

وتذكر المصادر أنّ الخليفة عندما علم بما حدث لعقبة بعث إلى أبي المهاجر رسالة يأمره فيها " بتخلية سبيله وإشخاصه إليه. فخرج عقبة حتى أتى قصر الماء، فصلّى ودعا وقال اللّهم لا تُمتني حتى تُمكّنني من أبي المهاجر دينار بن أم دينار "[4] أو أن الخليفة كتب إلى أبي المهاجر " يأمره بتخليته ويعفيه مما صنع من ذلك، فأطلقه... وأرسله برُسل... من قابس، وهو حَنِقٌ على أبي المهاجر فدعا الله، عزّ وجلّ، أن يمكّنه منه ".[5] أو أنّ خروج عقبة إلى المشرق، حدث بعدما تعرّضت مدينته للتخريب.[6]

1 الكندي: المصدر السابق؛ ص 38.
2 ابن تغري بردي: النجوم، 1، 132.
3 ابن تغري بردي: نفس المصدر، ص 152.
4 ابن عبد الحكم: المصدر السابق، 66 و 68.
5 المالكي: المصدر السابق، 1، 21.

6 En- Noweiri : op.cit., p.330

أو أنّه خرج بعد عَزله، وفي الطريق علم بما فعله أبو المهاجر بها " فتوجّه إلى المشرق آسفا على أبي المهاجر ودعا الله عليه أن يمكنه منه "[1]، فالخروج المقصود هنا كان تلقائيا ولم يكن بأمر من الخليفة، وإذا ما صحت هذه المعلومات فمعنى ذلك أنّ أبا المهاجر لم يقيّده في الحديد ولم يودعه السجن كما أوردت بعض المصادر.

والدليل الذي يمكن إقامته على ذلك، هو خوف أبي المهاجر من دعوته عندما بلغه أنه دعا عنه[2] وقوله: " هو عبد لا تُردّ دعوته! " ولم يزل... خائفا منه، نادما على ما فعله معه."[3] لأنه ليس من السهولة بمكان تصوّر إساءة إنسان لمن يخشى من دعائه، وقد يكون أقصى ما فعله به هو تجاوزه معه " حدود اللّياقة البروتوكولية " ولعلّ أقصى ما يكون قد فعله به هو تحاشيه النزول في مدينته وبناء مدينة خاصة به، مع العلم أن أمر الدعاء هنا من جهة و الخوف منه، من جهة أخرى، يمكن إلحاق القول فيه بما قيل عن بقية الكرامات التي نسجتها الروايات حول شخصية عقبة.

وتذكر بعض المصادر أنّ عقبة سار بعد ذلك إلى الشام، فقدم على الخليفة معاوية ابن أبي سفيان وعاتبه على ما فعله به أبو المهاجر قائلا: " فتحت البلاد، ودانت لي. وبنيت المنازل، واتخذتُ مسجداً للجماعة، وسكّنت الناس. ثم أرسلت عبد الأنصار، فأساء عزلي! " فاعتذر إليه معاوية وقال: " قد عرفتَ مكان مَسلمة... من الإمام عثمان، وبذله مُهجتَه، صابرا محتسبا! طِع من أطاعه من قومه ومواليه، وأنّا أردّك إلى عملك! " أو أنه وعده بردّه إلى عمله[4] وتمادى الأمر أو تراخى[5] إلى ما بعد وفاة معاوية، وتولية ابنه يزيد منصب الخلافة سنة 60هـ/679-680م[6] " فلما علم حال عقبة، قال: "أدركها قبل أن تفسد!" وردّه واليا على إفريقية، بعدما قطعها على مسلمة بن مخلّد والي مصر، وذلك سنة 62هـ/ 681-682م.[7]

ويرجّح ابن عبد الحكم صحة الرواية التي تنفي أن يكون معاوية هو الذي أعاده إلى منصبه، وتتحدّث عن قدومه "على يزيد... بعد موت أبيه فردّه... لأنّ معاوية توفي"

---

1 ابن عذاري: البيان،1، 22.

2 ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص 68؛ المالكي: المصدر السابق،1، 21.

3 ابن عذاري: البيان،1، 22.

4 قارن. ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص 68؛ ابن عذاري: البيان،1، 22.

5 ابن الأثير: الكامل،3، 321، 331 En - Noweiri : op.cit.

6 قارن نفسه؛ Id؛ ابن عذاري: البيان،1، 22-23.

7 ابن عذاري: البيان،1، 22؛ 23 قارن. ابن الأثير: الكامل،3، 321؛ En - Noweiri op.cit.331

سنة ستين (60هـ/679-680م)."[1] أي قبل سنتين من ذلك الرّد؛ ويذكر المالكي بأنّ عقبة، عندما " قدم [على] معاوية... وجده قد توفي... وتولى بعده يزيد، فدخل عليه فأخبره بما صنع أبو المهاجر...، وقال له: " لما افتتحت إفريقية بنيتُ مسجد الجماعة، [ثم] بعثتم عبد الأنصار فأهانني وأساء عزلي " فغضب يزيد وقال: " أدركوها قبل أن يخربها " ويقصد االقيروان وردّ عقبة إليها. وأزال مسلمة عنها، وأقرّه بمصر، وذلك سنة اثنتين وستين (62هـ/681-682) "[2] فهل معنى ذلك أن عقبة انتظر سبع سنوات، بعد عزله، لكي يتصل بالخلافة؟ أم أنّ المالكي اقتصر على ذكر الاتصال الذي أتى بنتيجة، أي أنه صرف النظر على ذكر الاتصال الذي كان مع معاوية لأنه لم يأت بنتيجة؟ وعلى كلّ فالغموض يبقى قائما، حول هذه المسألة. ما لم تتوفر عنها معلومات جديدة من شأنها أن توضحها أكثر.

ويفيد ابن الأثير، في رواية نقلها عن الواقدي، أنّ ولاية عقبة على إفريقية استمرّت من سنة 46هـ/666-667 م " إلى سنة اثنتين وستين (62هـ/ 681-682م) فعزله يزيد... واستعمل أبا المهاجر... فحبس عقبة وضيّق عليه؛ فلما بلغ يزيد... ما فعل بعقبة كتب إليه يأمره بإطلاقه وإرساله إليه. ففعل ذلك. ووصل عقبة إلى يزيد فأعادهُ إلى إفريقية واليا عليها..."[3] وهذه رواية لا تتعارض مع ما تكلّم عنه ابن خلدون، من إخراج معاوية بن أبي سفيان لابن حديج في حملة إلى إفريقية سنة 45هـ/665-666م "وقفل معاوية بن خُديج (حديج) إلى مصر فولّى معاويةَ بن أبي سفيان على إفريقية بعده عقبةَ، فاختط القيروان... وبقي... إلى أن ولي يزيد بن معاوية وولّى على إفريقية أبا المهاجر... ثم جاء عقبة بعد أبي المهاجر..."[4]

وما يلفت الانتباه، عند التأمل في مضمون مختلف الروايات، أنّ هذه الأخيرة تمدّد فترة ولاية عقبة على إفريقية إلى ستة عشر عاما وتقلّص مدة تسوية مشكلة عودته لولايته إلى سنة واحدة، إذْ أعيد إليها في نفس العام الذي عُزل فيه؛ أمّا الذي يستنتج من الروايتين السابقتين فهو أن الفرق، بين تاريخي التنحية والرّد، سبعُ سنوات، من سنة 55هـ/675 إلى سنة 62هـ/681-682م، أي أنّها استغرقت خمس سنوات من خلافة معاوية، وسنتين من خلافة ابنه يزيد، وهو ما يدلّ على أنّ العملية لم تكن سهلة، ومن

1 فتوح إفريقية والأندلس، ص 70.
2 رياض النفوس، 1، 22؛ الدبّاغ وابن ناجي: المصدر السابق، 1، 47.
3 الكامل، 3، 321.
4 العبر، 6، 216.

الصعب التوصل إلى معرفة سبب ذلك، ما دامت المصادر لم تزوّدنا بمعلومات في هذا الشأن، ومن الصعب أيضا ترجيح رواية على غيرها؛ لأنّ المعطيات المتوفرة لا تسمح بذلك. فعقبة إذاً رحل من الشام ومعه خمسة وعشرون "رجلا من أصحاب رسول الله صلعم".[1] ولما مرّ بفسطاط مصر خرج إليه مَسْلمة بن مخلد واعتذر له من فعل أبي المهاجر، وأقسم أمامه أنه أوصاه بحسن عشرته، لأن أهل بلده يحسنون القول فيه لكنه خالف أوامرُه وأساء عزله؛ فقبل عقبة عذره ومضى سريعا في طريقه، لحنقه على أبي المهاجر، حتى وصل إفريقية[2]، ولا يُعرف من أين جمع العشرة آلاف رجل الذين كانوا معه حين وصوله إليها، حسب ما ورد في كتاب رياض النفوس ومعالم الإيمان الذي نقل عنه هذه المعلومة.[3] التي تُذكّر بالعشرة آلاف رجل الذين تحدثت عنهم المصادر، عند قيامه بحملته الأولى على إفريقية، أهو مجرّد لُبس وقع لصاحبي هذين المصدرين، فأخلطا بين معلومات الحدثين؟ أم حقيقة، كان معه، في كل مرّة قدم فيها إفريقية، عشرة آلاف مقاتل؟ وأوّل ما أقدم عليه عقبة، عند حلوله بمقرّ ولايته، تقييدُ أبي المهاجر في الحديد وحبسُه[4] وأخذُ ما كان معه من الأموال، وقدرها مائة ألف دينار[5] ثمّ أمر بتخريب مدينته " وردّ الناس إلى القيروان ". كما جاء في بعض المصادر[6]، أو أنه "جدّد [بناء القيروان] وشيّدها، ونقل الناس [إليها] " كما جاء في البعض الآخر[7] الذي لا يشير إلى تخريب مدينة أبي المهاجر. مما يدفع إلى التساؤل عما إذا كانت عملية التخريب المتبادل للمدينتين، سابقتي الذكر، قد تمت فعلا؟ ألم يكن لكلا الطرفين ما يشغلهما من المهام التي قدما من أجلها أكثر من عملية التخريب؟ ألم يكن من السهل الاقتصار على الترحيل، إن كان ولا بدّ؟ ثم هل يَسهل تصور تنازل رجال في هذا القدر من المسؤولية إلى هذه المستويات من الفعل وردّ الفعل؟ إنّ كلّ ما يمكن الجزم به، استنتاجا من كل المعلومات المتوفرة عما دار بين القائدين، أنّ هناك نوع من الحساسية كانت بينهما.

---

1 ابن عذاري: البيان، 1، 23.

2 قارن. الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق وتقديم المنجي الكعبي، تونس 1968، ص 39-40؛ ابن عذاري: البيان، 1، 23؛ En- Noweiri : Conquête . p.331؛ بالنسبة لابن عبد الحكم فإن هذا الاعتذار تم أثناء توجه عقبة من إفريقية إلى الشام (فتوح إفريقية و الأندلس، ص 68).

3 أنظر المالكي: المصدر السابق، 1، 22؛ الدبّاغ وابن ناجي: المصدر السابق، 1، 47.

4 الرقيق القيرواني: المصدر السابق، ص 40؛ ابن عذاري: البيان، 1، 23؛ En – Noweiri : Conquête. p.331؛ ابن الأثير: الكامل، 3، 450.

5 المالكي: رياض النفوس، 1، 22؛ الدباغ وابن ناجي: معالم، 1، 47.

6 الرقيق القيرواني: المصدر السابق، ص 40؛ ابن عذاري: البيان، 1، 23؛ En- Noweiri : op.cit, p.331

7 المالكي: المصدر السابق، 1، 22؛ الدباغ وابن ناجي: المصدر السابق، 1، 47.

المهمّ أنّه، بعد عملية الترحيل المشار إليها، ركب عقبة، بصحبة وجوه عساكره، ومن معه من الصحابة والتابعين والعُبّاد، فدار بهم حول مدينة القيروان، وهو يدعو لها قائلا: " يا ربّ، املأها فِقْهاً وعِلما، وأُعمِرها بالمطيعين والعابدين، واجعلها [عِزّا لد] ينك، وذُلاًّ لمن كفر بك، وأعز بها الإسلام... وامنعها من جبابرة الأرض."[1] ومثل هذا الدعاء لم يكن مألوفا من العسكريين، مؤسسي المدن آنذاك ولا يُعرف لما اختص به عقبة، في مدينة القيروان بالذات، إن كان فَعَل ذلك حقيقةً، وإن لم يكن قد فعله فلا بدّ وأن يكون وراء تأليفه قصّةُ حَدَثٍ أتاح الفرصة لذي خيال خصب كي يحيكها في ظروف غامضة لدرجة تجعل التعرّف عليها من الأمور العسيرة.

ولما عزم عقبة على " الغزو في سبيل الله "[2] اجتمع بأولاده وأخبرهم أنّه باع نفسه من الله -عزّ وجلّ- وعزم على جهاد مَن كفر به، حتى يُقتل فيه أو حتى يلحق بالله! وأنّه غير متأكد مِن العودة، لأن أمله الموت. في سبيل الله، ثم راح يُوصيهم بما أحبّ[3] أو بالتمسك بالإسلام دينا[4] أو أنه أوصاهم بثلاث خصال هي: عدم ملأ صدورهم بالشّعر، على حساب القرآن. لأنّ القرآن دليل على الله -عزّ و جلّ- وأُخْذ ما يَهتدى به اللّبيب وما يدلّهم على مكارم الأخلاق. من كلام العرب، والانتهاء عما وراء ذلك، وعدم التداين ولو اضطروا إلى لباس العباء. لأن الدَّيْن ذلّ بالنهار وهَمّ بالليل، وتركَهُ يؤدي إلى سلامة أقدارهم وأعراضهم. وإبقاء الحرمة لهم في الناس، ما داموا على قيد الحياة. وعدم تقبل العلم من المغرورين المرخصين كي لا يجهّلوهم دين الله ويفرّقوا بينهم وبينه، ولا يأخذوا دينهم إلا من أهل الورع والاحتياط، لأن من احتاط سلم ونجا.[5]

مع العلم أنّ المصادر لم تشر إلى اعتياد عقبة على مثل هذا التصرف، مع عائلته وأولاده كلّما عزم على الخروج في حملة أو غزوة من غزواته السابقة، كما لم تشر أيضا إلى تعوّد غيره من قادة فتح المغرب على مثله. ألا تكون تلك المصادر قصدت بحديثها في هذا الموضوع، هذه المرة بالذات. الإشارة إلى واحدة من كراماته، وهي معرفته المسبقة بنيل شرف الاستشهاد فيها؟ وربما يكون نسج هذه الرواية قد تم فيما بعد، لأسباب غير معروفة أيضا وبعدما آستَخْلَف زُهيرَ بن قيس البلَوّي على جندٍ من المسلمين، تركهم

---

1 قارن. الرقيق القيرواني: المصدر السابق، ص 40؛ ابن عذاري: البيان، 1، 23.

2 الرقيق القيرواني: المصدر السابق، ص 40، ابن عذاري البيان، 1، 23.

3 قارن نفس المصدر، ص 40-41؛ البيان، 1، 21؛ المالكي: رياض، 1، 22؛ ابن الأثير: الكامل، 3، 450-451.

4 En- Noweiri : op.cit , p.331

5 المالكي: رياض، 1، 22؛ الدباغ وابن ناجي، 1، 48.

بالقيروان[1]، مع الذراري والأموال[2] ، أو أنّه استخلف عليهم عمر بن عليّ القرشي وزهير بن قيس البلوي[3]، انطلق " في خمسة آلاف رجل من أهل مصر "[4]أو " في عسكر عظيم "[5] من " أهل القيروان "[6]ومعه أبو المهاجر "موثق " أو " موثوق " " في حديد"[7] قاصدا النواحي الغربية من بلاد المغرب.

وتختلف المصادر في الحديث عن مسار هذه الحملة وفي تفاصيل ما وقع فيها من أحداث ؛ فبالنسبة للرقيق القيرواني: فإنّ النصارى كانوا، أثناء تحرّكه، يهربون من طريقه يمينا ويسارا، ولما حاصر صاحب قلعة مجانة لجأ النصارى إلى مدينة باغاية، واجتمعوا بها، وواصل عقبة طريقه إلى أن أشرف عليها فنزل هناك، فخرجوا إليه واشتبكوا معه، فقتلهم قتلا ذريعا ودخل بقيتهم حصنهم وغنم منهم " خيلا كثيرة، لم ير المسلمون، في مغازيهم، أصلب منها، وكانت من نِتَاج خيل أوراس المطلّ عليها "[8] وهذا نفس ما ذهب إليه المالكي، دون الإشارة إلى حصار قلعة مجانة، ولا إلى الخيل المأخوذة من باغاية لكنه تحدث عن غنيمة أموالهم[9] وعلى العكس من ذلك فإنّ النويري الذي لم يشر، هو الآخر، إلى حصار مجانة يتحدث عن غنيمة " خيل كثيرة لم ير المسلمون في مغازيهم أصلب منها "[10] دون ذكر غنيمة الأموال.

وينفرد ابن عذاري بالقول : إنّ النصارى كانت تهرب من طريقه، يمينا وشمالا، "وهو يستفتح البلدان، ويغزو في سبيل الله"[11] وبعدما تساءل عمّا إذا كانت تلك "الغزوات" تمت في سنة واحدة، أم فيها وفيما بعدها من بقية أيام يزيد بن معاوية، عبّر عن رغبته في الحديث عنها " مجموعة مختصرة، لئلاّ ينقطع خبرها "[12] وراح يذكر أنّها بدأت سنة ولايته (62هـ/681-682م)، في عهد يزيد، وكان هدفها الروم والبربر، وهم إذ ذاك " مجوس ونصارى... بمدينتي باغية (باغاية) وقرطاجنة، وما والاهما، فهزمهم،

1 الرقيق القيرواني: المصدر السابق، ص 40؛ ابن عذاري البيان،1، 23؛ En – Noweiri : op .cit., p.331
2 ابن الأثير: الكامل، 3، 450.
3 ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص 72؛ المالكي: نفس المصدر، 1، 22؛ الدباغ وابن ناجي: المصدر السابق،1، 48؛ حسب ابن خلدون فإن زهير، كان على مقدمة جيش عقبة (العبر، 6، 297).
4 ابن عبد الحكم: فتوح، ص 74.
5 الرقيق: المصدر السابق، 41.
6 المالكي: المصدر السابق، 1، 22.
7 ابن عبد الحكم: المصدر السابق،70؛ المالكي: المصدر السابق،1، 22.
8 تاريخ إفريقية والمغرب، ص 41؛ البكري: المغرب، ص 145.
9 رياض النفوس،1، ص 23؛ الدباغ وابن ناجي،1، 48؛ قارن ابن الأثير: الكامل، 3، 451.
10 Conquête, p.331
11 البيان،1، 24.
12 البيان،1، 24.

وقتلهم تقتيلا، وأخذ المسلمون من سبيهم وخيلهم شيئا كثيرا."[1] ويلتقي ابن عذاري، بعد ذلك، مع الرقيق القيرواني، فيما قاله عن حصار باغاية ليذكر أنّ عقبة " دخل على الروم حصنهم، فكره أن يقيم عليهم. وكان قد حصر صاحب قلعة باغاية "[2] وهو هنا يتفق مع ابن خلدون الذي يعتبر باغاية من الحصون التي استفتحها عقبة آنذاك.[3] في حين لا تشير بقية المصادر إلى هذا الدخول، بل تتحدّث عن عودة الروم، بعد هزيمتهم، إلى مدينتهم أو حصنهم فكره المقام عليهم[4] "كي لا يشتغل بهم عن غيرهم"[5] وواصل طريقه لكن إلى أين؟ فبالنسبة إلى الرقيق القيرواني فقد " مضى إلى المسَنّ، وكانت [في] ذلك الوقت، من أعظم مدائن الروم، فلجأ إليها من كان حولها منهم، وخرجوا إليهم في عدّة وقوّة، فقاتلوهم... فانهزموا... إلى باب حصنهم فأصاب غنائم كثيرة [وكره] المقام عليها "[6]، وبالنسبة للمالكي فإنّه قصد بعد باغاية تلمسان[7] وبالنسبة للنويري وابن خلدون فقد قصد لميس[8] وبالنسبة لابن عذاري، فقد قصد المنستير.[9]

وباستثناء ما ذكره ابن خلدون من أنّ عقبة استفتحها بعد استفتاح باغاية[10] دون أن يتحدّث عن تفاصيل ما جرى من الأحداث، فإنّ بقية المصادر تتّفق فيما بينها في عرض تلك التفاصيل، كما وردت عند الرقيق. لدرجة تجعل المتمعّن فيها يقتنع أنّ بعضها نقلها عن البعض الآخر، حرفيا تقريبا. مما يدلّ على أنها تقصد مدينة واحدة هي لاميزا (Lambèsa) كما ترجمها البارون دوسلان في كتاب النويري[11]، وهي أقرب المدن المذكورة من باغاية. مع العلم أنّ ابن عذاري يتحدث عن غزو عقبة لها " ثانية...، وخرجوا لحربه، فهزمهم... وأصيب من غنائمهم ما لم يعد مثله "[12] في حين أنّ ابن الأثير لا يشير تماما إلى مرور عقبة بهذه المدينة التي اختلف غيره في تسمياتها، بل يجعل

---

1 نفسه.

2 نفسه.

3 العبر، 6، 217.

4 الرقيق القيرواني: المصدر السابق، ص 41-42؛ ابن الأثير: الكامل، 3، 451؛ En - Noweiri : op.cit.pp .331-332؛ أنظر أيضا. المالكي: رياض، 1، 23.

5 البكري: المغرب، ص 145.

6 البكري: المصدر السابق، ص 42

7 رياض النفوس، 1، 23.

8 لاميزا في نص النويري المترجم إلى الفرنسية لكن المترجم De Slane يذكر أنها كتبت " لميس " في أحد المخطوطين، وملميش في الآخر (أنظر: En- Noweiri : op.cit., p.332, note 1)

9 البيان، 1، 24.

10 العبر، 6، 217.

11 أنظر En – Noweiri: op.cit., p.332

12 البيان، 1، 24.

انتقاله من باغاية إلى بلاد الزاب مباشراً.[1] ويصف ابن الأثير بلاد الزاب بالواسعة " فيها عدّة مدن، وقرى كثيرة "[2] ويطلق على مدينتها العظمى تسمية أَرَبَةَ ويشير إلى امتناع من كان هناك " من الروم والنصارى " بها، وهروب بعضهم إلى الجبال، وإلى "اقتتال المسلمين ومَنْ بالمدينة من النصارى، عدة دفعات، ثم انهزم النصارى وقتل كثير من فرسانهم".[3] ويتّفق النويري، مع كلّ من ابن الأثير والرقيق القيرواني والمالكي، في تناولهم لتفاصيل ما جرى فيها من أحداث بين سكانها وبين المسلمين: إذ تتضمن نصوصهم ما يلي: عند رحيل عقبة إلى الزاب سأل عن أعظم مدينة لهم، فقيل "أذنة"[4] أو "أدنة"[5] أو "أربة"[6]، وهي دار ملكهم، ونقطة تجمّع أمراء الزاب؛ وكان حولها ثلاثمائة[7] أو ثلاثمائة وستون قرية[8]، كلها عامرة، فلما بلغ سكانَها زحْفُ المسلمين عليهم، لجأوا إلى حصنها وإلى الجبال والأراضي الوعرة، ونزل عقبة واديا، على ثلاثة أميال منها فقدموا إليه هناك بمجرّد وصوله، وقت المساء، وكانوا في عدّة عظيمة، فكره قتالهم ليلا وتواقف الطّرفان الليل كلّه ساهرين، فأُطلقت على ذلك الوادي تسمية " وادي سهر "، وبعد صلاة الصبح أمر أصحابه بالقتال.[9] أو نزل على المدينة مساء، وفي الصباح أمر أصحابه بالقتال[10]، أو أنه قاتلهم على وادي المسيلة.[11] فدارت بين الطرفين معارك حامية الوطيس، وفي النهاية انهزم الروم، وقتل معظم فرسانهم، ولاذت بقيتهم بالفرار " وفي هذه الغزوة ذهب عزّ الروم من " الزاب " وذلوا وتحصّنوا، فكره عقبة المقام عليهم ".[12] أو أنّ الذين قتلوا هم " أكبر فرسان البربر "[13] أو ملوكهم[14] " فذهب عزّهم من الزاب، وذلّوا آخر الدهر ".[15] وبعد ذلك توجّه عقبة غرباً، صوب " تيهرت " أو " تاهرت "، ولما علم الروم هناك بتقدّمه إليهم، استغاثوا بالبربر فأعانوهم

---

1 أنظر الكامل، 3، 451.

2 نفسه.

3 نفسه.

4 الرقيق القيرواني المصدر السابق، ص 42.

5 المالكي: رياض، 1، 23.

6 En – Noweiri: Conquête, p.332

7 الرقيق: المصدر السابق، ص 43.

8 المالكي: رياض، 1، 23؛ En- Noweiri, op.cit., p.332

9 المالكي: رياض، 1، 23؛ الرقيق القيرواني: المصدر السابق، ص 43.

10 En- Noweiri : op.cit., p.332

11 ابن عذاري: البيان، 1، 24.

12 المالكي: رياض النفوس، 1، 28؛ ابن عذاري: البيان، 1، 24؛ En – Noweiri : op.cit., p.332

13 الرقيق القيرواني: المصدر السابق، ص 43.

14 العبر، 6، 217.

15 الرقيق القيرواني: المصدر السابق، 43.

ونصروهم " فاجتمعوا في جمع كبير "[1] لَفَتَ نظره، فرأى ضرورة التوجّه بخطاب لرجاله، قَصْدَ رفع معنوياتهم، ذكّرهم فيه بأن أشرافهم وخيارهم بايعوا، قبلهم، رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على قتال من كفر بالله إلى يوم القيامة، ودَعاهم إلى الاقتداء بهم في بيع أنفسهم من ربّ العالمين، بجنّته حتى يكونوا داخلين في بيعة سابقيهم الرابحة، ونبّههم بأنهم متواجدين في " دار غربة " وأنّ مجيئهم إلى هذه البلاد إنما كان طلبًا لرضا ربّهم وإعزازاً لدينه. وغضبا أن يُعبَد شيء سواه، وطلب منهم أن يُبْشِروا لأنه " كلّما كثر العدوّ كان أخزى لهم (له) وأذلّ "[2] أو لأنه كلما كثر بِشْرهم، كان أخزى لعدوّهم وأعزّ لدينهم[3] وأنّ الله جعلهم "أولي بأسه" أو " بأسه " الذي لا يُردّ عن القوم المجرمين وأنّه لا يسلمهم. فما عليهم إلاّ أن " يلقوه " أو يلقوا أعداءهم بقلوب صادقة.[4]

ثم اشتبك الطرفان. في معركة ساخنة، لم يكن للروم والبربر فيها من طاقة بقتال العرب، فولوا هاربين بعد قتل عدد كبير منهم[5] أو أنّهم " اقتتلوا قتالا شديدا، واشتّد الأمر على المسلمين، لكثرة العدوّ ثم... انهزمت الروم والبربر..."[6] و " سبقتهم خَيلُ المسلمين إلى باب مدينتهم. فأفنوهم وقطعوا آثارهم "[7] و " فرّ جميع الروم عن المدينة، وقُتلوا حيث أدركوا "[8] وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم.[9] مع العلم أنّ ابن خلدون يختصر كلامه عن نشاط عقبة. قبل دخوله المغرب الأقصى، بقوله "ثم استفتح حصون الفرنجة، مثل باغاية ولميس. ولقيه ملوك البربر بالزاب وتاهرت ففضهم جمعا بعد جمع"[10] أي أنه لم يشر هنا إلى أي تحالف يكون قد وقع بين الروم والبربر لمواجهة زحف عقبة بن نافع على تاهرت. كما أوضحت بقية المصادر المستخدمة في هذا البحث، بل يتحدث عن الفرنجة، دون البربر. في باغاية ولميس، وعن البربر، دون الفرنجة في الزاب وتاهرت.

---

1 الكامل، 3، 451.

2 المالكي: رياض، 1، 24.

3 الرقيق القيرواني: المصدر السابق، ص 44.

4 قارن. الرقيق القيرواني: نفس المصدر. ص 43- 44؛ المالكي: رياض، 1، ص 23- 24؛ ابن عذاري: البيان، 1، ص 24- 25؛ En- Noweiri : op.cit. p.332

5 المالكي: رياض، 1، 24؛ الرقيق القيرواني: نفس المصدر، ص 44؛ En- Noweiri : op.cit., p.332

6 ابن الأثير: الكامل، 3، 451.

7 ابن عذاري: البيان، 1، 25.

8 الرقيق القيرواني: المصدر السابق، ص 43.

9 الكامل، 3، 451.

10 العبر، 6، 217.

وقد لخص ابن عذاري نتائج تلك الحملة، منذ انطلاقها إلى الانتصار الذي حققته بتاهرت، بقوله " لما توالت الهزائم على نصارى إفريقية وبربرها، وكثر القتل فيهم...، لجأ مَنْ بقي منهم إلى الحصون والمعاقل، فلم يبرحوها. فَكَرِهَ (عقبة) المقام على محاصرتهم، فيفوته الغزوُ وقتلُ غيرهم من طوائف الكفار، إذ كانت أمم المغرب من نصارى وبرابر لا يحصون كثرة وانتشارا... وأوغَل في الغرب، يقتل ويأسر أمّة بعد أمّة... حتى صار بأحواز طنجة ".[1]

وكان بها "ملك إسمه يُلْيان، يملك منها إلى ساحل المجاز بسبتة، وكان من أشراف ملوك الروم وأعاظمهم، وذوي العقل والدهاء فيهم".[2] أو هو بطريق من الروم[3] أو أمير غمارة[4] وأن " إليان " (وليس يليان) كان شريفا في قومه.[5]

فلما قاربه عقبة "وجّه إليه أرساله، مستعطفا ومستلطفا، وبعث إليه هديّة عظيمة، وسأل منه المسالمة، وأن ينزل على حكمه فقبل منه واجتمع به"[6] أو أنه لقيه بنفسه عندما نزل على طنجة " فأهدى إليه هدية حسنة ونزل على حكمه "[7] أو أن عقبة، عندما دخل المغرب الأقصى، " أطاعته غمارة، وأميرهم يومئذ يليان ".[8] وقد سأل عقبة يليان " عن بحر الأندلس، فقال له: " إنّه محفوظ لا يرام "[9] أو " سأله عن الأندلس فعظم الأمر عليه "[10] أو أنّ عقبة، عندما وصل طنجة، نزل "على البحر المحيط [وهو بحر الأندلس]، فقال له الناس: هذا بحر لانرومه، وعليه ملك عظيم الشأن"[11] وأخبره يليان أيضا[12] أو أخبره الناس[13] عن خلو المناطق الموجودة أمامه من الروم، واقتصار وجودهم على المناطق التي تركها خلفه، وعن تواجد البربر وفرسانهم أمامه،

---

1 البيان، 1، 25-26.
2 ابن عذاري: المصدر السابق، ص 26.
3 ابن الأثير: الكامل، 3، 451
4 ابن خلدون: العبر، 6، 217
5 الرقيق القيرواني: المصدر السابق، ص 44-45؛ En – Noweiri : op.cit., p.332
6 ابن عذاري: البيان، 1، 26
7 ابن الأثير: الكامل، 3، 451؛ En- Noweiri . op cit.. p.332؛ قارن الرقيق القيرواني: المصدر السابق، ص 44-45.
8 العبر، 6، 297.
9 الرقيق القيرواني: المصدر السابق، En – Noweiri : op.cit., pp.332-33
10 ابن الأثير: الكامل، 3، 450؛ ابن عذاري: البيان، 1، 26.
11 المالكي: رياض، 1، 24.
12 الرقيق القيرواني: المصدر السابق. 451؛ En – Noweiri : op.cit., p.333؛ ابن عذاري: البيان، جـ.1، 26، ابن الأثير: الكامل، 3، 451.
13 المالكي: رياض، 24، 1.

"في السوس الأدنى"[1] أو "في السوس"[2] وهم "كثيرون لا يعلم عددهم إلاّ الله".[3] يعيشون كالبهائم، ليس لهم دين، يأكلون الميتة (أو الجيف) ويشربون الدم، ويشربون دماءها من أعناقها (أو يشربون الدم من أنعامهم) ويكفرون بالله، ولا يعرفونه[4]، "معظمهم من المصامدة"[5]، ولهم "بأس شديد".[6]

سار عقبة إلى السوس الأدنى، "وهو في مغرب مدينة طنجة التي تسمى "تارودانت"[7]، " أو "هو مغرب طنجة"[8]، أو سار جنوبا نحو السوس الأدني إلى أن حلّ بالمدينة المسماة تارودانت[9] أو أنّ السوس الأدنى هو "بلاد تامسنا، وهي بلاد المصامدة"[10] أو أنه "أجاز إلى وليلى"[11] وهي "مدينة طنجة... بالبربرية"[12] فافتتحها "وقتل رجالهم وسبا من بها. وهي على شاطيء البحر المعْروف بالزقاق"[13] ثم انتقل "إلى جبال درن وقاتل المصامدة... وحاصروه... ونهضت إليهم جموع زناتة، وكانوا خالصة للمسلمين، منذ إسلام مغراوة، فأفرجت المصامدة عن عقبة وأثخن فيهم، حتى حملهم على طاعة الإسلام".[14]

ويتحدّث المالكي عن إمعان "خيل المسلمين... في البلاد والسواحل. وسبوا النساء، وغنموا الأموال. فبلغت الجارية الرومية، بالمشرق منهم، ألف دينار،..."[15] وعن رحيل عقبة، بعد ذلك، مباشرة صوب البحر " فانتهى إليه وأقحم فرسه فيه... ثم نادى بأعلى صوته...: " السلام عليكم ورحمة الله! " فقال له بعض أصحابه: " على من تسلّم يا وليّ الله؟ " فقال لهم: " على قوم يونس، وهم من وراء هذا البحر،

---

1 الرقيق القيرواني: المصدر السابق، ص 45؛ ابن الأثير: الكامل، 3، 451؛ En – Noweiri : op.cit., p.333
2 المالكي: المصدر السابق، 1، 24
3 الكامل، 3، 451
4 الرقيق القيرواني: المصدر السابق، ص 45؛ ابن عذاري: البيان، 1، 26، En – Noweiri : op cit., p.333
5 البيان، 1، 451.
6 الكامل، 3، 451.
7 الرقيق القيرواني: المصدر السابق، 45.
8 ابن الأثير: الكامل، 1، 451.
9 En – Noweiri : op.cit , p.333
10 البيان، 1، 26
11 العبر، 6، 217.
12 البكري: المغرب، ص 108.
13 نفس المصدر، ص 108-109.
14 ابن خلدون: العبر، 6، 217؛ قارن. ابن عذاري: البيان، 1، 26؛ الرقيق القيرواني: المصدر السابق، ص 45-46؛ ابن الأثير: الكامل، 3، 451؛ En – Noweiri . op.cit., p.333
15 رياض النفوس، 1، 24.

ولولاه لوقفت بكم عليهم "، ثم رفع يديه إلى السماء، ثم قال: " اللهم أشهد، إنّي قد بلغت المجهود، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يُعبد أحد من دونك"."[1] ثم رجع إلى إفريقية. ويلاحظ أنّ تسمية المالكي للجواري بالروميات، يتناقض مع المعلومات التي قيل أن يليان قدمها لعقبة والتي تنفي وجود الروم، فيما وراء طنجة، أي في المناطق التي تجوّل فيها عقبة بعد ذلك، كما أن المالكي لم يتحدّث عن انتقال عقبة إلى السوس الأقصى، عكس ابن عبد الحكم الذي يقول: إنّه " غزا السوس... وأهل السوس بطن من البربر يقال لهم أنبية "[2] والمعروف أن أنبية كانوا يتجوّلون بين بلاد السوس الأقصى ومنطقة أودغست[3]، أي أنّ السوس الذي يعنيه ابن عبد الحكم هنا هو الأقصى، مع العلم أنّه لم يشر إلى الأدنى؛ وقد نقل البكري نصا عن " أبي المهاجر" ورد فيه أن عقبة وصل " في غزواته إلى السوس الأدنى، والسوس الأقصى والبحر المحيط، وأدخل فيه فرسه حتى بلغ الماء لبب فرسه وانصرف إلى إفريقية".[4] كما أنّ ابن خلدون تحدث عن اجتيازه " إلى بلاد السوس لقتال من بها من صنهاجة، أهل اللّثام، وهم يومئذ على دين المجوسية،... فأثخن فيهم، وانتهى إلى تارودانت، وهزم جموع البربر، وقاتل مسوفة، من وراء السوس، وسبى منهم وقفل راجعا "[5] وتحدث في مكان آخر عما دلّه عليه يليان، أمير مغراوة، من " عورات البرابرة... بِوَلِيلَة والسوس وما والاهما من مجالات الملثمين فغنم وسبى، وانتهى إلى ساحل البحر، وقفل ظافرا ".[6]

فما يعْنيه ابن خلدون بالسوس أيضا هو السوس الأقصى، لأنّه هو موطن صنهاجة، أهل اللثام، كما هو معروف، ولا يشير ابن خلدون هنا إلى السوس الأدنى كذلك، لكنه يُحدّد موقع مدينة تارودانت بهذه المنطقة، في حين يحدّده كلّ من الرقيق القيرواني والنويري، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، بالسوس الأدنى. وهو ما يشكّل دليلا على الخلط الذي وقع لبعض المصادر بين السوسين: الأدنى والأقصى، عند تناولها تفاصيل الكلام عن تلك الأحداث. وهناك، مِن تلك المصادر، مَن يتلافى الحديث عنهما معا: فقد ورد في كتاب الاستبصار أن عقبة " افتتح... بلاد المغرب حتى

1 رياض النفوس،1، ص 24-25.
2 فتوح إفريقية والأندلس، 70.
3 اليعقوبي: كتاب البلدان، ط. ليدن، ص 360.
4 المغرب، ص 74.
5 العبر،6، 217.
6 نفس المصدر،6، 297.

وصل إلى أقصاها، على ضفّة البحر المحيط... ويقال إنّه أدخل فرسه في البحر حتى بلغ تلابيب سرْجه، وقال اللّهمّ إنّي أطلب السبب الذي طلب عبدُك ذو القرنين، فقيل له... وما السّبب... قال ألاّ يُعبد في الأرض إلاّ الله وحده، وانصرف إلى إفريقية...".[1]

غير أنّ أغلبها تشير، بشكل واضح، إلى انتقاله من السوس الأدنى إلى السوس الأقصى، حيث قاتله البربر بأعداد كبيرة، ودارت معارك طاحنة بين الطرفين، كان النصر فيها حليف عقبة الذي أصاب هناك (وليس بالسوس الأدنى). منهم " نساء لم يرَ الناس في الدنيا مثلهنّ، قيل إن الجارية منهنّ كانت تبلغ بالمشرق ألف دينار أو نحوها "[2] ثم واصل طريقه، دون أن يعترضه أحد إلى أن " بلغ ماليان، ورأى البحر المحيط فقال: يا رب، لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك ثم عاد...".[3]

أو أنّه لما بلغ البحر المحيط " دخل فيه، حتى بلغ الماء بطن فرسه؛ ثم رفع يديه إلى السماء " وقال " ياربّ! لولا أن البحر منعني، لمضيت في البلاد إلى مسلك ذي القرْنين، مدافعا عن دينك، مقاتلا من كفر بك! " ثم قال لأصحابه: " انصرفوا... "[4] أو أنّه " فتح... عامة بلاد البربر، إلى أن بلغ طنجة، وجال هناك، ولا يقاتله أحد... حتى فتح كورة من كُوَر السودان، و... لما رجع... من بلاد جزولة، سلك بلاد صودة... ثم سار...إلى إفريقية".[5]

أو أنّه زحف " من درعة إلى بلاد صنهاجة، ثم إلى بلاد هسكورة؛ ثم نزل أغمات وريكة؛ ثم... على وادي نفيس... وسار حتى نزل إيجلي بالسوس، وبنى فيه مسجداً... ثمّ ... وصل ماسّة: فأدخل فرسه في البحر، حتى وصل الماء تلابيبه، وقال: " السلام عليكم! يا أولياء الله! " فقال له أصحابه: " على من تسلّم؟ " قال: على قوم يونس- عَمًّ! " ثم قال: اللّهم إنّك تعلم أنّي لم أطلب إلاّ ما طلب عبدك ووليّك ذو القرنين، ألاّ يُعبد في الأرض غيرك! " ثم رجع...".[6]

---

1 مؤلف مجهول: ص 63.

2 ابن عذاري: البيان، 1، 27؛ الرفيق القيرواني: المختصر السابق، ص 46؛ En – Noweiri : op.cit., p.333 ؛ مع العلم أن هناك خطأ في الترجمة الفرنسية لنص النويري حيث كتب السوس الأدنى بدل السوس الأقصى (أنظر ص 333، س ، 16)؛ قارن ابن الأثير: الكامل، 3، 451.

3 ابن الأثير: الكامل، 3، 351.

4 ابن عذاري: البيان، 1، 27؛ En- Noweiri op.cit., p.333

5 البيان، 1، 28.

6 نفسه.

ولعلّ أكثر ما يستوقف الانتباه، عند الإطلاع على المعلومات الواردة في شأن هذه الحملة، في المصادر، هو تصرّف عقبة لمّا بلغ البحر المحيط، أي المحيط الأطلسي، وإقحام فرسه فيه، وخاصة مخاطبته لقوم يونس، وحديثه إلى مسلك ذي القرنين ووصف هذا الأخير بالوليّ، فهل يكون قام بذلك فعلا؟ وإن فعل، فكيف وصلته الأخبار التي بنى على أساسها تصرّفه ذاك؟ أم هي، في نهاية الأمر، ليست سوى قصة خيالية نسبت له بُطولَتُها في زمان ومكان غير معروفين؟ وقد يكون الافتراض الأخير هو الأرجح، على اعتبار أنّ الرجل كان قائداً ذكيا محنكا، له من التجارب والثقافة والنضج ما يجعله يبتعد عن أمور تتعارض والمنطق السليم.

ويتحدّث المالكي عن تقدّم عقبة في حملته حتى وصل " ماسة " بمكان من السوس الأقصى، وهناك بنى مسجداً.[1] كما يذكر ابن عذاري في إحدى رواياته " أنّه لم يصحّ... أن عقبة -رضه- حضر بنيان شيء من المساجد بالمغرب، إلاّ مسجد القيروان، ومسجداً بدرعة، ومسجداً بالسوس الأقصى (بإيجلي)؛ وأمّا غير ذلك من المساجد المسمّاة باسمه؛ فإنّ الناس - والله أعلم - بنوها بموضع نزوله ".[2] كما نقل نفس المؤلف عن الإشبيلي في كتاب المسالك أنّ " المسجد الذي على وادي نفيس، بناه عقبة..."[3]، أيضا، أي أنّه بنى، في الجملة خمسة مساجد، إن صحّت هذه المعلومات.

وينفرد ابن عذاري بمحاولة رسم طريق عودة عقبة " إلى المغرب الأوسط "، وبتسجيل معلومات عن أحداث وقعت أثناء ذلك: فقد مرّ " على إيغيران يطوف؛ ثم... تارنا ثم... موضع شاكر، وترك به صاحبه شاكرا، فسمي باسمه ".[4] ويتوقف ابن عذاري عند هذه النقطة، في مكان آخر، ملاحظا أنّ عقبة " ترك فيهم (أي المصامدة) بعض أصحابه يعلّمونهم القرآن والإسلام: منهم شاكر صاحب الرباط وغيره. ولم يدخل المغرب الأقصى أحد من ولاة خلفاء بني أمية بالمشرق إلاّ عقبة... ولم يعرف المصامدة غيره. وقيل إنّ أكثرهم أسلموا طوعا على يديه".[5] ثمّ رحل " إلى بلاد دُكّالة، فوجد فيها قوما؛ فدعاهم إلى الإسلام، فامتنعوا، فقاتلهم؛ فقَتَلوا جملة من أصحابه؛ فسمي ذلك الموضع مقبرة الشهداء... ثم رجع من دُكّالة إلى بلاد هسكورة،

---

1 رياض، 1، 26.
2 البيان، 1، 27.
3 نفسه.
4 نفس المصدر، ص27.
5 البيان، 1، 42.

إلى موضع يقال له أطار؛ فوجد فيه أقواما فدعاهم إلى الإسلام؛ فامتنعوا؛ فتقاتل معهم حتى فرّوا أمامه، فلم يقاتله بعد ذلك أحد من أهل المغرب ".[1]

ويوضح كلام ابن عذاري، إنْ صحَّ، أسلوب عقبة، أي تكتيكه في الميدان: فهو يعرض على الناس الإسلام، إن قبلوه ترك فيهم من يعلمه لهم وربما بنى لهم مسجداً، وإن رفضوه قاتلهم حتى يفروا أمامه أو يتحصنوا في قلاع يصعب عليه فتحها، عند ذلك يغادرهم، بعدما يأخذ منهم ما وقعت عليه يداه من غنائم، رغبة منه في نشر الدين الجديد على أوسع نطاق ممكن في أوساط القبائل التي كان لديها استعداد لتقبله بسهولة.

وينفرد ابن عبد الحكم بالحديث عن هجوم شنّه " رجل من العجم " على عمر ابن عليّ القرشي وزهير بن قيس البلوي بالقيروان، أثناء قيام عقبة بحملته، وكان على رأس ثلاثين ألف مقاتل فهزماه. وهما في ستة آلاف، وعن خروج " ابن الكاهنة البربري " على أثر عقبة. كلما رحل عقبة من منهل دفنه ابن الكاهنة دون أن يشعر به، فلما انتهى إلى البحر المحيط وعدد. وجد المياه " قد غورت " وتعاونت عليه البربر.[2]

وهو ما ينسجم. تماما. مع ما يتفق في شأنه كل من ابن الأثير والنويري من تَعرّض عقبة وأصحابه لعطش كثير كاد يهلكهم بالمكان الذي صار يعرف، منذ ذلك الوقت، بماء الفرس، لأن عقبة صلى فيه " ركعتين ودعا، فَبَحث فرسٌ له الأرض بيديه، فكشف له عن صَفَاة فانفجر الماء فنادى... في الناس فحفروا أحساء كثيرة وشربوا، فسمي ماء الفرس[3]. ويعتقد البارون دوسلان، مترجم كتاب النويري إلى الفرنسية، أنّ الأمر يتعلّق بعين فرس الواقعة بسيدي داحو، بين تلمسان وسيدي بلعباس، وبالضبط على الطريق الذي يكون عقبة قد سلكه، أثناء عودته من السوس إلى إفريقية[4] لكنّ ابن عبد الحكم يتحدّث عن اكتشاف عقبة لِمَاءِ فرس، في ظروف مماثلة، على بعد ثلاثة أيام من خاوار، عاصمة كوّار بصحراء فزّان.[5] فهل معنى ذلك أنّ عقبة تعرّض، مع أصحابه خلال نشاطهم ببلاد المغرب، مرتين إلى عطش قاتل ولم تخلصهم من خطر الموت، في الحالتين سوى كرامات عقبة؟ أم أنّ الأمر حدث مرّة واحدة، في مكان واحد، ولأسباب مجهولة تمّ إسقاطه على المكان الآخر مرّة ثانية؟ أم أنّ

1 نفسه المصدر، ص 27-28.

2 ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص 72.

3 ابن الأثير: الكامل، 3، 451؛ En – Noweiri : op.cit.334

4 Le Baron De Slane, dans En – Noweiri : op.cit., p.334, note 1

5 أنظر ما قبل، ص 70.

تسمية ماء الفرس أو عين فرس، هنا وهناك، لا علاقة لها بهذه الكرامة أو الأسطورة، حسبما يمكن أن يَعتَقد أو يَقتَنِع المرء، وإنما أُطلقت، في وقت غير معروف، ولأسباب مجهولة، ثم وقع تفسيرها، فيما بعد، في ظروف غامضة كما وصلت إلينا؟ ليس من السهل أبداً الإجابة عن مثل هذه الأسئلة، في غياب الوسائل المطلوبة لذلك.

ويتبيّن بوضوح أنّ هذه المعلومات، الخاصة بعودة عقبة من حملته إلى مكان انطلاقها، تذهب في سياق واحد، وهو أن الظروف قد أصبحت أصعب مما كانت عليه في السابق أي أثناء الذهاب، وهذا يفسّر ما ذكره ابن عذاري، من تفرّق جيشه عنه "للإياب إلى أحيائهم والبدار إلى عيالهم"[1] عندما غزا الروم والبربر " بقرب من إفريقية، قافلا إليها بعد تلك الغزوات "[2]، أي غزوات طنجة والسوسين: الأدنى والأقصى، ومما سجّله البكري وصاحب كتاب الاستبصار، عن عودة عقبة إلى إفريقية، أنه " لمّا دنا منها تفرّق أصحابه عنه، فوجا فوجا، فلما وصل إلى مدينة طبنة أذن لسائر من بقي معه، وبقي في عدّة يسيرة "[3] أي أنّه، حسب ما يستنتج، من هذا الكلام، تَرَكَ الخيار لمن شاء، ممن بقيّ، البقاءَ معه أو مغادرته، فغادرته أغلبيتهم. مع ملاحظة أنّ المؤلّفيْن الأخيرين لم يتعرضا للحديث عن أيّة مواجهة بينه وبين أطراف أخرى آنذاك، في حين يتّفق كلّ من ابن الأثير والنويري في الإشارة إلى نفور " الروم والبربر عن طريقه خوفا منه "[4] وهذا كلام يعني، إن صحّ، أنّ هَيْبة جيشه استمرت محفوظة في المنطقة، مما يدلّ على عدم وجود قوّة فاعلة للعدوّ تراقب تحركه وتتربص به، لاستغلال نقاط ضعفه وإلحاق الهزيمة به، إلاّ بعد حلوله بطبنة.

ولما " انتهى [إلى] ثغر إفريقية وهي " طبنة "[5] من " نظر الزاب "[6] على بعد ثمانية أيام من القيروان و " أذِنَ لمن بقي معه (من أصحابه) بالانصراف إلى القيروان "[7] ثقة منه " بما دوّخ من البلاد " أو " نال من العدوّ " و " أذل من البربر "[8] وأنّه لم يبق أحد يخشاه[9]، ولم يبق معه سوى عدد قليل من الناس فتوجه بهم إلى " تهودة "[10] أو

1 البيان، 1، 28.
2 نفسه.
3 المغرب، ص 174 مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 63 (مع ملاحظة أن المصدر الأخير استخدم كلمة تفارّ بدلا عن تفرّق).
4 الكامل، 3، 451، Conquête, p.333
5 المالكي: رياض،25،1.
6 كتاب الاستبصار، ص 63.
7 المالكي، رياض، 1، 25، Conquête, p.334 قارن. مؤلف مجهول: نفس المصدر، 63.
8 العبر، 6، 298.
9 قارن. ابن الأثير: الكامل، 3، 452، ابن عذاري: البيان، 1، 28؛ En- Noweiri : op.cit., p.334
10 الكامل، 3، 452.

"تهوذا"[1] أو "مدينة تهودا"[2] أو إلى مدينتي " تهوذا و... باديس "[3] أو إلى "مدينتي تهودة وبادس"[4] أو " إلى " تهودة أو بادس "[5] " لينظر قدر ما يكفيها (أو يكفيهما) من الخيل، فيقطع ذلك إليها (أو إليهما) "[6] أو " لينظر إليها (أو إليهما) "[7] أو ليعرف " ما يكفيهما (أو يكفيها) من العُدة والجيوش "[8] أو " لينظر فيمن يصلح لها (أولهما) من الفرسان".[9]
أو " لينزل بها (أو بهما) الحامية ".[10]

لأنّه عندما مرّ عليهما أثناء " دخوله بلاد المغرب... رأى فيهما نوبة كثيرة من النصارى والبربر، وكانتا في ذلك الوقت، من أعظم مدن المغرب "[11] فلما انتهى إلى تهودة، نظر الروم[12] أو الفرنجة[13] إلى قلّة من كان معه، فطمعوا فيهم وأغلقوا باب حصنهم وجعلوا يشتمونه ويرمونه بالحجارة والنّبل، وهو يدعوهم إلى الإسلام، دون جدوى، ولما توسّط البلاد ونزل بعثوا إلى كسيلة الأوربي البُرنُسي، وأعلموه بقلة من معه، ودلّوه على الفرصة فيه.[14] واللافت أنّ هذه الحملة تشبه، إلى حدّ بعيد، الحملة التي انطلق على رأسها، من غدامس إلى وَدّان وفزّان وكوّار، ومعه أربعمائة فارس، وحقّق فيها، كما رأينا نجاحا باهرا. غير أنّ ظروف المنطقتين السياسية والعسكرية والديموغرافية كانت تختلف اختلافا جذريا؛ إذ لم يكن هناك، كما هو الأمر هنا، تواجد بيزنطي في قلاع محصنة يُتقِن فنّ الحرب ويتمسك بإبقاء سيطرته على المنطقة ويسعى لاجتذاب القبائل البربرية الكثيفة إليه للاستعانة بها في تحقيق هدفه، وقد جاءته فرصة الحزازات التي تولّدت بين عقبة وبين كُسيلة في طبق من ذهب، فكان لا بدّ له أن يستغلّها لصالحه أحسن استغلال.

---

1 البيان، 1، 28.

2 البكري: المغرب، ص 74.

3 كتاب الاستبصار، ص 63؛ Conquête, p 334

4 العبر، 6، 298.

5 المالكي: رياض، 1، 25

6 الكامل، 3، 452.

7 البكري: المغرب، ص 74، كتاب الاستبصار، ص 63؛ Conquête, p.334.

8 البيان، 1، 28.

9 العبر، 6، 298.

10 المغرب، ص 74؛ كتاب الاستبصار، ص 63

11 المالكي: رياض، 1، 25؛ ابن الأثير: الكامل، 3، 452؛ ابن عذاري: البيان، 1، 28.

12 ابن خلدون: العبر، 6، 298.

13 قارن: المالكي: رياض، 1، 25؛ ابن الأثير: الكامل، 3، 452؛ ابن عذاري: البيان، 1، 28؛ ابن خلدون، 6، 298.

14 الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية، ص 47.

هـ)- مقتل عقبة بن نافع على يد كسيلة :

تختلف المصادر في تسمية والد كسيلة، قاتل عقبة بن نافع، فمنها من يسميه "لهزم"، ومنها من يسميه " ليوم "[1] ومنها من يسميه " أقدم "[2] ومنها من يسميه "كمرم"[3] ومنها من يسميه " بهرم "[4] ومنها من يسميه " لزم "[5] ومنها من يسميه "لمزم"[6] وهذه التسمية الأخيرة هي الأشهر، وهي التي يَنْسب إليها المؤلفون، عادة، كسيلة فيقال "كسيلة بن لزم".

وينفرد ابن خلدون بإعطاء بعض المعلومات عن هذه الشخصية في أوّل الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، بمكانين مختلفين من كتاب العبر، إذ أفاد في أحدهما، وفي سياق كلامه عن تقدّم بطون أوربة البرنسية عن غيرها من بقية بطون البربر، أنّ " أميرهم، بين يدي الفتح (كان) سكر ديد بن زوغي... وَلي عليهم مدّة ثلاث وسبعين سنة، وأدرك الفتح الإسلامي، ومات سنة إحدى وسبعين (71هـ/690-691م)، وولي عليهم بعده كُسيلة بن لزم (لمزم) الأوربي، فكان أميرا على البرانس كلهم، ولما نزل أبو المهاجر تلمسان سنة خمس وخمسين (55هـ/ 674-675م) كان كسيلة... مرتدا بالمغرب الأقصى، في جموعه، من أوربة وغيرهم، فظفر به أبو المهاجر وعرض عليه الإسلام فأسلم، واستنقذه و أحسن إليه وصحبه ".[7]

وقد أفاد ابن خلدون أيضا، في ثاني المكانين المشار إليهما، وفي سياق كلامه عن تولية الخليفة يزيد بن معاوية لأبي المهاجر دينار على إفريقية، أنّ رئاسة البربر يومئذ كانت "في أوربة لكسيلة بن لمزم، وهو رأس البرانس، ومرادفه سكر ديد بن رومي... من أوربة، وكان على دين النصرانية، فأسلما لأوّل الفتح، ثم ارتدّا عند ولاية أبي المهاجر، واجتمع إليهما البرانس، وزحف إليهم أبو المهاجر حتى نزل عيون تلمسان فهزمهم، وظفر بكسيلة فأسلم واستبقاه".[8]

---

1 المالكي: رياض، 1، 25.

2 مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 63.

3 ابن الأثير: الكامل،3، 452.

4 En- Noweiri : op.cit., p.334

5 ابن خلدون: العبر،6، 297.

6 ابن عبد الحكم، فتوح، ص 76؛ ابن عذاري: البيان،1، 28؛ العبر،6، 216.

7 العبر،6، 296-297.

8 نفس المصدر، ص 216.

وما يُلفت الانتباه، عند التمعّن في النصين السابقين، والمقارنة بينهما، هو احتواؤها على بعض الأخطاء والتناقضات الواضحة: من ذلك أنّ شخصية سكرديد نسبت في الأول إلى زوغي (سكريد بن زوغي) وفي الثاني إلى رومي (سكرديد بن رومي) كما اعتُبر، مرّة، أميرا لأورية وحُدِّد تاريخ وفاته، وتولية كسيلة منصب الإمارة بعده، بسنة 71هـ/690-691م. مع أن أبا المهاجر الذي قام بحملته على تلمسان ونزل عيونها سنة 55هـ/674-675م. أي قبل ذلك بأربع عشرة سنة، لم يجد أمامه سوى كسيلة كأمير على جميع البرانس في المرة الأولى. ووجد في المرّة الثانية سكر ديد مُرَادِفاً أي مساعدا لكسيلة ويختلف النصان أيضا في نسبة كسيلة، مرّة إلى لزم ومرّة أخرى إلى لمزم؛ وهناك كلام كثير يمكن أن يقال عن إسلام كسيلة "لأوّل الفتح" حسب تعبير ابن خلدون، بل هناك أسئلة كثيرة يمكن طرحها في هذا الموضوع. ومن أهمّها: كيف ومتى وأين حدث ذلك؟ من الصعب الإجابة عن هذه الأسئلة، خاصة إذا علمنا أنّ مجال الفتح الإسلامي، لم يتعد آنذاك منطقة مُزاق (Byzacène)، وبالذات في المناطق المحيطة بسبيطلة، من جبل القرن وسوسة وبنزرت وجلولاء. في حين أن مجال البرانس، كما يبدو من نص ابن خلدون. كان المغرب الأقصى، ولم تشر النصوص إلى أيّ احتكاك لهم بالمسلمين قبل أن تَطَأهم يدُ أبي المهاجر في نواحي تلمسان سنة 55هـ /674-675م، فهل معنى ذلك أنهم سمعوا بالإسلام. عن بعد. فاعتنقوه طوعا؟ وهل وقع بينهم وبين المسلمين اتصالُ مَا. بطريقة مَا فأقنعوهم باعتناق الدين الجديد؟ وإذاً، لماذا ارتدوا عنه؟ أم أنّ كلمة الردّة هنا استُخدمت سهواً أو خطأً؟ وأخيرا، هل كان أبو المهاجر قد عامله المعاملة اللاّئقة بشخص جدير بالثقة. فقرّبه منه وصادقه، وهو يعلم أنّه مرتد أي مقلّب الأهواء؟ ولو كان الأمر كذلك. فلماذا لم يثبت التاريخ أن كسيلة ارتدّ، مرّة أخرى، عن الإسلام بعد قتله لعقبة ابن نافع؟ بل إنّ تأمينه لِمَنْ بقي من المسلمين في القيروان، وعدم المسّ بهم يَدلّ على أنّ الرجل كان لا يتراجع على مبادئه بسهولة.

والذي يمكن استخلاصه من هذه المقارنة، أنّ كسيلة أخذ يلعب دورا بارزا في تاريخ بلاد المغرب، منذ أن أَسَرهُ أبو المهاجر دينار بنواحي تلمسان سنة 55هـ/674-675م وأسْلمَ على يديه واستبقاه أبو المهاجر وأحسن إليه وصحبه. وهذا ما ذكره ابن عذاري، حرفيا تقريبا، مع إشارته إلى أنّ العيون التي نزل عندها أبو المهاجر بتلمسان، والتي زحف منها إلى كسيلة، كانت تعرف في عهده (القرن 7هـ/13م) بعيون أبي المهاجر[1]،

---

1 البيان، 1، 28.

وهذا أيضا ما ذهب إليه ابن الأثير الذي يتحدث عن حسن إسلامه، ويعتبره " من أكابر البربر وأبعدهم صوباً "[1] والنويري الذي يسجل حسن إسلامه لدرجة جعلت أبا المهاجر يحدّث عقبة عنه، عند وصوله[2]، أو يعرّفه محلّه و يأمره بحفظه[3] بل يترجاه فعل ذلك.

والمفيد أنّه، عند قدوم عقبة في ولايته الثانية، أيام الخليفة يزيد بن معاوية سنة 62 هـ/681-682م، " وعُزل أبو المهاجر، [عرّفه] بحال كُسيلة وأنّه من ملوك البربر، ولم يستحكم الإسلام بقلبة"[4] وبمدى تأثيره على قومه[5] ولم يقبل عقبة من أبي المهاجر نصيحته باصطناعه، بل راح يضغن على كسيلة صحابته له.[6]

ويذكر المالكي خبرا مفاده أنّ أبا المهاجر دينار نَصح عقبة، عندما كان يتهيّأ للنهوض إلى "طنجة" بأن لا يفعل، بحجة أنّ الناس هناك قد أسلموا، وبالتالي لم يكن له بها عدوّ، واقترح عليه إرسال وال له مع " رئيس البلاد -يريد كسيلة- ... فأبى عقبة إلاّ أن خرج بنفسه "[7] فنفّذ مهمته " وقفل راجعا، وكسيلة أثناء هذا كلّه في اعتقاله يحمله معه في عسكره سائر غزواته ".[8]

والذي يمكن استنتاجه، من وصف النصوص هنا لكسيلة بملك البلاد تارة، وبرئيسها تادة أخرى، يعني، في اصطلاحات ذلك الوقت، أنّه كان شيخ أو رئيس إحدى القبائل الهامة، في تلك المنطقة، وليس أكثر من ذلك، كما أن المعلومة التي تتضمنها نصيحة أبي المهاجر لعقبة والمتعلقة بإسلام سكان طنجة، قبل تلك الحملة ليس لها أي مبرّر، فالإسلام، لم يكن قد انتشر بَعْدُ، بدليل أنّ المصادر لم تتحدّث عن عثور عقبة على مسلمين، عندما وصل إليها.

ويجمع المؤرخون على القول بأنّ عقبة، أثناء غزوته تلك، كان يستهين بكسيلة ويستخف به لكن لم يقدّموا على تلك الاستهانة وذلك الاستخفاف سوى دليلا واحدا، هو أنّه حدث ذات يوم في مكان ما، لعلّه " ماسة " من المغرب الأقصى[9] أن أتى

---

1 الكامل،3، 452؛ في النص وأبعدهم صوتا، غير أن المحقق صحح الكلمة في الهامش أنظر، ص 453، هامش 1.

2 En- Noweiri : op.cit., pp 334-335

3 ابن تغري بردي: النجوم،1، 158.

4 ابن عذاري: البيان،1، 29؛ قارن. ابن الأثير: الكامل،3، 452.

5 En- Noweiri : op.cit., p 335.

6 ابن خلدون العبر،6، 297.

7 رياض،1، 26؛ أنظر أيضا. الدبّاغ وابن ناجي: معالم،1، 53.

8 ابن خلدون، العبر،6، 217.

9 أنظر. المالكي: رياض،1، 26.

عقبة بِذَوْدِ غنم وأمر بذبحها للعسكر . وأمر كسيلة بذبحها أو سلخها مع السالخين، ولما حاول كسيلة أن يدفعها إلى فتيانه وغلمانه ليتولوا ذلك عوضاً عنه، أصرّ عقبة على أن يقوم به شخصيا " وانتهره "[1] أو " قال له: " قم! "[2] أو قال له " لا! ".[3] مع الإشارة هنا إلى اختلاف رواية ابن الأثير عن غيرها من روايات المصادر الأخرى التي عالجت هذه النقطة، حيث ورد فيها أن عقبة أتى بغنم و " أمر كسيلة بذبحها وسلخها مع السالخين"[4]، ولما اقترح كسيلة على عقبة دفع ذلك إلى فتيانه وغلمانه " شتمه وأمره بسلخها "[5] أي أنّ هذه الرواية تتحدث عن الذبح إضافة إلى السّلخ، كما تتحدث عن الشتم، بدلا عن الانتهار أو الأمر بالقيام أو رفض الاقتراح.

والمهم في الأمر أن كسيلة قام مغضبا، وكان كلّما دَحَس يده في الشاه مسحها بلحيته، مما عَلِق بها من بلل. ولما تعجب بعض مَنْ رآه من العرب وسألوه عن السبب أخبرهم أن " هذا جيّد للشعر! " غير أن أحد شيوخهم لم يقتنع بهذا الشرح ونبّههم أن القصد من وراء هذه الحركة هو توعّدهم[6] وبلغ ذلك أبا المهاجر فنهى عقبة عنه[7] قائلا "أصلح الله الأمير، ما هذا الذي صنعت؟"[8] أو " بئس ما صنعت "[9] وقال له: بأن الرسول -صلى الله عليه وسلم- كان يستألف جبابرة العرب " كالأقرع ابن حابس التميمي وعُيينة بن حصن "[10] وأنت تعمد إلى رجل " هو خيار قومه "[11] أو "جبّار في قومه"[12] في دار عزّه " قريب عهد بالكفر "[13] أو " بالشرك "[14] " فتُفسد قلبَه "[15]

---

1 ابن خلدون، 6، 297.
2 المالكي: رياض، 1، 26. En – Noweiri op.cit., p 335
3 ابن عذاري: البيان، 1، 29
4 الكامل، 3، 452؛ النجوم، 1، 158
5 نفسه؛ النجوم، 1، 158
6 المالكي: رياض، 1، 26؛ ابن عذاري: البيان، 1، 29؛ ابن خلدون: العبر، 6، 297.
7 ابن خلدون: العبر، 6، 297
8 المالكي: رياض، 1، 26.
9 ابن عذاري البيان، 1، 29.
10 المالكي: رياض، 1، 26.
11 نفسه.
12 ابن عذاري: البيان، 1، 29؛ ابن خلدون: العبر، 6، 298
13 المالكي: رياض، 1، 26.
14 ابن عذاري: البيان، 1، 29؛ ابن خلدون: العبر، 6، 298.
15 المالكي: رياض، 1، 26؛ ابن خلدون: العبر، 6، 298؛ En – Noweiri : op.cit., p.335

أو "تهينه"؟[1] وأشار عليه بأن يوثق منه[2] أو يوثقه[3] وخوّفه فتكه، فتهاون عقبة بهذه النصيحة و " أضمر كسيلة الغَدْر "[4] ثم " أعلم الروم ذلك وأطمعهم ".[5]

وتختلف المصادر في عرض تفاصيل ما جرى، بعد ذلك من أحداث، بحيث يذكر بعضها أنّ كسيلة انتهز فرصة سانحة، أثناء انصراف عقبة من حملته، بعد حادثة السلخ المشار إليها، فنكث ما كان عليه وفرّ من معسكر عقبة "وقام في أهل بيته وقبائله من البربر"[6] أو في هؤلاء " وجَمْع من الروم " ولما أقبلت النفرة إلى عقبة، قال له أبو المهاجر: عاجله، قبل أن يجتمع أو أن يستفحل أمره، ففعل عقبة وتنحى كسيلة أمامه.[7]

ولما سأل البربر كسيلة عن سبب هروبه، من بين يدي عقبة، رغم أنّهم في خمسين ألفا، وعدوّهم في خمسة آلاف[8]، أو رغم أنهم في خمسة آلاف[9] (دون الإشارة إلى عدد أعدائهم) أجابهم قائلا: "إنّكم كل يوم في زيادة، وهو في نقصان، ومدد الرجل قد افترق عنه، فإذا طلب إفريقية زحفت إليه" وبقي يتربص به إلى أن غَشيّه في جموع غفيره بالقرب من تهودة.[10] وإذا صح خبر الرواية الخاصة بجواب كسيلة لأصحابه يمكن أن يقوم دليلا على أن عملية الفرار تلك تمت، بعدما بدأ أصحاب عقبة يتفرقون عنه وهو ما يبرر قوله" إنّكم، كل يوم في زيادة وهو في نقصان " غير أن ما يمكن أن يحول دون الاقتناع بهذا الرّأي، هو القرار الذي أخذه عقبة، في طبنة، لّما أذن لبقية أصحابه بالانصراف إلى القيروان، وبقي مع عدد قليل منهم فقط. مما يرجح أن يكون قرار كسيلة حدث بعد ذلك الإذن، اللهم إلاّ إذا تصوّرنا أنه حدث قبل طبنة لكن عقبة لم يكترث به لقلّة عدد الفارين، أولا، ولعدم تصوّره قدرة كسيلة على جمع تلك الحشود من الروم والبربر بالسرعة التي تم بها، ثانيا.

---

1 ابن عذاري: البيان، I، 29.

2 المالكي: رياض، I، 26؛ ابن خلدون: العبر، 6، 298.

3 ابن الأثير: الكامل، 3، 452؛ En – Noweiri : op.cit., p.335 ؛ النجوم الزاهرة، I، 158

4 الكامل، 3، 452؛ ابن تغري بردي: النجوم، I، 158-159.

5 نفسه؛ En- Noweiri : op.cit., p.335

6 ابن عذاري: البيان، I، 29.

7 En - Noweiri: op.cit., p 335

8 المالكي: رياض، I، 26؛ ابن عذاري: البيا، I، 29؛ En – Noweiri : Enquête., p.335

9 نفسه؛ نفسه.

10 En – Noweiri : op.cit., p.335

والذي يتبيّن من خلال هذه المعلومات أنّ كسيلة لم يكن في صفوف جيش عقبة، عندما حلّ بمدينة تهودة بل غادرها، قبل ذلك، لكن أثناء عودة حملته إلى القيروان بإفريقية، أي ما بين ماسة وبين طبنة أو ما بين هذه الأخيرة وبين تهودة وتؤيِّد هذا الطرح معلومات أخرى زوّدنا بها المالكي. في مكان آخر، مفادها أن كسيلة، عندما بعث إليه الروم وأعلموه بقلّة من مع عقبة " جمع له جمعا كبيراً من الروم والبربر، وزحف إليه ليلا حتى نزل بالقرب منه. واختلط بعسكر عقبة، حتى أصبح، فلما رأى ذلك عقبة، استعدّ له"[1] والملاحظ أنّ المالكي لم يتحدث، في سياق كلامه هذا، عن فرار كسيلة من معسكر عقبة، وما أعقب ذلك من أحداث، غير أنّ ماذكره من زحف كسيلة ليلا حتى نزوله بالقرب من عقبة واختلاط العسكرين، يمكن أن يقوم دليلا إضافيا على عدم وجود كسيلة مع جيش عقبة بتهودة.

وهذا عكس ما ذهب إليه ابن الأثير حيث ذكر أنّ الروم، عندما رأوا قلّة من مع عقبة من أصحابه " أرسلوا إلى كسيلة و أعلموه حاله، وكان كسيلة في عسكر عقبة مضمراً للغدر... فلما راسلوه، أظهر ما كان يضمره وجمع أهله وبني عمّه وقصد عقبة، فقال أبو المهاجر: عاجله قبل أن يقوى جمعه -...- فزحف عقبة إلى كسيلة فتنحى... عن طريقه ليكثر جمعه".[2]

وعند التأمّل الجيّد في عبارة نص ابن الأثير هذا، يظهر جليا أنّه من الصعب أولا تصوّر مراسلة الروم لكسيلة. وهو بداخل عسكر عقبة، لأنّ ذلك يَفْتَرِض أن يكون لهم جواسيس فيه. وهذا ليس بالأمر الهيّن، خاصة وأنّ تواجد المسلمين هناك كان طارئا مما لا يتيح فرصة كافية لإجراء الإتصالات السلمية بين الطرفين وتهيئة الظروف الكافية لنسج شبكة جوسسة قدرة على تنفيذ مثل هذه المهام.

ومن الصعب ثانيا تصوّر جمع كسيلة لأهله وبني عمومته، وهو مُراقَب في عسكر عقبة، وأكثر من ذلك تصور الكيفية التي "قصد" بها عقبة " وهو بعسكره" مما يدفع إلى البحث في إمكانية تعويض فِعْلِ "قَصَدَ" بفعل آخر مثل "فرّ" أو "ترك" أو "غادر" وفي هذه الحالة يصبح قول أبي المهاجر لعقبة " عاجله قبل أن يقوى جمعه " منطقيا، ويصبح المعنى واضحا ويوحي بفرار كسيلة من معسكر عقبة، بعد حلوله بمدينة تهودة، ثم راح يتجيّش استعداداً لمجابهته عسكريا.

---

1 رياض، 1، 25.

2 الكامل، 3، 452.

ويتحدّث ابن خلدون، مرة، عن بقاء كسيلة في اعتقال عقبة طيلة قيامه بحملته إلى أن سرّح عساكره إلى القيروان و بقي في خف من الجنود، وعندئذ " تراسل وقومه فأرسلوا له شهودا وانتهزوا الفرصة فيه (أي في عقبة) وقتلوه ومن معه "[1] ويتحدّث، مرّة أخرى، عن تسريح عقبة لعساكر عند وصوله إلى طبنة وسيره إلى تهودة أو بادس و" لمّا نظر إليه الفرنجة طمعوا فيه وراسلوا كسيلة... ودلوه على الفرصة فيه، فانتهزها، وراسل بني عمّه ومَن تبعهم من البربر، واتبعوا عقبة وأصحابه... حتى إذ غشوه بتهودة...".[2]

وما يتبيّن،من النص، الأول أنّ كسيلة كان في عسكر عقبة ومنه تراسل مع قومه، دون إيعاز من الفرنجة أو الروم، فتربصوا بعقبة حتى قتلوه ومن معه، ولم يشر النص إلى مشاركة الفرنجة ولا كسيلة، فيما دار من قتال بين الطرفين؛ أمّا ما يتبيّن من النص الثاني فيفيد أنّ الفرنجة راسلوا كسيلة وراسل هو نفسُه قومَه وأتباعهم من البربر، بعد خروجه من طبنة وقبل وصوله إلى تهودة فاتبعوه حتى اشتبكوا به في هذه الأخيرة، ولم يحدِّد النصّ مكان كسيلة عندما تمّت المراسلات بينه وبين الفرنجة، من جهة، وبينه وبين قومه واتباعهم، من جهة أخرى، كما لم يُبيّن مشاركته ولا مشاركة الفرنجة في المعركة التي دارت رحاها بين أصحاب عقبة وبين أصحابه، والأهم من ذلك كله أن ليس فيهما ما يوحي بأن كسيلة فرّ من معسكر عقبة.

ويتّفق البكري وصاحب كتاب الاستبصار في القول: إنّ عقبة، عندما انتهى إلى مدينة تهودة اعتمد أو اعتمده كسيلة في جيوش الروم[3] " وكان أميرها "[4] و " أقبلت إليه عساكر البربر، وقد علموا بافتراق عساكر عقبة فزحفوا إليه، فكسر عقبة وأصحابه اجفان سيوفهم...".[5]

وهذه المعلومات، إن ثبتت صحتها، يمكن أن يستنتج منها حلّ للإشكال القائم، ويَكمُن ذلك في التسليم بفرار كسيلة من صفوف عقبة بعد (الإهانة) التي ألحقها به ولجوئه بعد ذلك إلى مدينة تهودة، حيث لقي ترحيبا ومساعدة من الفرنج أو الروم فولوه عليها، للاستعانة به ضدّ الخطر الإسلامي المحدق بهم، وقد يكون عِلْمُ عقبة

1 العبر، 6، 217.
2 العبر، 6، 298.
3 المغرب، ص 74؛ مؤلف مجهول، ص 63.
4 كتاب الاستبصار، ص 63.
5 البكري: المغرب، ص 74.

بذلك هو الذي جعله يتوجه إليها بعدد قليل ممن بقي معه، من أصحابه، وقد يعود أيضا، إقدامهُ على ذلك، إلى ما كان متوفرا لديه من معلومات، عن عددِ منْ كان مع كسيلة من المقاتلين، ولم يكن ذلك العدد كبيرا آنذاك، بدون شك، غير أنّ الإفرنج أو الروم الذين كانوا يراقبون عن كثب تحركات المسلمين، سارعوا بتزويد كسيلة بمعلومات عن قلّة عددهم وسارع، هو بدوره، بالاستنجاد بالموالين له من البربر فأقبلوا عليه في الوقت المناسب وانضموا إلى من كان معه من الفرنج أو الروم، وخرج الجميع لمواجهة عقبة.

ولما فاجأته كثرةُ عددهم " أمر أصحابه ألاّ يركب منهم أحد "[1] وفعل مثلهم و"ركع ركعتين"[2]، ولما رأى أبو المهاجر ذلك، وكان عقبة "أصحبه في اعتقاله"[3] "موثقا في الحديد"[4]، تمثّل بقول أبي مِحْجن الثقفي[5]

كفَى حَزَنًا أن ترتديَ الخيل بالقَنَا — وأُتْرَكَ مشدوداً علَيّ وثاقيا

إذا قُمتُ عنّاني الحديد وغُلِّقَت — مصارعُ من دوني تُصمّ المناديا[6]

أو كفَا حَزَنًا أن تطعن الخيلُ بالقَنَا — وأترك مشدوداً عليّ وثاقيا[7]

إذا قمت عناني الحديد وغلّقت — مصارع أبواب تصم المناديا[8]

ولما علم عقبة بما قاله أبو المهاجر أطلق سراحه، وطلب منه أن يلحق بالمسلمين ويقوم بأمرهم ليغتنم هو فرصة الشهادة. فلم يفعل أبو المهاجر مُبْدياً، هو الآخر، رغبته في اغتنام نفس الفرصة[9] وكسر كلّ واحد منهما " جفن سيفه، وكسر المسلمون كذلك أغماد سيوفهم "،[10] أو كسر الجميع " أجفان سيوفهم "[11] وكان عددهم " زهاء ثلثمائة

---

1 المالكي: رياض، 1، 25.

2 المالكي: نفس المصدر، ص 27؛ ابن عذاري: البيان، 1، 29

3 ابن خلدون : العبر، 6، 298.

4 المالكي: رياض، 1، 25؛ ابن الأثير: الكامل، 3، 452؛ En- Noweiri : op.cit , 335

5 من الصحابة، و كان يتعاطى الخمر لدرجة جعلت القائد العربي يضعه في السجن قبل معركة القادسية فراح يعبّر بهذين البيتين من الشعر عن أسفه لعدم تمكنه من المشاركة في المعركة التي كانت قادمة أنظر:
Le Baron De Slane . En –Noweiri : op.cit. p.336, note1

6 ابن الأثير : الكامل، 3، 452؛ En- Noweiri op cit . p.336

7 ابن تغري بردي: النجوم، 1، 159.

8 المالكي: رياض، 1، 27.

9 ابن الأثير: الكامل، 3، 452؛ En- Noweiri . op.cit., p.336؛ قارن. المالكي: رياض، 1، 27؛ ابن عذاري: البيان، 1، 29.

10 ابن عذاري: البيان، 1، 29

11 البكري: المغرب، ص 173؛ مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 64؛ ابن خلدون: العبر، 6، 298؛ المالكي: رياض، 1، 27.

(300) من كبار الصحابة والتابعين، استشهدوا في مصرع واحد"[1] ولم يفلت منهم " إلاّ بعض وجوههم أسروا "[2] ومنهم " محمد بن أوس الأنصاري "[3] أو " محمد بن أويس الأنصاري ويزيد بن خلف القيسي... ففداهم ابن مصاب، صاحب قفصة "[4] وبعث بهم إلى زهير بن قيس بالقيروان.[5]

ويبقي الجدل قائما بين المصادر حول مصير أبي المهاجر دينار، على الرغم من اتّفاق أغلبها على إطلاق سراحه قُبيل الشروع في المعركة ضدّ كسيلة ومشاركته فيها، فمقتله مع غيره، بعدما " أبلى... في ذلك اليوم البلاء الحسن "[6] لكنّ البعض منها ينفي ذلك ويسجّل بقاءه مقيّدا في الحديد حتى اشتدّ القتال، وعند ذلك " أمر عقبة بفتح الحديد عنه فأبى... وقال ألقى الله في حديدي... "[7] وبقي كذلك إلى أن قُتل ؛ أو أنّ عقبة أمر أثناء المعركة "بتخلية أبي المهاجر، فأعجله القتال، فقُتل وهو موثوق بالحديد"[8]، أو أنّه "استشهد... وكان موثقا في الحديد"[9] أي دون أن يشارك في القتال، بل إنّ هناك رواية تذكر أنّ كسيلة "إنما أتى ناصرا لأبي المهاجر لأنّه كان صديقه فقُتل أبو المهاجر، في التحام القتال، ولم يعلم به".[10]

وما يمكن استخلاصه ممّا ذكَرتْه المصادر عنه، بعد وصول عقبة إلى القيروان في ولايته الثانية، أن معلوماتها في موضوعه جاءت متناقضة إلى حدّ بعيد، وخاصة فيما يتعلّق بما قالته عن التنكيل به وتقييّده بالحديد وجرّه وراءه، في حملته تلك، من جهة، وما قالته عن النصائح الكثيرة التي لم يتوقف أبو المهاجر عن تقديمها له، منذ حلوله بالقيروان وحتى فرار كسيلة من صفوف جيشه، حول كيفية معاملته لهذا الأخير، من جهة أخرى. والسؤال الذي يفرض نفسه على متّتبع تطّور تلك الأحداث، هو: كيف كان الاتّصال يتمّ بين سجين مقيّد، يُفتْرض أن يكون تحت حراسة مشدّدة، وبين قائد الحملة الذي يُفتْرض أن يكون، بعيدا عنه، منشغلا بأمور تكتيكية يتوجّب تغييرها باستمرار، طالما كانت الحملة في حركة مستمرّة؟

---

1 ابن خلدون: العبر، 6، 296.
2 ابن عذاري: البيان، 1، 29.
3 ابن الأثير: الكامل، 3، 452.
4 العبر، 6، 299.
5 قارن. ابن الأثير: الكامل، 3، 452؛ ابن عذاري: البيان، 1، 29.
6 ابن خلدون: العبر، 6، 298.
7 ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص 72.
8 المالكي: رياض، 1، 27.
9 المالكي: نفس المصدر، ص 25.
10 نفسه.

والجواب الذي يتطلّبه سؤال كهذا لا يخرج عن أحد الافتراضين هما: إمّا أن يكون عقبة انتقم من أبي المهاجر فقيّده بالحديد وجرّه خلفه في الحملة زيادة في التنكيل به، وفي هذه الحالة يصعب تصوّر سجين منكوب في وضعية تؤهّله لتقديم نصائح واستشارات، وبالتالي، فإنّ ما ذكرته المصادر في موضوعها غير دقيق بالمرة؛ وقد يكون ما ورد من كلام فيها أُلِّف في وقت لاحق، وفي ظروف غامضة، وإمّا أن يكون عقبة اصطحب معه أبا المهاجر فعلا ولكنّه كان طليقا، غير مكبّل، لغرض الاستعانة به في الأمور الحربية، نظرا لما كان في رصيد الرجل، من تجارب في هذا الميدان، وفي هذه المنطقة بالذات؛ وهذا أقرب إلى الصواب لأنّ المنطق يقتضي ذلك، كما يقتضي من عقبة أيضا، إن أراد. فعلا. التنكيل بخصمه، أن يتركه مكبلا في قيوده بسجن في القيروان، فلماذا يا تُرى يفكر قائد. في حجم عقبة ومستواه، في حمل هذا العبء الثقيل، أثناء قيامه بمهمّة جهدية كان ينوي أن يبيع نفسه فيها لله سبحانه و تعالى، حسب ما عبّر به، هو نفسه. قبل انطلاقه فيها؟ وحتى عند التسليم بالافتراض الثاني، فإنّ ذلك لا يعني أنّ العلاقة بين الرجلين المتنافسين في المسؤولية، كانت على أحسن ما يرام، بل يُتوقع أن تكون مَشُوبة بحساسية خاصة جعلت عقبة لا يأخذ بكلّ نصائحه وخاصة بالجانب المتعلق بكسيلة بن مزم منها، لأن نظرة عقبة إليهما كانت واحدة طالما كانا صديقين، وفقا للقاعدة التي تقول: صديق عَدوّي عدوّي.

ويحدّد ابن عبد الحكم تاريخ وقوع المعركة بسنة 63هـ/682-683م[1] غير أنّ ابن عذاري يحدّد المدّة التي استغرقتها جولة عقبة. في بلاد المغرب، بثلاثة أعوام وتاريخ دخول كسيلةوأصحابه. بسنة 64هـ 683-684م[2] فإذا أضيفت ثلاثة أعوام إلى سنة 62هـ-681-682م وهي السنة التي تحدّد أغلب المصادر وصول عقبة إلى القيروان، بعد مقتل عقبة فيها، إلى إفريقية لاستلام مهام ولايته الثانية[3]، يصبح المجموع خمسا وستين(65) وهو يمثل السنة التي يكون عقبة قد قُتل فيها بتهودة، وليس قبل ذلك، إلاّ إذا أخذ بعين الاعتبار تحديد تاريخ آخر لوصول عقبة إلى إفريقية والمغرب كالذي حدّده ابن عذاري، وهو سنة 61هـ 680-681م (إلى جانب سنة 62هـ) وفي هذه الحالة يمكن تحديد تاريخ تلك المعركة بسنة 64هـ/ 683-684م، وفي نفس الوقت تمّ استيلاء كسيلة

1 فتوح إفريقية و الأندلس، ص 74

2 البيان، 1، 30.

3 أنظر. ما قبل، ص 76-77.

على القيروان، مثلما حدّد ذلك ابن عذاري نفسه، وهذا موقوف، بطبيعة الحال، على صحة معلوماته القائلة بأن تجوّل عقبة في المغرب دام ثلاثة أعوام.

وقد نُسجت بعض الأساطير حول مقتل عقبة وأصحابه وحتى حول شخصه: منها رواية حديث نسب إلى النبي (صلى الله عليه وسلم)، يَنْهَ عن سكنى تهودة ويصفها بالملعونة وقال: " سوف يقتل بها رجال من أمتي على الجهاد في سبيل الله تعالى، ثوابهم ثواب أهل بدر وأُحُد، واشوقاه إليهم! منها يحشرون يوم القيامة ".[1]

أو قال: بَعْدَ " في سبيل الله " " ثوابهم ثواب أهل بدر وأهل أُحُد، ما بدّلوا حتى ماتوا "[2]، أو "... ثوابهم كثواب أهل بدر وأهل أُحد، والله ما بُدّلوا حتى ماتوا "[3] وكان شهر بن حوشب* يقول واشوقاه إليهم، مُضيفاً أنّه سأل جماعة من التابعين عن هذه العصابة فأخبروه أن الأمر يتعلق بعقبة وأصحابه، قتلهم البربر والنصارى بمدينة يقال لها تهودة، فمنها يحشرون يوم القيامة وسيوفهم على عواتقهم (أو عوانقهم) حتى يقفوا بين يدي الله تعالى.[4]

ومن تلك الأساطير، أنّ عقبة قدم مصر وعليها عمرو بن العاص، في خلافة معاوية، فحلّ بمنزل من بعض قراها، ومعه عمرو بن العاص وعبد الله بن عمرو وجماعة من أصحاب رسولالله -ص- فوُضعت بين أيديهم سُفرة فيها طعام فلمّا تناولوا منه ضربت حِدَاةُ عليها وأخذت عِرقا منه، فقال عقبة: اللّهم دقّ عنقها، فأقبلت منقضة حتى ضَرَبَت بنفسها الأرض فاندقّ عنقها. وسمع عُقبة عمراً يترجع فسأله عن السبب فقال: " بلغني أنّ نفراً من قريش يخرجون إلى هذا الموضع (أو يغزون إلى هذه الناحية) سيستشهدون جميعا (أو سيستشهدون بها جميعا)، فقال عقبة اللّهم وأنا منهم ".[5]

ومن تلك الأساطير أنّ عقبة خرج أيام، الخليفة يزيد بن معاوية، على جيش، غازيا إلى بلاد المغرب، فمرّ على عبد الله بن عمرو وهو بمصر، فقال له عبد الله:

1 المالكي: رياض، 1، 27؛ الدبّاغ وابن ناجي: معالم، 1، ص 54-55.
2 البكري: المغرب، ص 73.
3 مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 62.
* من رُواة الحديث.
4 البكري: المغرب، 73، مؤلف مجهول: الاستبصار، ص 62.
5 البكري: المغرب، ص 73، مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار، ص 67.

يا عقبة لعلّك من الجيش الذين يدخلون الجنة برحالهم[1] أو لعلكم الجيش الذي يدخل الجنّة.[2]

ومنها أيضا أنّ عقبة دخل على عبد الله بن عمرو بن العاص ولما سأله عن سبب قدومه (مع أنه يحبّ الإمارة) أخبره أن أمير المؤمنين يزيد عقد له على جيش إلى إفريقية، فقال له عبد الله " إياك أن تكون لعنة أرامل أهل مصر، فإني لم أزل أسمع أنّه سيخرج رجل من قريش في هذا الوجه فيهلك فيه".[3]

وبطبيعة الحال فإنّه ليس من السهل التوّصل إلى تاريخ وظروف نَسْج أو وضع كلّ أسطورة من هذه الأساطير، بما فيها الحديث المنسُوب إلى الرسول، عليه الصلاة والسلام، وليس من السهل أيضا التعرف على مغزى كل واحدة منها، والشيء الوحيد الذي يمكن استنتاجه منها: أنّها عبارة عن تعبير غامض عن الصدمة العميقة التي تركها موت عقبة وأصحابه على الرأي العام آنذاك.

وهناك أسطورة أخرى. يتّفق حولها كلّ من أبي عبيد البكري وصاحب كتاب الاستبصار، وتدور حول قبر عقبة المعروف بمدينة تهودة أو بظاهرها وكان " على مقربة منها بمرحلة "[4]، في عهد صاحب كتاب الاستبصار (أي في النصف الثاني من القرن السادس الهجري 12م) وتقضي تلك الأسطورة. بأنّ الخليفة الفاطمي مَعَد بن إسماعيل (الملقب بالمعز لدين الله). عندما أراد تحريف قبلة مسجد القيروان، وقَلَعَ من محرابه أجرًا سنة 345هـ/956-957م. بلغه أن أهل القيروان يذكرون دعاء عقبة للمدينة وتأسيسه جامعها، وأنّهم " يقولون إنّ الله. عزّ وجلّ. يمنعه منه بدعاء صاحب نبيّه له، فأمر معد... بنبش قبر عقبة وإحراق رمّته بالنار، وبعث إلى مدينة تهوذا لذلك خمس مائة (500)، بين فارس وراجل. فلمّا دنوا من قبره، وحاولوا تنفيذ ما أمرهم به، هبّت ريح عاصفة، ولاحت بروق خاطفة. وقعقعت رعود قاصفة، كادت تهلكهم فانصرفوا ولم يعرضوا له"[5] و "خافوا عقوبة معدّ فتاهوا في صحاري إفريقية حتى سمعوا أنّه هلك فحينئذ أتوا إلى أوطانهم معتبرين مستبصرين"[6]، وإن صحّت هذه الرواية فإنها قابلة

---

1 ابن عبد الحكم: فتوح، 72، البكري: المغرب، 73، الدباغ وابن ناجي: معالم، 1، 55.

2 مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار، ص 63.

3 ابن عبد الحكم: فتوح، ص 74

4 ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص 65

5 البكري: المغرب، ص 74، كتاب الاستبصار، ص 4-5.

6 مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 5

لتكون مناسبة يكون قد تم فيها تأليف الدعاء الذي نُسبَ إلى عقبة أثناء بنائها أو إعادته، كما تبيّن سابقا... مع العلم أن وفاة مَعدّ كانت بعد رحيله إلى مصر.

فهل قام الخليفة الفاطمي فعلا بمثل هذه المحاولة؟ وهل تدخلت الطبيعة لحماية قبر عقبة من النبش؟ أي هل صادف هبوبُ عاصفة هوجاء قدومَ فرقة جيش معدّ إلى تهودة، وقد تكون أحدثت لها بعض الأضرار، فنسبت ذلك إلى قوّة غيبية جاءت لتمنعها من أداء مهمتها، فانسحبت واستوعبت الدرس فلم تكرر محاولتها، ولم يكررها غيرها فكان ذلك لصالح قبر عقبة الذي استمر محفوظا بعد ذلك.

وقد تحدّث ابن خلدون، فيما بعد، عن بقاء " أجداث... عقبة وأصحابه بمكانهم ذلك، من أرض الزاب "[1] في عهده (ق8هـ/14م) وأضاف أنه جُعل " على قبره أسنمة ثم جصص واتُّخذ عليه مسجدٌ، عُرف باسمه، وهو في عداد المزارات ومظان البركة، بل هو أشرف مزور من الأجداث في بقاع الأرض، لما توفّر فيه من عدد الشهداء، من الصحابة والتابعين...".[2]

5.2- دور زهير بن قيس البلوي في فتح بلاد المغرب:

يُسند ابن عبد الحكم دور الزحف على القيروان، بعد مقتل عقبة، إلى ابن الكاهنة البربري، وهو نفس الشخص الذي سبق وأن أسند له تنفيذ عملية دفن المناهل وراء عقبة، عندما كانت حملته تتقدم في النواحي الغربية من بلاد المغرب[3] ويقول: إن عمر بن علي وزهير بن قيس " قاتلاه قتالا شديدا، فهُزم ابن الكاهنة وقُتل أصحابه وخرج عمر... وزهير... إلى مصر بالجيش لاجتماع ملأ البربر، وأقام ضعفاء أصحابهما ومن كان خرج معهما من موالي إفريقية باطرابلس ".[4]

فهل معنى هذا أن المسلمين هُوجموا آنذاك، من عدة أطراف، وفي عدّة أماكن؟ فإذا ما أُخذ بعين الاعتبار ما قاله ابن خلدون، في حديثه عن الكاهنة، من أن " قتل عقبة بن نافع، في البسيط، قبلة جبل أوراس، " كان... بإغرائها برابرة تهُودا عليه، وكان المسلمون يعرفون ذلك منها "[5] يصبح ذلك ممكنا، خاصة عند تصوّر أنها كانت تراقب ما يجري في المنطقة من أحداث، انطلاقا من مقرّها، أوراس، الذي مرّ عقبة

---

1 العبر، 6، 298.

2 نفسه.

3 أنظر ما قبل، ص 90.

4 فتوح إفريقية والأندلس، ص 74.

5 العبر، 7، ص 17-18.

بالقرب منه، وهو في طريقه إلى المغرب الأقصى، واطّلعت عن قرب، على إمكانياته الحربية مما جعلها تشعر. ولا شك، بخطر محتمل عليها، وهذا سبب كاف لدفعها إلى التحرك من أجل إبعاده عنها.

ويروي المالكي عن أبي العرب أن زهيرا " لما بلغه ما جرى على عُقبة، رعب رُعبا شديدا، وأراد الانصراف إلى مصر، فأبى " ابن حيان الحضرمي"، وقال: " لا تفعل، فإنها هزيمة إلى مصر" فكان أوّل من برز، فضرب خباءه مبارزا للعدوّ، فلما رأى زهير عزمه، عزم معه. ... فثبت زهير بالقيروان حتى زحف إليه كسيلة، في جمع عظيم من البربر والروم."[1] ونقض الروم عهدهم مع المسلمين، فخرجوا من حصونهم، وكان مع زهير ستة آلاف: ألفان من البربر. وأربعة آلاف من العرب، ولما وافق هذا الهجوم عيدَ الأضحى أرسل إلى الروم يقول لهم: " إنّا وأياكم أهلُ كتاب، وقد حضَرَنا يومَ نُعظّمه، فأخِّروا حربَنا حتى ينقضي العيدُ، فأجابوه إلى ذلك، فلما انقضى العيد، زحف إلى كسيلة وقاتله... فانهزم كسيلة وقُتل من أصحابه ما لا يحصى، وتفرّقوا، فأقام زهير بالقيروان يسيرا ثم خرج إلى مصر... وذلك سنة خمس وستين 65هـ/684-685 ".[2] أمّا بقية المصادر. بمن فيهم المالكي. عند تطرّقه لنفس الموضوع، في مكان آخر، فلا تشير بتاتاً إلى هذه المعلومات ولا إلى أية معركة يكون قد دار رحاها بين زهير وكسيلة آنذاك، بل تذكر بأن هذا الأخير زحف بجمع غفير من الروم والبربر[3] أو من " البربر والفرنجة "[4] على القيروان " وعظم البلاء على المسلمين، فخرجوا هاربين "[5] ولم " يكن لهم بقتاله طاقة...".[6]

وفيما يخصّ موقف زهير بن قيس الشخصي، فإن بعض المصادر تذكر أنه عزم على القتال وقام في الناس خطيبا. قائلا: " يا معشر المسلمين! إن أصحابكم قد دخلوا الجنّة، وقد منّ الله عليهم بالشهادة! فاسلكوا سبيلهم! يفتح الله لكم دون ذلك! "[7] فردّ عليه حنش الصنعاني بقوله: " لا! والله! ما نقبل قولك، ولا لك علينا ولاية! ولا عمل أفضل من النجاة بهذه العصابة من المسلمين، إلى مشرقهم!" ثم قال: " يا معشر

1 رياض،1، ص 28-29.
2 نفس المصدر، ص 29.
3 المالكي: رياض،1، 28؛ الرقيق القيرواني، المصدر السابق، ص 43.
4 العبر،6، 299.
5 المالكي: رياض،1، 28.
6 الرقيق القيرواني: المصدر السابق، ص 46.
7 ابن عذاري، البيان،1، 31؛ أنظر أيضا. ابن الأثير: الكامل،3، 452، En – Noweiri : op.cit., p.336.

المسلمين! من أراد منكم القفول إلى مشرقه فليتبعني! " فاتبعه الناس، ولم يبق مع زهير إلاّ أهل بيته فنهض في إثره".[1]

ويذكر ابن خلدون، مرّة، أن زهيرا كان بالقيروان، عندما بلغه خبر هزيمة عقبة وقتله " فخرج هاربا، وارتحل بالمسلمين ونزل برقة "[2] ولم يشر إلى عزمه على التصدي لكسيلة ولا إلى ما يكون قد حدث من خلاف، في صفوف جيشه، أجبره على اتّخاذ قرار الانسحاب نحو المشرق، لكنه يذكر، في مكان آخر، أن زهيراً، زحف إلى كسيلة بالزاب، بعدما قتل عقبة هناك واجتمعت البربر عليه، أيام عبد الملك بن مروان فهزمه كسيلة وملك القيروان وأخرج المسلمين من إفريقية.[3]

والمهم في الأمر أن كسيلة، عندما أقبل بجموعه على القيروان، " لم يبق فيها إلاّ الشيوخ الهرم والنسوان والأطفال وكل مثقل بالعيال"[4]، أو بقي بها فقط " أصحاب الذراري والأثقال "[5] ف "وثقوا بدعوة عقبة رحمه الله "[6]، أي الدعوة التي نُسبت لعقبة بمناسبة تأسيسه للقيروان أو إعادة بنائها، والمناخ ملائم هنا أيضا لتأليف مثل هذا الدعاء ونسبته إلى القائد الصالح لإعطائه الوزن المطلوب، قَصْدَ رفع معنويات ضعفاء المسلمين المتبقين في المدينة، بعد مغادرة المقاتلين لها. وقد أرسل أولئك الضعفاء إلى كسيلة يسألونه الآمان فأمّنهم و " أسلموا القيروان "[7] له، فدخلها " وجلس في موضع عقبة "[8] وأقام أميراً عليها و " على سائر إفريقية والمغرب "[9] وبقي المتخلفون فيها " من العرب "[10] "المسلمين تحت يده"[11] مدة " خمس سنين ".[12]

---

1 نفسه؛ أنظر. الكامل: نفس المصدر،3، 452؛ En – Noweiri : op.cit., p.336؛ النجوم،1، 159.

2 ابن خلدون: العبر،6، 299.

3 كتاب العبر،7، ص 17؛ قارن. النجوم الزاهرة، 1، 160.

4 المالكي: رياض،1، 28.

5 الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية، ص 46؛ ابن الأثير: الكامل،3، 453؛ ابن خلدون: العبر،6، 299؛ En – Noweiri : op.cit., p.336

6 المالكي: رياض، 1، 29.

7 الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية،46.

8 المالكي: رياض،1، 28.

9 ابن عذاري: البيان،1، 31.

10 العبر،6، 299.

11 الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية، ص 46.

12 العبر،6، 299.

أمّا زهير بن قيس الذي " ارتحل بالمسلمين، ونزل برقة "[1] حيث " لحق بقصره... (و) أقام بها مرابطا "[2] والتحق به أغلب سكان القيروان[3] " ويعث يستمدّ المصريّين، ووقع له أمورٌ إلى أن ملك إفريقية سنة تسع وستين "[4] في حين مضى بعض المسلمين " حتى قدموا على الخليفة يزيد فوجدوه قد توفي سنة أربع وستين (64هـ/683-684م)."[5] أو أن زهيرا، عندما وصل " إلى نوبيا ومراقية... سنة خمس وستين (65هـ/684-685م)... وجد يزيد قد توفي وعبد الله بن الزبير خليفة بمكة. ومروان بن الحكم أميرا بالشام "[6] مما أدّى إلى " اضطراب أمر الخلافة بعض الشيء[7] " لقيام " فتنة الضحاك بن قيس مع المروانية بمرج راهط، وحروب ابن الزبير ".[8]

ولم تمنع تلك الظروف الصعبة التي كانت تمر بها الخلافة الأموية " المسلمين " من تقديم اقتراح للأمير مروان بن الحكم بإرسال " الجيوش إلى إفريقية لخلاص من فيها من إخوانهم من يد "كسيلة "[9] واتفق رأي الجميع على زهير بن قيس، لأنه " كان من رؤساء العابدين وأشراف المجاهدين "[10] . غير أن تنفيذ ذلك لم يحدث إلاّ بعدما وُلي عبد الملك بن مروان الخلافة سنة 65هـ[11] 684-685م وقضائه على آثار الفتنة بالمشرق.[12]

عندئذ ناقش الخليفة الجديد المسألة. مرّة أخرى، مع وزرائه وأكابر المسلمين وعبّر لهم عن رأيه الخاص بأن "لا يصلح للطلب بدم عُقبة... إلاّ من هو مثله دينا وعقلا!"[13] فأكدوا له الإقتراح الذي سبق تقديمه إلى والده مروان، والخاص بتعيين زهير للقيام بهذه المهمة بحجة أنه " صاحب عقبة. وأعلم الناس بسيرته وتدبيره وأولاهم بطلب دمه!".[14]

---

1 ابن خلدون: العبر، 6، 299.

2 ابن عذاري: البيان، 1، 31؛ أنظر ابن الأثير: الكامل، 3، 453.

3 En – Noweiri : op.cit., p.336

4 ابن تغري بردي: النجوم، 1، 159.

5 المالكي: رياض، 1، 28.

6 نفس المصدر، ص 29.

7 العبر، 6، 299.

8 نفسه.

9 المالكي: رياض، 1، 29.

10 نفسه.

11 ابن عذاري: البيان، 1، 31.

12 ابن خلدون: العبر، 6، 299.

13 ابن عذاري: البيان، 1، 31؛ En – Noweiri : op.cit., p.337

14 نفسه؛ قارن. الرقيق القيرواني: تاريخ، ص 47، En – Noweiri : op.cit., p.337

فاقتنع عبد الملك برأيهم وبعث أمرا، لزهير، وهو ببرْقة، يطلب منه فيه " الخروج على أعنّة الخيل " فيمن معه من المسلمين لغزو إفريقية "[1] أو " الخروج على أعنّة الخيل إلى إفريقية ليستنقذ القيروان ومن فيها من المسلمين "[2] أو " ليستنقذ من بالقيروان "[3] فلما اتصل ذلك بزهير " سرّه... وكتب إلى عبد الملك، يخبره بقلّة من معه من الرجال والأموال "[4] أو " يعرّفه بكثرة من اجتمع إلى كسيلة من البربر والروم، ويستمدّه الرجال والأموال "[5]، فأرسل الخليفة " إلى أشراف العرب ليحشدوا إليه الناس من الشام... فسارع الناس إلى الجهاد، واجتمع منهم خلق عظيم فأَمَرهم أن يلحقوا بزهير "[6] وكانوا مِنْ " وجوه أهل الشام "[7] أو من " وجوه العرب "[8] وأفرغ " عليهم أموال مصر ".[9]

فلما وصلت الخيل والأموال والرجال[10] الذين يقدر ابن خلدون عددهم بـ"آلاف من العرب "[11] انطلق على رأسهم، صوب القيروان. ويحدّد بعض المؤرخين تاريخ هذا الزحف بسنة 67هـ/686[12]-687م، ويحدّده البعض الآخر بسنة 69هـ/[13]688-689م، وهذا الأخير أقرب إلى الصواب ما دام قتل عقبة وأصحابه حدث حوالي سنة 64هـ/683-684م وتلته سيطرة كسيلة على القيروان وإفريقية، مدة خمس سنوات، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، فإذا أضيف عدد خمسة (05) إلى أربع وستين(64)، يصبح المجموع تسعاً وستين(69) وهو يمثل تاريخ الزحف الذي قام به زهير بن قيس لـ " للثأر بدم عقبة ".[14]

واللاّفت للانتباه أن ابن خلدون، في وصفه للظروف السياسية التي أعقبت مقتل عقبة وأصحابه، يقول: " واضطرم المغرب نارا، وفشت الردّة في زناتة والبرانس"[15] لكنه لا يضيف، مثله في ذلك مثل مؤرخي المغرب الآخرين، ما من شأنه أن يعالج فيه

---

1 المالكي: رياض،1، 29.
2 الرقيق القيرواني: المصدر السابق، ص 47.
3 ابن عذاري: البيان،1، 31.
4 المالكي: رياض،1، 29؛ En – Noweiri : op.cit., p.337
5 الرقيق القيرواني: المصدر السابق،ص 47-48.
6 المالكي: رياض،1، 29-30.
7 الرقيق القيرواني: تاريخ، ص 48.
8 ابن عذاري: البيان، 1، 31؛ الرقيق القيرواني: المصدر السابق، ص 49.
9 المالكي: رياض، 29.
10 ابن عذاري: البيان،1، 31.
11 العبر،6، 299.
12 الرقيق القيرواني: المصدر السابق، ص 49؛ En – Noweiri : op.cit., p.337؛ ابن خلدون: العبر،6، 299.
13 المالكي: رياض،1، 30؛ ابن عذاري: البيان،1، ص 31؛ الدباغ وابن ناجي: معالم،1، 57؛ ابن الأثير: الكامل،3، 453 يحدد ابن الأثير في مكان آخر ؛ تاريخ تولية زهير بن قيس سنة 62هـ(الكامل،4، 135).
14 ابن خلدون: العبر،6، 299.
15 نفسه.

تفاصيل أحداث تكون قد وقعت في فترة غياب المسلمين عن المنطقة، مما يدفع إلى الاعتقاد بأن مقصوده بجملتين السالفتي الذكر، هو خروج بلاد المغرب عن سيطرة المسلمين، وبقاؤها تحت سيطرة كسيلة. لا غير.

ولما اقترب زهير من القيروان " نزل بقرية يقال لها " قرشانة "... فبلغ ذلك كسيلة"[1] فبيّن أنه " لا يهابه ولا يخاف منه "[2] وكان معه خلق عظيم من الروم والبربر[3] " أضعاف ما مع زهير مضاعفة"[4] أو أنه "جمع... البرانس وسائر البربر"[5] ف " احتفل وجمع وحشد "[6] رجاله وراح يجتمع بأشرافهم وأكابرهم، أي بقادتهم ليشاورهم في أمر الخروج إلى موضع ممس، لانتظار العدوّ هناك، بحجة وجود عدد كبير من المسلمين بمدينة القيروان. لهم عليه عهود، فلا يستطيع الغدر بهم، وفي نفس الوقت فهو لا يثق في حيدهم. بعد نشوب القتال بينه وبين إخوانهم في الدين، وعبّر لهم عن خشيته من أن يكونوا عليهم آنذاك.[7]

وشرح لهم الأهمية الاستراتيجية للمكان المقترح، والمتمثلة في توفر المياه به لما يحتاجه جيشهم الكبير. وفي قربه من جبل وشعراء يمكن اللجوء إليها، والاحتماء بها في حالة الهزيمة؛ أمّا في حالة الانتصار فيسهل مطاردة الأعداء منها، وملاحقتهم إلى طرابلس، وقطع دابرهم أو طردهم من إفريقية.[8] فوافقوه الرأي وارتحل بهم إلى ممس ونزلها، في حين كان زهير ينتظر " أن يخرج إليه من القيروان ".[9]

ويفيد المالكي أن زهير عندما علم بأمر هذا الخروج " نزل بالقيروان وأقام بها ثلاثة أيام، حتى استراح وأراح. وأراح أصحابه خيلهم، وزحف إلى كسيلة يوم الأربعاء صباحا، فأشرف على معسكر في آخر النهار "[10]؛ أما بقية المصادر فتنفى نزول زهير بالمدينة والإقامة بها بل يجعل الرقيق القيرواني نزوله " على باب سالم... حتى استراح وأراح من معه، وزحف في اليوم الرابع. ووقف على كسيلة وعسكره آخر

1 المالكي: رياض،1، 30
2 ابن عذاري: البيان، 1، 32.
3 المالكي: رياض،1، 30؛ الرقيق: المصدر السابق، 49
4 ابن عذاري: البيان،1، 32.
5 ابن خلدون العبر،6، 299.
6 ابن الأثير: الكامل،3، 452.
7 المالكي: رياض،1، 30، الرقيق: المصدر السابق، ص 50؛ ابن الأثير. الكامل،3، 453؛ ابن عذاري: البيان،1، 32.
8 الرقيق القيرواني: المصدر السابق، ص 50، المالكي: رياض، 1، 30، ابن الأثير: الكامل،3، 453، ابن عذاري: البيان، 1، 32.
9 المالكي: رياض، 1، 30.
10 نفسه.

النهار"[1] ويتفق كل من ابن الأثير والنويري على القول بإقامته ظاهرها نفس المدة أي ثلاثة أيام[2]، وهو نفس ما ذهب إليه ابن عذاري، تقريبا، بقوله "نزل عليها... ولم يدخلها، وفي اليوم الرابع رحل عنها حتى أشرف على عسكر كسيلة في آخر النهار".[3]

وتشير بعض المصادر، بكل وضوح، إلى مَبيتِ الناس تلك الليلة "على مصافهم"[4] و " وقفت خيول القوم، بعضهم إلى بعض، طوال الليل "[5] وفي الصباح "صلّى"[6] "... غِلساً "[7] أو " مُغلِساً "[8] ثم زحف إلى عدوّه. غير أن بعضها الآخر ومنها ابن الأثير والنويري لا يشير إلى وقت الوصول المتأخر من النهار، ولا إلى المبيت على المصاف، بل تتحدّث عن بدء المعركة مباشرة مع وصول زهير إلى عدوّه، فلمّا قاربه نَزَل وعبّى أصحابه وركب إليه والتقى العسكران "[9] لكن الأول منهما يتحدّث عن اشتداد القتال وكثرة القتل " في الفريقين فلم يزالوا كذلك أكثر النهار ثم... انهزم كسيلة ".[10] وعبارة "أكثر النهار" هنا توحي بأن المعركة بدأت في أوّله وإذا كان الأمر كذلك فهذا يعني أن الوصول المتأخر المشار إليه، وكذلك المبيت على المصاف حدثًا فعلا، فلعلّها لم تشر إلى ذلك من باب اختصار الكلام فقط.

ويُجمِع المؤرخون على القول بأن المعركة بين الفريقين كانت شديدة، وأن القتل كَثُر في صفوف الفريقين، لدرجة جعلت الناس ييأسون من الحياة لكن النصر كان حَليف المسلمين، في آخر النهار، دون تَعرُّضها للحديث عن أسبابه، وراحت تركّز، بعد ذلك، كلامها عن قتل كسيلة نفسه بممس، مع الكثير من أصحابه، وملاحقة من بقي منهم، بعد ذلك[11] ولحق العربُ " كثيرا منهم بمزرعة " ملمجنّة"..."[12] أو

---

1 تاريخ إفريقية و المغرب، ص 50-51.

2 الكامل،3، 453؛ En – Noweiri : op.cit., p.337

3 البيان،1، 32.

4 الرّقيق القيرواني: تاريخ، ص 51، المالكي: رياض، 1، 30

5 الرقيق القيرواني: تاريخ، 51

6 ابن عذاري: البيان،1، 32.

7 المالكي: رياض،1، 30.

8 الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية، ص 51.

9 ابن الأثير: الكامل،3، 453؛ أنظر أيضا En – Noweiri : op.cit., p.337

10 نفسه.

11 الرقيق القيرواني: المصدر السابق، ص 51-52؛ المالكي: رياض ، 1، 30؛ ابن عذاري: البيان، 1، 32؛ ابن الأثير: الكامل،452،3.

12 الرقيق القيرواني: تاريخ، ص 52.

"اتبعوهم... إلى مرمجنّة" وجدّوا في طلبهم حتى وصلوا وراءهم إلى نهر ملوية من المغرب الأقصى أو من طنجة.[1]

وفي تلك الموقعة "ذهب" و "هلك" "رجال الروم والمشركون من البربر وفرسانهم وأشرافهم. فخرج منه (زهيرا) أهل إفريقية، واشتدّ خوفهم، فلجأوا إلى الحصون والقلاع"[2] ويعني ذلك خطر. وحسب تعبير ابن خلدون، فقد " ذُل البربر وفنيت فرسانهم ورجالهم وخضدت شوكتهم واضمحلّ أمر الفرنجة فلم يعُد، وخاف البربر من زهير ومن العرب خوفا شديدا فلجأوا إلى القلاع والحصون ".[4] و " خضدت (أيضا) شوكة أوربة، من بينهم. واستقرّ جمهورهم بديار المغرب الأقصى، فلم يكن بعدها لهم ذِكر، واستولوا على مدينة وليلي بالمغرب...، ما بين موضع فاس ومكناسة، بجانب جبل زرهون، وأقاموا على ذلك. والجيوش من القيروان تدوّخ المغرب مرّة بعد أخرى"[5] دون أن يكون لهم أي دور فيما جرى. بعد ذلك، من أحداث عمليّةِ الفتح.

مع ملاحظة أن ابن خلدون الذي أورد المعلومات المسجلة هنا، كنتيجة للهزيمة التي تلقاها كسيلةُ على يد زهير. والتي يتفق مع بقية المصادر في وقوعها، ذكَر، في مكان آخر، أن القائد الذي أخرجه خليفة عبد الملك في عساكر المسلمين، " فهزموا البربر وقتلوا كسيلة واسترجعوا القيروان وقرطاجنة وإفريقية "[6]، هو حسان بن النعمان، وقد نتج عن تلك الهزيمة أن " فرّ بقية الإفرنجة والروم إلى صقلية والأندلس، وافترقت رياسة البربر في شعوبهم ".[7]

وتُذكّر معلومات ابن خلدون التي يتضح فيها تردّده هنا، في تحديد المسؤول العربي الذي قاد تلك العمليات. بتردّد ابن عبد الحكم، في روايتين مختلفتين، حيث أسند مرّة مسؤولية إخراج زهير ضدّ كسيلة، إلى عبد العزيز بن مروان، بعد توليته على مصر[8]، وهو ما يشاطره فيه البلاذري الذي يحصر مهمة عقبة بإفريقية في فتح تونس[9]،

---

1 ابن خلدون: العبر، 6، ص 299-300

2 الرقيق القيرواني: المصدر السابق؛ المالكي: رياض، 1، 30؛ ابن عذاري: البيان، 1، 32؛ ابن خلدون: العبر، 6، 300.

3 الرقيق القيرواني: نفس المصدر، ص 52. قارن بـ: ابن الأثير: الكامل، 3، 453؛ ابن عذاري: البيان، 1، 32؛
En – Noweiri : op cit., p.337

4 ابن خلدون: العبر، 6، 218.

5 العبر، 6، 300.

6 العبر، 7، 7.

7 نفسه.

8 فتوح إفريقية والأندلس، ص 74

9 فتوح البلدان، 1، 270.

دون أية إشارة إلى ماكان بينه وبين كسيلة، من أحداث، مما يدُل على عدم دقّته في تناول هذا الموضوع، ويسندها، في مكان آخر، إلى حسّان بن النّعمان، مضيفا أن مقتل كسيلة كان سنة 64هـ/[1] 685-684م. فعند التأمل الجيّد لما ذكره المؤرخان السّالفا الذكر، من تفاصيل، يتبيّن أن ما قاله الأول منهما " عن استيلاء حسان على " قرطاجنة " وفرار " بقية الافرنجة والروم إلى صقلية والأندلس"، إنما حدث في الحملة التي سيقوم بها حسان لاحقا، ويتبيّن كذلك أن سنة 64هـ 683-684م الذي حدّد بها الثاني تاريخ مقتل كسيلة، توافق تاريخ مقتل عقبة في المصادر الأخرى، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، مما يدلّ على الخلط الذي حدث لكليهما في ترتيب تفاصيل وقوع تلك الأحداث كرونولوجيا.

وللعلم، أن أخبار كسيلة لم تختف نهائيا بعد ذلك، حتى في بعض المصادر الموثوق بها، فهذا أبو عبيد البكري، في وصفه لمدينة طبنة، يتحدث عن هروب ملكها كسيلة منها عندما فتحها موسى بن نصير[2]، بعد حوالي عشرين سنة في معركة ممسّ، وذاك ابن قتيبة، في حديثه عن فتح سجوما وما حولها، في نفس تلك الفترة، وبالضبط، سنة 83هـ/702-703م، يقول: إن مَلِك المنهزمين بها هو كسيلة بن لمزم وأن سبيهم الذي بلغ مائتي ألف رأس، كان فيه بنات كسيلة وقد اختار مروان بن موسى لنفسه إحداهن[3]، والمتأمل في كلام هذين المؤلفين يتهيأ له وكأنهما اعتبرا كلمة " كسيلة " لقبا يعني ملكا وليس اسما لشخص معيّن، عكس المصادر الأخرى التي حدّدت وفاة شخص كسيلة بن لمزم بسنة 69 وبسهل ممس، كما تبيّن آنفا.

والمهم أن أغلب تلك المصادر تفيد أن زهيرا بعدما قتَل كسيلة وطارد الفارين، ممن كانوا معه، وفَتَح بعض القلاع، ومنها " شقّبناريه "، دخل القيروان[4] فأوطنها[5] ثم "ترهّب... بعدها"[6] ورأى" بإفريقية رفاهة العيش "[7] و " مُلكا عظيما "[8] فأبى أو خاف أن يقيم بها وقال: " إنما قدمت للجهاد ولم أقدِم لحب الدّنيا "[9] أو قال: " إنّي قدمت

1 نفس المصدر، ص 76
2 المغرب، ص 50.
3 ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، علّق عليه ووضح حواشيه خليل منصور، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1418هـ/1997م، جــ.2، ص 232-233.
4 المالكي: رياض، 30؛ وشقّنارية هي مدينة (Sicca vancria) التي صارت تعرف، فيما ، بالكف (نفسه، هامش5)
5 ابن عذاري: البيان،1، 32.
6 ابن خلدون: العبر، 6، 218.
7 المالكي: رياض،1، 30.
8 نفسه؛ الرقيق القيرواني: المصدر السابق، ص 52؛ ابن الأثير: الكامل،3، 453؛ ابن عذاري: البيا، 1، 32.
9 نفسه.

إلى الجهاد وأخافُ أن تميل بي الدنيا فأُهلك، ولست أرضى بملكها ورغد عيشها "[1] أو " ... أخاف أن أميل إلى الدنيا فأُهلَك ".[2]

وكان زهير " عابداً وزاهدا "[3] أو " من رؤساء العابدين وكبراء الزاهدين "[4] وقد حاول " رؤساء أصحابه "[5] إقناعه بالبقاء لكن دون فائدة، فترك الكثير منهم بعين المكان آمنين "لخلو البلاد من عدوّ أو ذي شوكة"[6] وعاد "في خلق عظيم"[7] إلى الشرق[8] أو " في جمع كثير إلى مصر "[9] فصادف وصوله إلى برقة قيامَ الروم بغارة عليها. ذلك أنه عندما " بلغ الرومُ بالقسطنطينية، مسيرَ زهير "[10] منها إلى إفريقية، في حملته ضد كسيلة ، "اغتنموا خُلوّها"[11] من المدافعين[12] وأخرجوا إليها أسطولا ضخما "من جزيرة صقلية"[13] فأغاروا عليها وقتلوا الكثير من سكانها "وأصابوا منها سبْياً ومن الأموال شيئا عظيما"[14] ووافق هذا الأمر عودة زهير إليها بعد انتهاء مهمته في إفريقية.

وتختلف المصادر في الحديث عن المبادرة التي اتخذها زهير عندما أحيط علما بما كان يجري هناك: إذ يذكر بعضها أنه أمر جيشه بمواصلة طريقه وأخذ هو "على ساحل البحر في عُدّة من أشراف الناس"[15] أو " في خيل كثيرة "[16] أو "يسيرة"[17]، في مهمة استطلاعية، هدفها البحث عن مكان وجود الأسرى المسلمين لاستنقاذهم ولكنه عندما أشرف على ساحل البحر رأى أعداداً كبيرة، من الروم، وهي تُدْخلهم المراكب فلما رأوه استغاثوا به وصاحوا فلم يقدر على الرجوع لأصحابه، وأمر من معه بالنزول،

---

1 قارن. الرقيق القيرواني: تاريخ، ص 52؛ ابن عذاري: البيان، 1، 32.
2 ابن الأثير: الكامل، 3، 453.
3 ابن الأثير: الكامل، 3، 453؛ En- Noweiri : op.cit., p.337
4 الرقيق القيرواني: تاريخ، ص 52؛ ابن عذاري: البيان، 1، ص 32-33.
5 المالكي: رياض، 1، 30.
6 ابن الأثير: الكامل، 3، 453.
7 الرقيق القيرواني: تاريخ، ص 52.
8 المالكي: رياض، 1، 30؛ الرقيق القيرواني: تاريخ، ص 52؛ ابن عذاري: البيان، 1، 33؛ En- Noweiri: op.cit., p.338
9 ابن الأثير: الكامل، 3، 453.
10 ابن الأثير: الكامل، 3، 453؛ En- Noweiri : op.cit., p.338
11 نفسه.
12 En- Noweiri : op.cit., p.338
13 ابن الأثير : الكامل، 3، 453؛ En- Noweiri . op.cit., p.338
14 الرقيق القيرواني: تاريخ، ص 52.
15 تاريخ، ص 53.
16 المالكي: رياض، 1، 31.
17 الدباغ وابن ناجي: معالم، 1، 59؛ هذا التعبير أسلم لأنّ معناه ينسجم مع سياق الكلام.

ونزل الروم إليه، بدورهم، واشتبك الطرفان في معركة حامية الوطيس، قُتل فيها زهير وجميع من معه[1] أو قتلوا جميعا " ولم يخلص منهم سوى رجل واحد ".[2]

ويذكر البعض الآخر من المصادر أنه، عندما أحيط علما بالموضوع "توجّه إليهم في جريدة خيل فلقيهم فاستشهد ومن معه"[3] ومازالت قبورهم هناك تدعى بقبور الشهداء[4] أو " أمر عسكره بالمسير إلى الساحل "[5] وبمعنى آخر "رحل هو ومن معه"[6] بحثا عن العدو ولما أطلّ عليه، اكتشف تفوّقه العددي، لكنه لم يستطع تفادي الصدام به بسبب صراخ الأسرى المسلمين، واستغاثتهم بإخوانهم، وكان هؤلاء الإخوان " من أشراف العابدين ورؤساء العرب المجاهدين، أكثرهم من التابعين "[7] قتلوا جميعا إلى جانب قائدهم.[8]

وتبدو الرواية الأخيرة أقرب إلى الصواب، خاصة إذا ما أخذ بعين الاعتبار ما ذكره كلٌّ من المالكي وابن الأثير، من محاولة رؤساء أصحابه إقناعه بالبقاء، وأنه لما عاد ترك الكثير منهم في عين المكان[9] مما يستنتج منه أن العدد الذي كان معه من أصحابه، حتى وإن وصفته بعض المصادر بـ " خلق عظيم "[10] أو بـ " جمع كثير "[11] لم يكن كافيا بالقدر الذي يجعله قادرا على التصدي للبيزنطيين في غارتهم تلك. أمّا ما قيل من ابتعاده عن جيشه، في عدد قليل من أصحابه، أوفى جريدة خيل، بحثا عن العدوّ ففوجئ بكثرته واضطر إلى الاشتباك معه فقتل، إنّما تُشتمّ فيه رائحة خلق ظروف مماثلة للظروف التي استشهد فيها صاحبه عقبة ويكون قصدُ الإخباريين، من وراء ذلك، التقريب الكبير، بين القائدين، لوضعهما في قائمة واحدة من قوائم الشهداء.

1 الرقيق القيرواني: تاريخ، ص 53.
2 المالكي: رياض، 1، ص 31؛ الدباغ وابن ناجي: معالم، 1، 59.
3 البلاذري: فتوح البلدان، 1، 270.
4 نفسه.
5 ابن عذاري: البيان، 1، 33.
6 ابن الأثير: الكامل، 3، 453.
7 ابن عذاري: البيان، 1، 33.
8 نفسه؛ ابن الأثير: الكامل، 3، 454؛ En- Noweiri : op cit., p. 338
9 أنظر. رياض، 1، 30؛ الكامل، 3، 453.
10 الرقيق القيرواني: تاريخ، ص 52.
11 ابن الأثير: الكامل، 3، 453.

وأكمل الروم، بعد ذلك، شحن سفنهم بـ " الخيل والسلاح والسَّبْيَ وما أصابوه من برقة"[1] وأبحروا في اتجاه القسطنطينية[2]، ومضى المسلمون إلى دمشق وأخبروا الخليفة عبد الملك بن مروان بما جرى "فعظم ذلك عليه لفضل زهير ودينه"[3]. واشتدّ الخبر عليه وعلى المسلمين فكانت مصيبة به و "بأصحابه، مثل المصيبة بعقبة بن نافع وأصحابه".[4] ويحصر ابن الأثير تاريخ انطلاق حملة زهير، من برقه ضد كسيلة بالقيروان، ثُمَّ عودته إليها، وقتله، في سنة واحدة، هي سنة 69هـ/688-689م وهذا ينسجم مع العرض الذي قدّمته أغلب المصادر عن الأحداث التي عرفتها المنطقة، آنذاك، عكس ما ذكره ابن عبد الحكم من أن زهير بن قيس كان، على مقدّمة جيش حسان بن النعمان، عندما قدم واليا على المغرب، من قبل عبد الملك بن مروان سنة 73هـ/692[5]-693م أي أن زهيرا، حسب هذه المعلومات لم يقتل في برقة، قبل تولية حسّان على المغرب، كما جاء في أغلب مصادر المغرب، بل بعد تلك الولاية، أي بعد عودة حسان إلى المشرق سنة 76هـ 695-696م أو 78هـ/697-698م، وعيّن، أثناء تلك العودة، إبراهيم بن النصراني على خراج برقة قبل أن يمضي إلى مصر فإلى دمشق.[6]

وبعد ذلك أغار الروم "على أنطابلس (برقة) فهرب إبراهيم بن النصراني... فرأسوها أربعين ليلة حتى أسرعوا فيها الفساد. وبلغ ذلك عبد العزيز بن مروان فأرسل إلى زهير بن قيس. وكان خرج مع حسان (إلى المشرق)، فلما بلغ مصر أقام بها، فأمره عبد العزيز بالنهوض إلى الروم. ولم يجتمع لزهير من أصحابه إلا سبعون رجلا... وكان عبد العزيز عاتبا ... (عليه) لأنه كان قَاتَلَهُ حين وجّهه أبوه، مروان بن الحكم من ناحية أيلة، من قبل أن يدخل مصر... فخرج (زهير) حتى إذا كان بدَرْنه من طبرق، من أرض أنطابلس، لقي الروم، وهو في سبعين رجلا فتوقف ليلحق به الناس، فقال له فتًى شابٌ كان معه: جَبُنْت يازهير. فقال: ما جبنتُ يابن أخي ولكن قتلتني وقتلت نفسك، فلقيهم فاستشهد زهير وأصحابه جميعا... سنة ست وسبعين (76هـ/ 695-696م)."[7]

1 الرقيق القيرواني: تاريخ، ص 53. أنظر أيضا المالكي: رياض، 1، 31؛ ابن الأثير: الكامل،3، 454؛ En- Noweiri : op.cit., p .338
2 الرقيق: نفس المصدر، ص 53؛ ابن الأثير: الكامل،3، 454؛ En- Noweiri : op.cit., p .338
3 ابن عذاري: البيان،1، 33.
4 المالكي: رياض،1، 31؛أنظر ابن عذاري: البيان،1، 33.
5 فتوح إفريقية والأندلس، ص 76.
6 ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص 80.
7 نفسه.

وكان بأملس، من برية برقة، رجل من مذحج يقال له عطية بن يربوع، خرج بابنٍ له، هاربا من الوباء، وكان في تلك البريّة جماعة من المسلمين، فاستغاث بهم وركب فيمن حوله من الناس فاجتمع إليه سبعمائة رجل، فزحف بهم إلى الروم فقاتلهم وهزمهم وأجبرهم على الاعتصام بسفنهم والهروب بها.[1]

والملاحظ أنه يصعب " دمج هذه الرواية في سياق الأحداث التي عالجها المؤرخون الآخرون، وخاصة المغاربة منهم، والتي كان زهير بن قيس بَطَلَها ببلاد المغرب، مما يدفع إلى التفكير بأن الأحداث المشار إليها هُنا، إن كانت حدثت بالفعل، وفي نفس التاريخ المعلن، لا بدّ وأن يكون بطلها قائدا آخر يحمل اسم " زهير " أو "زهير بن قيس" مما أدّى إلى وقوع لُبس، لابن عبد الحكم أو المصدر الذي نقل عنه معلوماته فراح يخلط بينهما.

6.2- دور حسّان بن النعمان في فتح بلاد المغرب:

على الرغم من تأثّر الخليفة بخبر مقتل زهير وأصحابه، فإنه لم يستطع تلبية طلب " أشراف المسلمين "[2] أو "أشراف العرب"[3] بأن " ينظر إلى إفريقية مَنْ يسُد ثغرها، ويصلح أمرها "[4] أو أن " ينظر إلى أهل إفريقية ويؤمنهم من عدوّهم، ويبعث الجيُوش إليهم "[5] بسبب انشغاله بثورة بن الزبير فلم يفعل شيئا إلاّ بعد إخمادها وقتل زعيمها، وعندئذ اختار لتلك المهمة حسان بن النعمان الغسّاني[6] واسمه الكامل " حسان بن النعمان بن عديّ بن بكر بن مغيث بن عمرو مزيقيا بن عامر الأزدي"[7] لكنه اشتهر باسم حسان بن النعمان الغساني.

وكان حسان هذا "عامله على مصر"[8] فبعث يأمره "أن يخرج إلى جهاد إفريقية"[9] وبعث له مدداً يقدره المالكي بـ "ستة آلاف"[10] رجل ويعتبره ابن الأثير " جيشا كثيرا"[11]

---

1 ابن عبد الحكم، نفس المصدر، ص 80-81.
2 المالكي: رياض،1، 31؛ الرقيق القيرواني: تاريخ، ص 53.
3 ابن عذاري: البيان، 1، 33.
4 الرقيق القيرواني: تاريخ، ص 54؛ ابن عذاري: البيان،1، 33.
5 المالكي: رياض،1، 31.
6 ابن الأثير: الكامل،4، 135؛ En- Noweiri : op.cit., p.338
7 البكري: المُغرب، ص 38.
8 ابن خلدون: العبر،6، 218.
9 نفسه.
10 رياض،1، 31.
11 الكامل، 4، 135؛ ابن عذاري: البيان، 1، 34.

ويلاحظ أنه لم " يدخل إفريقية جيش مثله "[1] ويتفق كل من النويري وابن عذاري على أن الخليفة " قدمه على عسكر فيه أربعون ألفا: أقامه أوّلا في مصر... عُدَّة لما يحدث، ثم كتب إليه يأمره بالنهوض إلى إفريقية...".[2]

ويتضح من مقارنة بين معلومات مختلف المصادر، هنا، أن عبد الملك بن مروان أرسل لعامله على مصر مددا من الشام يقدر بستة آلاف رجل وطلب منه تجنيد أكبر عدد ممكن من الناس بعين المكان. بدليل أنه بعث يقول له: " إنّي أطلقت يدك في أموال مصر، فأعط من معك ومن ورد عليك. وأعط الناس، واخرج إلى بلاد إفريقية..."[3] وهذه السياسة هي التي جعلت عدد المجنّدين يرتفع إلى أربعين ألفا، وهو رقم لم يدخل أفريقية، قبل ذلك، مثله فعلا.

وتختلف المصادر في تحديد تاريخ خروج حسّان من مصر إلى إفريقية: فمنها من جعل حدوثه سنة 57هـ 676-677م في خلافة معاوية، فصالحه البربر وضرب عليهم الخراج وبقي عليهم إلى خلافة يزيد بن معاوية[4] ومنها من جعله في المحرم من سنة 68هـ/687-688م[5] ومنهم من جعله سنة 69هـ 688-689م[6] وهناك من جعله سنة 73هـ/692-693م[7]. وهناك من جعله 74هـ 693-694م[8]. وهناك من جعله 78هـ/697-698م[9] ويبدو أن رقم 74... هو أقرب إلى الصواب ما دام إرسال حسان إلى المغرب، تمّ بعد مقتل عبد الله بن الزبير الذي كان سنة 73هـ 692م[10] وأن الخليفة الأموي التفت بعد ذلك مباشرة، كما تبيّن، وعيّن عامله حسّانا على إفريقية بعد خمس سنوات من مقتل زهير بن قيس ببرقة.

---

1 نفسه.

2 Conquête, p.338؛ البيان، 1، 34.

3 Ibid, pp.338-339؛ نفسه.

4 ابن تغري بردي: النجوم، 1، 149

5 البكري: المغرب، ص 7.

6 المالكي: رياض، 1، 31؛ النويري نقلا عن دي سلان: Conquête. p 339؛ ابن خلدون: العبر، 6، 218؛ مع ملاحظة أن هناك خطأ في نص ابن خلدون عملت على تصحيحه: إذ يذكر أن هذا الزحف حدث سنة 79هـ وفيه تلقى حسان هزيمة على يد الكاهنة فانسحب وأقام بقصوره من عمل طرابلس وعادت الكاهنة إلى مكانها فسيطرت على إفريقية مدة خمس سنوات ثم بعث عبد الملك إلى حسان بالمدد فرجع إليها سنة 74هـ 693-694م (العبر، 6، 218-219) فإذا ما حُذفت خمس سنوات من أربع وسبعين فإن الناتج يكون تسعا وستين (69) وهو الرقم الذي يمثل تاريخ حملته الأولى على إفريقية، وعلى هذا الأساس تم تصحيحه بتغييره من 79 إلى 69.

7 ابن عبد الحكم: فتوح، ص 76.

8 ابن الأثير: الكامل، 4، 135.

9 ابن عذاري: البيان، 1، 34.

10 أنظر. H. Fournel : les Berbers, Paris 1875, T.1, p.204

ويعتبر المالكي حسّانا " أوّل من دخل إفريقية من أهل الشام، في زمن بني أمية" ويقصد أوّل قائد أو أوّل وال لإفريقية، أصله من الشام، فحل بالقيروان وسأل " أهل إفريقية " عن أعظم الملوك بها قدراً "[1] قيل له " صاحب قرطاجنة، دار ملكها..."[2] وهي مدينة كبيرة، لم تفتح بعدُ ولم يتمكن عقبة منها[3] أو " لم يكن المسلمون قد حاربوها"[4]. ويُلاَحَظُ أن هذه المعلومة تتناقض مع المعلومة التي أوردها أبو المحاسن ابن تغري بردي عن غزوة أبي المهاجر لها سنة 55هـ.[5] والمعلومة التي أوردها ابن عذاري عن زحف عقبة عليها، وهو في طريقه إلى المغرب الأقصى سنة 62 أو 63هـ[6] فإذا أُخذت هاتان المعلومتان بعين الاعتبار يكون من الصواب، إذاً، القول: إن المسلمين لم يقوموا بعمليات جدّية ضدّها، ولم يتمكنوا منها حتى ذلك الوقت.

أ- نشاط حسان في قرطاجة:

توجه حسّان من القيروان إلى قرطاجنة (قرطاجة) الواقعة على مائة ميل وميل (101)"[7] منها وهي " على شاطىء البحر (و) تسمّى ترشيش "[8] على بعد اثني عشر ميلا من مدينة تونس[9] التي أسست بعد ذلك بقليل ، وقد ذكر المالكي أيضا أنه كان في بلد صاحبها " من الروم ما لا يعلمه إلاّ الله تعالى..."[10] وأن حسّانا عندما نزل عليها " ضيّق عليهم وتواقف القوم، واقتتلوا، فقتل رجالهم وفرسانهم واجتمع رأى الروم... فعبروا إلى "صقلية" وإلى الأندلس، فدخلها... فسباها، وغنم ما فيها وأرسل إلى ما حولها من العمران... ، فأمرهم بهدم قرطاجنه وقطع القناه عنها".[11]

ويوافق ابنُ عذاري المالكيَ في تقدير عددِ مَن "كان بها من الروم... (بما) لا يحصى كثرة"[12] وفي فرارهم إلى صقلية والأندلس، بعدما هزمهم حسان، ويضيف قائلا " فلما

---

1 ابن عذاري: البيان،1، 34؛ أنظر المالكي: رياض،1، 31؛ En- Noweiri : op.cit., p.339

2 نفسه؛ أنظر نفسه؛ Id.

3 En- Noweiri : Ibid, p.339

4 ابن الأثير: الكامل،4، 135.

5 النجوم،1، 152.

6 البيان،1، 24.

7 المالكي: رياض،1، 31.

8 نفسه.

9 ابن عذاري: البيان، 1، 34.

10 رياض،1، 31.

11 المالكي: نفس المصدر، ص 31-32.

12 البيان، 1، 134.

انصرف عنها حسان. وعمه أهل بواديها وأقاليمها هروب الملك عنها، بادروا إليها، فدخلوها، فرحل إليهم حسان. ونزل عليها، فحاصرها حصارا شديدا حتى دخلها بالسيف، فقتلهم قتلا ذريعا. وسباهم ونهبهم، وأرسل لمن حواليها... فلما أتوه... أمَرَهُم... فخربوها حتى صارت كأمس الغابر"[1] أي أن ما قام به حسان، حسب هذا المصدر، من قتل وسبي ونهب. لم يحدث ضد سكان قرطاجة الأصليين وإنما حدث ضد أهل " بواديها وأقاليمها " الذين خالفوه إليها ليمنعهم، ولا شك، من التحصّن بها وتشكيل قوة قادرة على خلق صعوبات له وللمسلمين في المستقبل، ويُفترض أن يكون هؤلاء من الروم أو الإفرنج ومن المتعاطفين معهم والمتأثرين بحضارتهم من البربر، وهذا شيء مقبول منطقيا. ولكن هناك أسئلة تَفرض نفسها على المتأمل في نص ابن عذاري وهي: ما هُويَة " مَنْ حوالي قرطاجة" هؤلاء الذين أرسل إليهم حسّان وأوكل لهم مهمة تخريبها؟ وهل تختلف عن هُوية من دخلوها؟ وإذا كان الجواب بنعم، فهل يمكن القول إنهم من البربر. غير المتأثرين بحضارة الروم والإفرنج وغير المتعاطفين معهم؟

قد تَكْمُن بعض الإجابة عن هذا السؤال. فيما أوردهُ ابن الأثير، من أن حساناً، عندما وصل قرطاجة. " رأى بها الروم والبربر ما لا يحصى كثرة "[2]. مع الإشارة إلى أن ابن الأثير ينفرد بذكر اسم البربر إلى جانب اسم الروم، ضمن سكان تلك المدينة، وفيما عدا ذلك، فإن ما قدّمه من معلومات. متعلقة بنشاط حسان الحربي فيها، لا تختلف عن المعلومات التي قدّمها النُّويري إلا في الأسلوب. مثله في ذلك مثل النويري[3]، وإذا (تمّ) التسليم بوجود البربر. جنبا إلى جنب. مع الروم والإفرنج، داخل المدينة، فلا بدّ من التسليم بوجودهم خارجها. ولا يستبعد أن يكون من بين هؤلاء مَنْ هم ليْسوا متعاطفين معهم، وليس هناك ما يحفّزهم على مغامرة الدخول إليها، وخَطرُ المسلمين مُحدِقٌ بها، بل قد لا يكون لديهم مانع من مدِّ يد المساعدة إلى هؤلاء، خاصة إذا ما طلبوا منهم شيئا سهلا مثل القيام بعملية تخريب المدينة.

ويكتفي ابن خلدون. الذي لا يتعرّض لتفاصيل ما جرى في قرطاجة: من قتال وتخريب، بالإشارة إلى أن حسانا. عندما غزا قرطاجنة (قرطاجة)، "افتتحها عنوة، وذهب مَن كان بقي بها من الإفرنجة إلى صقلية وإلى الأندلس"[4] ويخالف ابن خلدون،

---

1 نفس المصدر، ص 35.

2 الكامل، 4، 135.

3 أنظر. نفسه؛ En- Noweiri : op.cit., p.339

4 العبر، 6، 218.

فيما أورده هنا، غيره في نقطتين: في استعماله مصطلح " الإفرنجة " بدلا عن مصطلح " الروم " الذي استعمله غيرَه أولاً، مع العلم أنه استخدم في مكان آخر المصطلحين جنبا إلى جنب[1]، وفي قوله و "ذهب مَن كان بقي بها" ثانيا، وهو يلتقي في هذه النقطة، بالذات، مع ابن عبد الحكم في قوله بأن حسانا وصل إلى قرطاجنة، وفيها الروم و "لم يصب فيها إلاّ قليلا من ضعفائهم".[2] فهل يعني هذا أن غالبية الإفرنج أو الروم أو كليهما فرّوا من المدينة قبل وصول المسلمين إليها؟ وما مبرّر التخريب الذي تعرضت له إذاً؟ أهو مجرّد احتياط يَحُول دون تفكير العدوّ في استرجاعها، مستقبلا، وخلق مشاكل لهم فيها أو انطلاقا منها؟

من الصعب الإجابة على هذه الأسئلة، والمهم أنه قد بلغ حسانا بعد ذلك أن "الروم"[3] أو النصارى[4] " اجتمعوا عليه و "أمدّهم البربر"[5] بعسكر عظيم[6] في بلاد صطفورة أو بلغه أن " الروم والبربر قد اجتمعوا له في صطفورة وبنزرة وهما مدينتان"[7] فقصدهم واشتبك معهم " ولقي منهم شدّة وقوّة فصبر لهم المسلمون "[8] وأصيب منهم " رجال كثيرون "[9]، غير أن النصر في النهاية كان حليفه فقتل منهم الكثير و " حمل بأعنّة الخيل عليهم "[10] فلم يترك من بلادهم موضعاً إلاّ وطئه[11] وأخضع المسلمون كل القلاع التي حاصروها[12] و " خاف أهل إفريقية خوفا شديدا "[13]، ولجأ " الروم "[14] أو "المنهزمون من الروم"[15] إلى مدينة باجة فتحصنوا بها و " هرب البربر إلى إقليم بونة"[16] أو تحصّنوا " بمدينة بونة ".[17]

---

1 العبر، 7، 17.

2 فتوح، ص 7.

3 المالكي: رياض، 1، 32.

4 ابن عذاري: البيان، 1، 35.

5 نفسه؛ المالكي: رياض، 1، 32.

6 نفسه.

7 ابن الأثير: الكامل، 4، 135؛ En- Noweiri . op.cit., p.339

8 نفسه.

9 المالكي: رياض، 1، 32

10 نفسه.

11 المالكي: المصدر السابق، ص 32؛ ابن عذاري: البيان، 1، 35؛ ابن الأثير: الكامل، 4، 135.

12 En- Noweiri : op.cit., p.339

13 ابن الأثير: الكامل، 4، 135؛ En- Noweiri : op.cit. p.339

14 المالكي: رياض، 1، 32. ابن عذاري: البيان، 1، 35.

15 ابن الأثير: الكامل، 4، 135؛ En- Noweiri : Conquête, p.339

16 المالكي: رياض، 1، 32؛ ابن عذاري: البيان، 1، 35.

17 ابن الأثير: الكامل، 4، 135؛ En- Noweiri : Conquête, p.339

ويختلف المالكي. بعد ذلك، مع بقية المصادر في القول بأن حساناً " جعل دار الصناعة"[1] واحتفر البحر وأخرقه إليها " ثم انصرف إلى مدينة القيروان فأقام بها حتى برئت جراح أصحابه"[2] ويقول ابن الأثير بأنه " عاد... إلى القيروان، لأن الجراح قد كثرت في أصحابه. فأقام بها حتى صحوا"[3] ويبرّر النويري تلك العودة بالرّاحة "ليستريح ويريح جيشه"[4] في حين يكتفي ابن عذاري بالقول " وانصرف حسّان إلى القيروان"[5] دون ذكر أي مبرّر لذلك.

وعند المقارنة بين معلومات مختلف المصادر، يتضح أن ما ذكره المالكي، عن بناء دار الصناعة وإخْراقِ البحر إليها، لا ينسجم مع ما ذُكر عن جراح الجنود وراحتهم: ذلك أن عمليتي بناء تلك الدار وخرق ذلك البحر تتطلبان وقتا طويلا، في حين أن عمليتي علاج الجراح وراحة الجند مستعجلتان جدًّا، ولهذا فإن المنطق السليم يقضي أن تُعطى لهما الأولوية المطلقة. وبالتالي فإن الكلام في موضوع دار الصناعة، وحفر البحر لا مجال له هنا، إلاّ إذا تصوّرنا أن حسانا قسّم جيشه إلى فريقين اثنين، وكلّف أحدهما بالبناء والثاني بالحرب. وهذا ممكن لأن تعداد جيشه (40.000) يسمح له بذلك لكن المصادر لا تشير إليه إطلاقا. وهذا الطرح يتفق، إلى حدّ بعيد، مع ما قالهُ المالكي نفسه في مكان آخر.

ومفاده أن حساناً، بعدما انتصر على الكاهنة، عاد إلى القيروان وجدّد مسجدهُ سنة 84هـ/703-704م. ثم رحل يريد قرطاجنة عن طريق طُنْبُدة حيث وجّه " أبا صالح" مولاه إلى قلعة " زغوان " فقاتل أهلها ثلاثة أيام، فلم يقدر عليهم، فترك حسّان عسكره بطُنْبُدة، والتحق به في خيل مجردة. فافتتحها ثم عاد إلى مكانه، ومنه سار إلى قرطاجنة " فنزل [بفحص تونس] بموضع دار الصناعة... فخرج إليه أهل قرطاجنة فحاربوه حربا شديدة فهزمهم... فلما رأت الروم... أنهم لا قوام لهم به سألوه الصلح وأن يضع عليهم الخراج فأجابهم إلى ذلك، وأدخلوا ثقلهم في مراكب كانت عندهم، معدة في البحر، وهربوا من..." باب النساء " في الليل، وتركوا المدينة خالية... ونزلوا بجريرة صقلية وبعضهم بالأندلس فدخلها حسان فأخربها وأحرقها وبنى بها مسجداً "[6]

---

1 رياض، 1، 32.

2 نفسه.

3 الكامل، 4، 135.

4 Conquête, p 339

5 البيان، 1، 35.

6 رياض، 1، 37؛ معالم الإيمان، 1، 67-68.

ثم عاد إلى القيروان فاستقرّ بها و " عمرها المسلمون... وولّى... على صدقات الناس والسعي عليهم " حنش ابن عبد الله الصنعاني..."[1] قبل أن يرحل إلى عبد الملك بن مروان بالسبي والغنائم والأموال.[2]

والمالكي، في كلامه هذا، يشير عَرَضاً، إلى أن حساناً " هو الذي أخرق البحر وجعل... دار صناعة فأخرج إليها الماء، وأجراه من البحر إليها "[3] لكنه لم يشر إلى تاريخ تحقيق هذه الانجازات، وكأنه أراد تفادي تكرار ما سبق وأنْ قاله، بمناسبة حديثة عن حملة حسان الأولى على قرطاجنة، ولم يشر أيضا إلى سبب أو أسباب قيامه بحملته تلك على قرطاجنة: مِثْلُهُ في ذلك مثل البكري الذي يتفق معه، في وصف تفاصيل تلك المعركة ونتائجها، ويضيف إليها: أن مرناق، صاحب المدينة المذكورة، مَكَر بالقائد العربي، بعد فرار الروم عنها ولم يبق معه " إلاّ أهله [فـ] بعث إلى حسّان: هل لك أن تُعاهدَني وولدي وتقطع لي قطائع أشترطها عليك، وأفتح لك باباً فتدخل المدينة على من فيها فأجابه إلى مسئلته فاشترط عليه المنازل التي... يقال لها فحص مرناق، وهي إذْ ذاك ثلاث مائة و ستون قرية، ثم فتح لهم الباب... فتمّم له حسان ما اشترطه وانصرف إلى القيروان "[4] وبمعنى آخر فإن حساناً لم ينتبه إلى فرار الروم مِنْ داخل قرطاجة إلاّ بعد دخولها عن طريق المفاوضات، مع صاحبها مرناق، غير أن ما يتفق في شأنه المصدران السابقان، من تخريب المدينة وحرقها، إلى جانب بناء مسجد بها، لَيَدْعو إلى نوعٍ من الحيرة، إذ المراد من التخريب والحرق هو الإخلاء في حين أن المراد من البناء هو التعمير، فهل قام حسان، فعلاً، بتنفيذ العمليتين المتناقضتين في آن واحد؟

يصعب تصديق هذه الفكرة إلاّ في حالة واحدة هي: ألاّ يكون التهديم والحرق قد أتيا على كل منشآت المدينة، بل يكونان قد مسَّا فقط جوانب رآها حسان آنذاك مُضرّة لمن يقيم فيها من المسلمين، ومفيدة لمن يغزوها من أعدائهم؛ أمّا تلك التي لا يضر المسلمين ولا ينفع أعداءهم شيءٌ من بقائها، فما فائدة إتلافها؟ أَلِمجرّد روح انتقامية؟ ومِمّن يكون هذا الانتقام، طالما فرّ أعداؤه عنها وتركوها له؟ أمن الحكمة أن يكلّف الإنسان العاقل نفسه عناء الإتلاف والبناء، في آن واحد، بدلا عن استغلال المتروك الجاهز؟ مع العلم أن البكري لم يتعرض، في حديثه عن هذا الموضوع، إلى نقطة

1 المالكي: رياض،ا، 38.
2 نفسه.
3 المصدر السابق، ص 37.
4 المغرب، ص 37.

انطلاق حملة حسان على قرطاجة ولا إلى تاريخها، مثل ما فعل المالكي، ويقول: إنه وصل "إلى أرضة فقتل الروم بفحص تونس"[1] في حين يقول المالكي: إنه " نزل [بفحص تونس] بموضع دار الصناعة... فخرج إليه أهل قرطاجنة فحاربوه..."[2] ولم يربط البكري. على عكس المالكي، أيّة علاقة بين حسان و بين دار الصناعة بل يسند بناءها إلى وال آخر. هو عبيد الله بن الحبحاب، وذلك سنة 114هـ/732-733م[3]، أي بعد ذلك بكثير؛ ولم يذكر المالكي. أخيرا، زحفاً ثانيا لحسان على قرطاجة، انطلاقا من القيروان، بعد رجوعه لأخير إليها. بل يتحدث عن توجّهه، بعدئذ، إلى عبد الملك بن مروان، في حين أن البكري يتكلم عن خروجه إليها، مرّة أخرى، لّما بلغه أن الروم " أغارت... من البحر على من كان بقي من المسلمين بمدينة تونس، خرجت إليهم في المراكب، فقتلوا من بها وسبوا وغنموا ولم يكن للمسلمين شيء يحصنهم من عدوّهم، إنما كانوا معسكرين هناك "[4] ولم يشر البكري إلى أي قتال يكون قد نشب بينه وبينهم ولم يحدد أي تاريخ لقيام تلك الحملة.

والنتيجة التي يمكن استخلاصها. مما قاله المالكي والبكري، أن كليهما تحدث عن زحف حسّان مرّتين. على قرطاجنّة: ويحدّد الأول إحداهما، بعد وصوله القيروان، أوّل مرّة مباشرة. ويجعل سببه محاولة السيطرة على الأوضاع بإفريقية، ويحمّل حسان مسؤولية إنشاء دار الصناعة هناك. ويحدّد الثانية سنة 84هـ/703-704م أو بعدها بقليل، مباشرة بعد انتصاره على الكاهنة. وسيطرته على الأوضاع بتلك المنطقة، ولا يتعرض فيها للأسباب التي جعلته يقوم بتلك العملية العسكرية؛ أمّا الثاني فلم يحدّد مكان ولا زمان ولا سبب انطلاق أولاهما لكنّه يلتقي في الحديث عن بعض وقائعها، في سرده لوقائع حملته الثانية. ويجعل القيروان مكانا لانطلاقها، وغارة الروم على المسلمين بمدينة تونس، سببا لها. دون التطرّق إلى أي حديث عن أيّة مواجهة تكون قد حدثت بين المسلمين والروم فيها. مع الإشارة إلى أن ابن أبي دينار يتردّد في تحميل مسؤولية فتح تونس، مرّة، إلى زهير بن قيس، ومرّة أخرى، إلى حسّان بن النعمان ثم ينقل عن ابن

1 المغرب، 37.
2 رياض، 1، 37.
3 المغرب، ص 37.
4 نفس المصدر، ص 37-38.

الشباط قوله " لعلّ الفتح كان مرّتين "[1] ويقصد بتونس، ولا شك، قرطاجة، طالما أن الأولى لم تكن قد أسّست آنذاك، بعدُ.

وقد يوحي التمعّن الجيّد في هذه المعطيات المختلفة أن المالكي والبكري، بصفة خاصة، وغيرهم أيضا تحدثوا عن شيء واحد من جوانب مختلفة ومتكاملة يمكن، عند إدماجها وحلحلتها، أن يُستخرج منها سيناريو جديد، تُرسم فيه الخطوط العريضة لتسلسل الأحداث التي وقعت بين حسان بن النعمان وبين الرم بقرطاجنة (قرطاجة)، حسب الترتيب المتمثل فيما يلي: قيام حسان بن النعمان بحملته الأولى على قرطاجة، بعد حلوله بالقيروان مباشرة، لغرض السيطرة على الأوضاع بكامل إفريقية، ولما هزم أهلها بضواحيها، غادروها على ظهر سفنهم إلى صقلية والأندلس، فدخلها حسان، ونهب ما بقي فيها، ولما غادرها إلى صطفورة، لمجابهة من تجمّع ضده، من الروم والبربر، دخلها سكان بواديها وأقاليمها وتحصنوا بها فعاد إليهم وقاتلهم حتى هزمهم واستعان بسكان ضواحيها في تخريب بعضِ منشآتها ثم عاد إلى القيروان، بعد ترك حامية فيما صار يعرف بعد ذلك بتونس، كلفها بالشروع في بناء دار صناعة وشق البحر إليها.

ثم انشغل حسان، بعد ذلك، بحرب الكاهنة، فلم يلتفت إلى أمر الساحل الشمالي من ولايته إلاّ بعد انتصاره عليها واستقراره بالقيروان، عندها علم بقيام الروم بغارة بحرية " على من كان بقي من المسلمين بمدينة تونس " أحدثت خسائر فادحة في صفوفهم، فسار إليها، وكان الأمر قد انتهى وهذا ما يستنتج من قول البكري " فرحل (حسان) إلى تونس وأرسل أربعين رجلا، من أشراف العرب إلى عبد الملك بن مروان، وكتب إليه بما نال المسلمين من البلاء، وأقام هناك مرابطا ينتظر رأي عبد الملك..."[2] وفي هذا الأمر يتفق البكري مع الرقيق القيرواني الذي كتب في هذا المعنى نصًا فيه كلمات عديدة مأروضة مما أدّى إلى خلل في معناه لكن مقارنته بنص البكري تسمح بتعويضها بكل سهولة ويصبح معناه مستقيما، هكذا: " ومات عبد الملك بن مروان بدمشق سنة ست وثمانين، وولي بعده، ابنه الوليد بن عبد الملك. [وكان الروم] أغاروا على مرسى رادس، فقتلوا من بها وسبوا وغنموا، [فبلغ حسان ذلك] فركب إليها، وقد بلغ من المسلمين أمرها كلّ مبلغ [فكتب حسان إلى] الوليد بن عبد الملك يعرّفه بذلك، وبعث

1 المونس، ص 35.
2 المغرب، ص 38.

إليه منها أربعين رجلا من أشراف العرب، وأقام حسان بن النعمان في رادس مرابطا حتى يأتيه أمر الوليد".[1]

والنصان لا يختلفان إلا في شيء واحد هو تحديد تاريخ وقوع تلك الغارة: فبينما يجعله البكري في عهد عبد الملك، يُرجعه الرقيق القيرواني إلى ما بعد وفاته سنة 86هـ/705-706م أي إلى عهد ابنه الوليد؛ أمّا استخدام أحدهما لتسمية " مدينة تونس " بدل استخدام الآخر تسمية " مرسى رادس " فلا فرق في معناهما ما دام " اسم مدينة تونس الأول ترشيش ويقال لبحرها بحر رادس و... مرساها مرسى رادس ".[2] ويتشابه نصّا البكري والرقيق فيما ورد بهما. بعد ذلك، باستثناء اختلافهما في اسمي الخليفتين: عبد الملك بن مروان أو ابنه الوليد بن عبد الملك، وتفاصيل أخرى لغوية أكثر منها تاريخية.

إذ يتفقان على أنه لما بلغ خبر تلك الغارة " عبد الملك " " كتب... إلى أخيه عبد العزيز، وهو " والي مصر "[3] أو " لما ورد الخبر إلى الوليد بن عبد الملك، بعث إلى عمه عبد العزيز بن مروان. وهو على مصر وإفريقية "[4] وأمره أن يوجّه "ألف قبطيّ بأهله"[5] أو " ألف قبطيّ وألف قبطية "[6] وأن يحملهم من مصر إلى إفريقية " ويحسن عونهم حتى يصلوا إلى ترشيش. وهي تونس"[7] و " أمره أن يخرق البحر إلى تونس، وأن يجعل بها دار صناعة "[8] أو كتب إلى ابن النعمان يأمره أن يبني لهم دار صناعة تكون قوّة وعدّة للمسلمين إلى آخر الدهر. وأن يجعل على البربر جرّ الخشب لإنشاء المراكب ليكون ذلك جريا عليهم إلى آخر الدهر"[9] وأن يصنع المراكب " ويستكثر منها "[10] ويجاهد الروم في البرّ والبحر ويغير على سواحلهم حتى يشغلهم عن التحرّش بالمسلمين.[11]

1 تاريخ إفريقية والمغرب، ص 65
2 البكري: المغرب، ص 37.
3 البكري: المصدر السابق، ص 38
4 الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب. ص 65-66.
5 البكري المغرب، 38.
6 الرقيق القيرواني: تاريخ، 66
7 البكري المغرب، 38.
8 الرقيق القيرواني: تاريخ،66.
9 البكري: المغرب 38.
10 الرقيق القيرواني: تاريخ،66.
11 البكري: المغرب 38؛ الرقيق القيرواني: تاريخ 66.

والملاحظ أن نص الرقيق القيرواني يتوقف عند إعطاء هذا القدر من المعلومات، لينتقل إلى موضوع آخر، هو الحديث عن عزل عبد العزيز بن مروان لحسان؛ أمّا البكري فيواصل كلامه قائلا: " فوصل القبط إلى حسان، وهو مقيم بتونس، فأجرا البحر من مرسى رادس إلى دار الصناعة، وجرّ البربر الخشب، وجعل فيها المراكب الكثيرة، وأمر القبط بعمارتها"[1] مع العلم أن البكري نسب، في مكان آخر، بناء " دار الصناعة بمدينة تونس" إلى عبيد الله بن الحجاب سنة 114هـ/732-733م[2]، وفي هذا، كما يبدو، تناقض واضح حاول البكري تفادي الوقوع فيه بقوله" وقد تقدم أن عبيد الله ابن الحجاب بنى دار الصناعة، فلعل من روى ذلك يريد أن عبيد الله جدّدها وزادها تحصينا "[3] غير أن ما يمكن استنباطه، عند التمعن في هذه المعلومات، أن ما يبدو تناقضا فيها، ما هو في الحقيقة إلاّ تكامل، لأن مشروعا ضخما كهذا لا تكفي، لإنجازه، فترة قصيرة تمتد لبضع سنوات، تغطي مدّة ولاية شخص واحد على إفريقية، بل لا بُدّ وأن تمتد عدّة فترات تشمل ولايات عدة أشخاص، خاصة إذاَ ما أُخذت بعين الاعتبار الوسائل التي كانت متوفرة آنذاك، وبالتالي فإنّه بالإمكان تصور أن بداية إنجاز دار الصناعة، وشق البحر إليها وما يتطلبه ذلك من مرافق، بدأ في ولاية حسّان بن النعمان، مباشرة بعد قيامه بحملته الأولى على قرطاجة ولم يكتمل إلاّ في ولاية عبيد الله بن الحجاب، ويعزّز هذا الافتراض أيضا ما ذكره ابن قتيبة من أن موسى بن نصير أَمَر، بعد شهر شوال من سنة 84هـ/703-704م، " بدار صناعة تونس، وجرّ البحر إليها، فعظّم عليه الناس ذلك، وقالوا له: هذا أمر لا نطيقه، فقام إلى موسى رجل من مسالمة البربر، ممن حسن إسلامه، فقال له: أيها الأمير... إن أبي قد حدّثني أن صاحب قرطاجنة لما أراد بناء قناتها، أتاه الناس يعظّمون عليه ذلك فقام إليه رجل قال له: أيها الملك: إنك إن وضعت يدك بلغت منها حاجتك، فإن الملوك لا يعجزها شيء بقوّتها وقدرتها، فضع يدك أيها الأمير، فإن الله تعالى سيعينك على مانَوَيْت..."[4] وأعجب موسى كلامُ هذا الشيخ، " فوضع يده، فبنى دار صناعة بتونس وجرّ البحر إليها مسيرة اثني عشرة ميلا، حتى أقحمه دار الصناعة، فصارت مشتى للمراكب، إذا هبت الأنواء والأرياح. ثم أمر بصناعة مئة مركب فأقام بقية سنة أربع وثمانين ".[5]

---

1 المغرب، ص 38-39.

2 المغرب، ص 37.

3 المغرب، ص 39.

4 الإمامة والسياسة،2،234.

5 نفسه.

وقد بعث عبد العزيز بن مروان سفنا من مصر، لغزو سردانية بقيادة عطاء ابن أبي نافع الهذلي فسار بهم " حتى أتى جزيرة يقال لها سلسلة و... أصاب فيها غنائم كثيرة ثم انصرف قافلا. فأصابته ريح عاصف، فغرق عطاء وأصحابه، وأصيب الناس، ووقعوا بسواحل إفريقية. فلما بلغ ذلك موسى، وجه يزيد بن مسروق، في خيل إلى سواحل البحر، يفتش عمن يلقي البحر من سفن عطاء وأصحابه... ثم إن موسى أمر بتلك المراكب، ومن نجا من النواتية، فأدخلهم دار الصناعة بتونس، ثم لما كانت سنة خمس وثمانين (85هـ 704-705م) أمر الناس بالتأهب لركوب البحر... ثم... دعا برمح فعقده لعبد الله ابنه، وولاه عليهم... فسميت غزوة الأشراف ".[1]

ويلخص ابن أبي دينار القيرواني كلام ابن قتيبة، فيذكر أنه " قيل إن موسى هو الذي خرق البحر إلى تونس وبنى دار الصناعة وصنع بها مائة مركب وغزا صقلية ".[2]

ويستنتج من كلام ابن قتيبة وابن أبي دينار هنا أن ابن نصير تردّد كثيرا قبل أن يمضي في استكمال المشروع الذي بدأه حسان قبله لكنه أقدم عليه، في نهاية الأمر، بعد استشارة أصحاب الخبرة في مجال إنجاز مثل هذه المشاريع الضخمة من البربر المسلمين، وعمل على توفير كل الامكانيات المادية لإنجاحه، بما في ذلك، المزيد من الاستفادة بالتقنية المصرية. في مجال الصناعة البحرية والملاحة، وقد تكون غزوة الأشراف التي قام بها أسطوله على جزيرة صقلية[3] عبارة عن تجربة قام بها لاختبار مدى نجاح هذه الصناعة ومع ذلك فإن أمورا متعلقة بها. لا بدّ وأن يكون انجازها تخلف إلى عهد عبيد الله بن الحجاب، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

ب- المواجهة بين حسان بن النعمان والكاهنة:

لم يبق حسان مكتوف الأيدي، عندما كان أصحابه يستريحون ويعالجون جراحهم التي أصيبوا بها في مواجهة الروم و البربر بصطفورة وبنزرت، بل راح يجمع ما أمكن من معلومات، عن أكبر قوة في المنطقة يمكنها أن تخلق مشاكل للمسلمين وتهدّد وجودهم، فعلم أن هناك امرأة تسمى الكاهنة، في جبل أوراس، و "هي... ملكة البربر"[4] أو تملكهم[5] وجميع من بإفريقية منها خائفون[6] " والروم "[7] أو " البربر "[8] لها

1 نفس المصدر، ص 234-235
2 المؤنس، ص 35-36.
3 نفس المصدر، ص 235.
4 ابن عبد الحكم: فتوح، 76.
5 ابن الأثير: الكامل، 4، 135؛ En –Noweiri op.cit , p.340
6 المالكي: رياض، 1، 32؛ الرقيق القيرواني: تاريخ، ص 55؛ ابن عذاري: البيان، 1، 35.
7 نفسه.
8 الرقيق القيرواني: تاريخ، ص 55؛ ابن عذاري: البيان، 1، 35.

مطيعون، وقيل له: "إنْ قتلتها لم تختلف البربر بعدها عليك"[1] أو " إن قتلتها يئس البربر والروم بعدها أن يكون لهم ملجأ... فيدين لك المغرب كلّهُ "[2] ولم" يبق لك مضادّ ولا معاند".[3]

ويحتاج إلقاء الضوء على شخصية الكاهنة هذه، إلى الرجوع لما قاله ابن خلدون عن المرحلة التي أعقبت قفول زهير بن قيس البلوي إلى المشرق، وقتله ببرقة سنة 69هـ/688-689م، بعدئذ، حسب رأيه " اضطرمت إفريقية نارا، وافترق أمر البربر، وتعدّد سلطانهم في رؤسائهم، وكان من أعظمهم شأنا يومئذ الكاهنة، دُهيا بنت ماتية ابن تيفان، ملكة جبل أوراس وقومها من جراوة، ملوك البتر وزعماؤهم".[4]

ويذكر نفس المؤلف، في مكان آخر، أن جراوة هؤلاء هم " أمّة من البربر، بإفريقية والمغرب، في قوّة وكثرة... وكانوا يعطون الإفرنجة طاعة معروفة، وملك الضواحي كلها لهم، وعليهم مظاهرة الإفرنجة مهما احتاجوا إليهم، ولما أطلّ المسلمون... للفتح ظاهروا جرجير... حتى قتله المسلمون، وانفضت جموعهم... و... بعدها...كانت غزواتهم لكل أمة من البربرفي ناحيتها...مع من تحيّز إليهم من قبل الإفرنجة"[5]، وبعد قتل عقبة بالزاب " اجتمعت البربر على كسيلة، كبير أورية"[6] وبعد قتل هذا الأخير " افترقت رئاسة البربر في شعوبهم، وكانت زناتة أعظم قبائل البربر...، وكان موطن جراوة منهم بجبل أوراس، ... وكانت رئاستهم للكاهنة".[7]

والحصيلة التي يمكن استخلاصها، من كلام ابن خلدون هنا، أنّ دهيا بنت ماتية ابن تيفان، المعروفة بالكاهنة، كانت على رأس قبيلة جراوة المنتشرة في جبل أوراس، وهي فرع من أعظم قبائل البربرألا وهي زناتة البترية، وكانت جراوة منضوية تحت لواء كسيلة، وبعد مقتله استقلت بها الكاهنة، على غرار ما فعله بقية رؤساء القبائل بقبائلهم، وقد تكون سيطرتها امتدت إلى قبائل أخرى، وهذا ما يبرّر قول كلّ من ابن الأثير والنويري"وقد اجتمع حولها البربر بعد قتل كسيلة"[8] ومعنى كلمة "البربر" هنا

---

1 ابن الأثير: الكامل،4، 135؛ En –Noweiri · op.cit., p.340
2 الرقيق القيرواني: تاريخ، ص 55؛ قارن. المالكي: رياض،1، 32؛ ابن عذاري: البيان،1، 35.
3 البيان،1، 35.
4 العبر،6، 218.
5 نفس المصدر،7، 16.
6 ابن خلدون: نفس المصدر، ص 17.
7 نفسه.
8 الكامل، 4، 135؛ En- Noweiri . op.cit , p.340

يشمل، كما هو واضح، أكثر من قبيلة "جراوة" وهذا يوافق ما أعلن عنه ابن خلدون، من انضمام بني " يفرن وما كان بإفريقية من قبائل زناتة وسائر البتر"[1] إليها ولا يُستبعد كذلك أن تكون بعض الفروع البرنسية قد دخلت تحت لوائها، ويمكن تصوّر ذلك إذا تمّ التسليم بما قاله ابن خلدون بأن "البربر" ومِن بينهم قبيلة "جراوة"، كما يستنتج ذلك من سياق كلامه، اجتمعوا على كسيلة، والمعروف أن كسيلة هو رئيس قبيلة أورية البرنسية، ومِن ثمَّ يسهل التسليم أيضا بفكرة انضمام بعض فروعِ البرانس إلى "البربر" الذين اجتمعوا حول الكاهنة، بعد مقتل كسيلة، وهذا ما مكّنها، ولا شك، من السيطرة " على جلّ إفريقية " على حدّ تعبير ابن عبد الحكم.[2]

وكان لدُهيا بنت ماتية " بنون ثلاثة ورثوا رئاسة قومهم عن سلفهم، وربوا في حجرها، فاستبدّت عليهم وعلى قومها بهم، وبما كانَ لها من الكهانة والمعرفة بغيب أحوالهم وعواقب أمورهم"[3] وهذا ما جعل الناس يلقّبونها بالكاهنة[4] وهذا أيضا ما جعل رئاسة قومها تنتهي إليها، وتستمر مدّة الخمس والثلاثين سنة الأخيرة من عمرها الذي امتدّ مائة وسبعا وعشرين عاما، حسب ما ذكره ابن خلدون.[5]

ويرجع هذا الأخير سبب زحف حسان على الكاهنة إلى ما لعبته من دور في قتل عقبة بن نافع، وذلك "بإغراء برابرة تهودا عليه، وكان المسلمون يعرفون ذلك منها"[6] ولم تواتهم فرصة الانقضاض عليها إلاّ بعد " ما انقضى جمع البربر، وقتل كسيلة "[7] غير أن كلام ابن خلدون في هذه النقطة لا يبدو مقنعا، لأنه لو كان الأمر كذلك لجعل المسلمون مواجهتها من أولوياتهم، ولكان زهير بن قيس قصدها مباشرة، بعد قضائه على كسيلة وملاحقة أصحابه إلى نهر ملوية، مرورا بالأوراس، ولَمَا كان سبب عودته مسرعا إلى المشرق، حسب ما أعلنه شخصياً، هو انتهاؤه من المهمة التي قدم من أجلها، وهي "الجهاد"، وتُجمع أغلب المصادر على أن حسّانا، بعدما جمع ما أمكنه من معلومات عنها، انطلق بجيشه صوب الأوراس، مرورا بمدينة مجّانة التي تحصّن الروم

---

1 العبر، 7، 18.
2 فتوح، 76.
3 ابن خلدون: العبر، 7، 17.
4 ابن الأثير: الكامل، 4، 135.
5 العبر، 7، 17.
6 ابن خلدون: نفس المصدر، ص 18.
7 نفسه.

بقلعتها، دون أن يتعرّض لهم.[1] ولما علمت الكاهنة بتقدّمه نحوها خرجت من معتصمها بجبل أوراس قاصدة مدينة " باغاية " فأخرجت " من بها "[2] أو " أخرجت منها الروم "[3] و"هدّمتها"[4] أو "هدّمت حصنها"[5] ظنّا منها أن حسانا "يريد حصنها [يتحصّن به]"[6] أو " يريد مدينة ليتحصن بها منها"[7] أو " يريد الحصون"[8] وكفى.

ويبلغ حسّاناً خبرُ ما فعلته الكاهنة، فواصل طريقه إلى أن "نزل بوادي مسكيانة"[9] أو "نهر نيني"[10] أو "وادي مكناسة"[11] في "البسيط (السهل) أمام جبلها"[12] وهناك، التحقت به الكاهنة[13] " أو أنّه، عندما رجعت إليه، سار حتى "خرج بين الفجّ والشعراء، ونزل على النهر الذي يسمى بلسان البربر" بلي "ورحلت الكاهنة حتى نزلت على هذا النهر"[14] أو أنه عندما قيل له أنّها " قد أقبلت في عدد لا يحصى... قال لهم: " دلّوني على [ماء] يسع العسكر الذي أنا فيه" فمالوا به إلى نهر فنزل عليه".[15]

ومهما كان النهر أو الوادي الذي نزل عليه الطرفان، فإن المصادر تتفق على القول بأن حسانا وأصحابه، كانوا يشربون من أعلاه وكانت الكاهنة ورجالها يشربون من أسفله. فلمّا دنا بعضهم من بعض وتوقفت الخيل أَبَى حسان أن يقاتلهم " آخر النهار "[16] أو "بالليل"[17] وألاّ يفعل " إلاّ أوّل النهار "[18] وبات الفريقان ليلتهم على سروجهم.

---

1 المالكي: رياض، 1، 32؛ الرقيق القيرواني: تاريخ، 55.
2 نفسه.
3 الرقيق القيرواني: تاريخ، ص 55؛ ابن عذاري: البيان، 1، ص 35-36.
4 المالكي: رياض، 1، 32؛ البيان، 1، 36.
5 الرقيق القيرواني: تاريخ، 54؛ ابن الأثير: الكامل، 135؛ En- Noweiri : op.cit., p.340
6 نفسه؛ المالكي: رياض، 1، 32.
7 البيان، 1، 36.
8 ابن الأثير: الكامل، 4، 135؛ En- Noweiri : op.cit., p.340
9 الرقيق القيرواني: تاريخ، ص 56؛ ابن عذاري: البيان، 1، 36؛ ابن خلدون: العبر، 6، 218.
10 ابن خلدون: العبر، 7، 18.
11 ابن الأثير: الكامل، 4، 136؛ ابن خلدون: العبر، 6، 218؛ En- Noweiri : Conquête, 340
12 الرقيق: تاريخ، ص 33.
13 ابن الأثير: الكامل، 4، 136؛ ابن خلدون: العبر، 6، 218؛ En- Noweiri : Enquète, 340
14 الرقيق القيرواني: تاريخ، ص 56.
15 المالكي: رياض، 1، 33.
16 ابن عذاري: البيان، 1، 36.
17 المالكي: رياض، 1، 33.
18 الرقيق القيرواني: تاريخ، ص 56.

وفي الصباح اصطدم الطرفان، في معركة طاحنة "عظم فيها البلاء... وانهزم حسّان بعد بلاء عظيم"[1]، وقتل من أصحابه عدد كبير "وأُسر جماعة كثيرة"[2] منهم، تقدّر بعض المصادر عددها بثمانين رجلا[3] أو ثمانين " من أعيان أصحابه "[4] ويسجل المالكي رقم ثمانين لكنه يرجّح رقما آخر هو ثمانية[5]، ولا يشير ابن خلدون إلاّ إلى أسر رجل واحد، هو "خالد بن يزيد القيسي"[6] أو العبَسي[7] وهو الرّجل الذي تعده بقية المصادر من بين بقية الأسرى.[8] و "سُميَ ذلك اليوم يوم البلاء"[9] وسُمي الوادي الذي وقعت عليه المعركة "... وادي العذارى "[10] ويُسمَّى أيضا "نهر البلاء"[11] وهو يقع على ثمانية عشر ميلا من باغاية.[12]

وطاردت الكاهنة حسانا بعد هزيمته "حتى خرج من عمل قابس"[13] أو "من حدّ قابس"[14] أو "حتى فارق إفريقية"[15] ومن الصعب تصديق ما ذكره ابن عبد الحكم بأنه "استخلف على إفريقية أبا صالح"[16] في تلك الظروف بل إن المنطق يقتضي أن يكون قد "أسلمها" كلية إلى الكاهنة كما يتفق على ذلك كل من الرقيق القيرواني والمالكي.[17]

فما دامت ملاحقته تمت إلى ما بعد عمل قابس، فكيف يمكن تصور قائد يستخلف إنسانا على منطقة هُزم فيها وطرُد منها؟ فممّا لا شك فيه أن ابن عبد الحكم أخلط بين هذا الخروج الاضطراري لحسان، والذي لم يكن يشغل باله فيه من بقي من أصحابه، بعيدا عن خطر الكاهنة وبين الخروج الثاني الذي قصد فيه مقر الخلافة

---

1 المالكي: رياض،1، 33.

2 ابن الأثير: الكامل،4، 136، En – Noweiri : op.cit., p.340

3 ابن عبد الحكم: فتوح، ص 76، تاريخ إفريقية والمغرب، ص 57؛ البيان،1، 36.

4 ابن عذاري: البيان،1، 36.

5 المالكي: رياض،1، 33.

6 العبر،6، 218.

7 ابن عبد الحكم: فتو ح، 76.

8 نفسه؛ الرقيق القيرواني؛ تاريخ، ص57؛ البيان،1، 37؛ الكامل،4، 137.

9 ابن عبد الحكم: فتوح ، ص 76؛ الرقيق القيرواني: تاريخ، ص 57؛ ابن عذاري : البيان، 1، 37؛ ابن الأثير: الكامل، 4، 137؛ لبكري: المغرب، 8.

10 المالكي: رياض،1، 33؛ الرقيق القيرواني، تاريخ، ص 57؛ ابن عبد الحكم: فتوح، ص 76.

11 الرقيق: تاريخ، ص 57؛ ابن عذاري: البيان،1، 36.

12 نفسه.

13 الرقيق القيرواني: تاريخ،57؛ ابن عذاري: البيان،1، 36؛ ابن خلدون: العبر، 6، 218.

14 المالكي: رياض،1، 33.

15 ابن الأثير: الكامل،4، 136؛ En- Noweiri . op.cit., p.340؛ ابن خلدون: العبر،7، 18؛ ينفرد البكري في جعل " أرض قابس " مكانا لوقوع المعركة بين حسّان وبين " عساكر الكاهنة... وعلى مقدّمتها القائد الذي كان مع كسيلة..."

16 فتوح، ص 76.

17 أنظر. تاريخ إفريقية والمغرب، ص 57؛ رياض، 1، 33.

بدمشق، والذي كان بعد انتصاره على الكاهنة وقتلها، كما سيأتي ذكره، وهنا يكون لديه الوقت الكافي للتفكير فيمن يستخلفه على القيران وآنذاك يكون قد استخلف أبا صالح عليها فعلا.

وبعد توقف المطاردة، كتب حسان إلى الخليفة عبد الملك يخبره بالهزيمة التي لحقت بجيشه ويذكر له " أن أمم المغرب ليس لها غاية، ولا يقف أحدٌ منها على نهاية؛ كلما بادت أمّة، خلفتها أمم؛ وهي من الجهل والكثرة كسائمة الغنم"[1] وراح حسّان بعد ذلك " يرفق في سيره، طمعاً فيمن نجا من أصحابه "[2] و " لحق... بعمل طرابلس"[3] ثم أقام طمعا أن يلحق به من أفلت "[4] منهم ولما كان بمكان ما، من عمل برقة، ورد عليه جواب الخليفة يأمره فيه بالإقامة حيثما وافاه الجواب، ولا يبرحه إلا بأمر منه ففعل. و "نزل قصوراً في حيز برقة"[5] أو بنى "قصراً لنفسه وأقام بذلك الموضع هو ومن معه"[6] أو أن عبد الملك " كتب إليه... أن يقيم بمكانه فبنى هناك قصرين..."[7] أو أن الجواب " ورد عليه في عمل برقة فأقام بها وبنى هناك قصورا "[8] أو أن الكتاب لقيه "بعمل طرابلس... فأقام وبنى قصوره"[9] أو "بنى وأقام بالموضع الذي لقيه فيه الكتاب"[10]، وعلى كلّ فإن المصادر جميعها تتفق على تسمية ذلك المكان، منذ تلك الإقامة بقصور حسان، "يضمها قصر سقوفة أزاج".[11]

وباستثناء المالكي الذي يحدّد مدّة بقاء حسان ومن معه هناك بـ " ثلاث سنين "[12] فإن بقية المصادر تمدّدها إلى خَمس[13] ملكت فيها " الكاهنة إفريقية كلها "[14] أو "المغرب كلّه"[15] أو " قامت في سلطان إفريقية والبربر "[16]، وتتفق المصادر على القول بأنها أحسنت، أثناء ذلك إلى أسراها المسلمين وأطلقت سراحهم جميعا إلاّ واحداً من " بني عبس يقال له خالد بن

---

1 ابن عذاري: البيان، 1، 36.
2 المالكي: رياض،1، 32.
3 ابن خلدون: العبر، 6، ص 218-219.
4 الرقيق القيرواني: تاريخ، ص 57.
5 ابن عبد الحكم: فتوح، ص 76.
6 المالكي: رياض،1، 33.
7 البكري: المغرب، ص 8.
8 ابن عذاري: البيان،1، 36.
9 ابن خلدون: العبر،6، ص 218-219.
10 الرقيق القيرواني: تاريخ، ص 57.
11 المغرب، ص 7-8.
12 البلاذري: فتوح البلدان،1، 270.
13 رياض،1، 33.
14 الرقيق القيرواني: المصدر السابق، 57؛ ابن الأثير: الكامل،4، 136؛ ابن عذاري: البيان،1، 36؛ ابن خلدون: العبر، 6، 219؛ En- Noweiri : Conquête e, p.340
15 المالكي: رياض،1، 33؛ ابن الأثير: الكامل،4، 136، En- Noweiri Conquête 340 .
16 ابن خلدون: العبر،6، 219.

يزيد "[1] أو " خالد بن يزيد القَيْسي "[2] أو " يزيد بن خالد القيسي "[3] وكان "شريفا شجاعا[4] كما كان " أَذْكَرَ مَن... مع حسان "[5] فحبسته عندها[6] أو أقام معها[7] وقالت له، ذات يوم، " ما رأيت من الرجال أجمل منك ولا أشجع! وأنا أريد أن أرضعك فتكون أخاً لولدَيّ! ".[8]

وكان لها ولدان " أحدهما " قويدر " والآخر " يمين "."[9] " أحدهما بربريّ والآخر يوناني"[10] فعمدت " إلى دقيق الشعير، فلتّته بزيت وجعلته على ثديَيْها، ودعت ولديها وقالت لهما: " كولا معه على ثديي" "[11] فلما أكل ثلاثتُهم هذا الذي يسميه " البربر... " البسيسة "[12] قالت لهم: " قد صرتم إخوة! "[13] وشرحت لخالد أن البربر إذا فعلوا مثل هذا الرَّضاع يتوارثون به[14]، وكان البربر في جاهليتهم، إذا فعلوا ذلك، اعتبروه " من أعظم العهد "[15] فالكاهنة إذاً "اتّخذت عهداً عند أسيرها خالد" ، حسب تعبير ابن خلدون[16] بل تبنّته[17] أي " اتخذته ولداً "[18] لها .

وقد استغَلّ حسان فرصة وجود خالد مع الكاهنة لمحاولة الحصول على معلومات عنها، عسى أن يستفيد منها قبل أن يصطدم بها، بمجرد أن توافَدت عليه فرسان العرب ورجالها " من قبل... عبد الملك "[19]، فأرسل إليه رجلا من ثقاته ليقول له على لسانه: "ما لك لا تُكاتِبُنا بخبر الكاهنة؟"[20] أو " ما يمنعك من الكتاب إلينا[21] بخبرها؟" أو أرسله " بكتاب يستعلم منه الأمور ".[22]

---

1 ابن عبد الحكم: فتوح، 76.
2 ابن الأثير: الكامل، 4، 136؛ En- Noweiri : op.cit., p.340؛ ابن خلدون: العبر، 6، 218؛ البكري، المغرب، 8.
3 الرقيق القيرواني: تاريخ، ص 58؛ المالكي: رياض، 1، 33.
4 ابن الأثير: الكامل، 4، 136؛ En- Noweiri : op.cit., p.340
5 المالكي: رياض، 1، 33-34.
6 نفس المصدر، ص 34؛ الرقيق القيرواني: المصدر السابق، ص 58؛ ابن عذاري: البيان، 1، 37.
7 ابن عبد الحكم: فتوح ، ص 76.
8 الرقيق القيرواني: تاريخ، 58؛ ابن عذاري: البيان، 1، 37.
9 نفسه.
10 ابن عذاري: البيان، 1، 37.
11 الرقيق القيرواني: تاريخ، ص 58-59؛ قارن البيان ، 1، 37.
12 المالكي: رياض، 1، 34.
13 ابن عذاري: البيان، 1، 37؛ قارن الرقيق القيرواني: تاريخ، ص 59؛ المالكي: رياض، 1، 34.
14 الرقيق القيرواني: تاريخ، ص 58-59؛ قارن البيان، 1، 37.
15 المالكي: الرياض، 1، 34.
16 العبر، 6، 219.
17 ابن عبد الحكم: فتوح، ص 76
18 ابن الأثير: الكامل، 4، 136؛ En- Noweiri : Conquête 340
19 ابن عذاري: البيان، 1، 37.
20 المالكي: رياض، 1، 34.
21 ابن عبد الحكم: فتوح ، 76 و 78.
22 ابن الأثير: الكامل، 4، 134.

فلما تلقى خالد كتاب أميره قرأه، و " كتب في ظهره "[1] أو كتب له " جوابه في رقعة "[2] أو "كتابا"[3] أو " خطَابا[4] "جعله" في خبزة ملة "[5] أو في "ملّة"[6] أو "في خبزة "[7] قد أنضجها[8] ثم دفعها إلى الرسول ليظن من رآها انه زاده، فسار حتى وصل بها إلى حسان فوجد في ذلك الجواب " ما يحتاج إليه "[9] من " خبر الكاهنة، ويقول في آخره: وإذا وقفت على الكتاب فاطوِ المراحل، فإن الأمر لك، ولست أسلمك إن شاء الله تعالى"[10] أو أنه بعث إليه في ذلك الجواب " يعرّفه تفرّق البربر ويأمره بالسرعة"[11] أو كَتَبَ يقول له: إن البربر متفرّقون، لا نظام لهم ولا رأي عندهم! فاطوِ المراحل، وجدّ في السّير! "[12]، غير أن حسّانا لم يتمكن من قراءة ما كتب له لأن النار قد أفسدته أو أحرقته.[13]

وتتفق بعض المصادر في القول بأن خالداً أرسل إلى حسان كتابا آخر جعله في قربوسٍ حَفَرهُ أو نَقَرهُ ثم وَضَعه وأطبقه عليه، حتى مستوى مكان الحفر وخَفي[14] ولكنها لم تشر إلى ما إذا كان حامل هذه الرسالة هو نفس الشخص أم هو شخص آخر.

ومما أفاد به الرقيق القيرواني في هذا الموضوع: أن حسانا طلب من رسوله إلى خالد العودة إليه لكنّ الرسول تردّد قائلا: " إني أخاف الموت، فإن الكاهنة لا يخفى عليها شيء من هذا".[15] فطمأنه بتجهيزه مكان سرّي للغاية و " عمد إلى قربوس سرجه، فنقر فيه وأدخل الكتاب، وسدّ عليه بشمع، ومضى الرجل حتى أتى [ابن] يزيد، فدخل إليه وعرّفه أن الأول أحرقته النّار فردّجوا به ووضعه في قربوس سرجه ومضى".[16]

---

1 الرقيق القيرواني، تاريخ،59؛ ابن عذاري: البيان،1، 37.
2 ابن الأثير: الكامل،4، 136.
3 ابن عبد الحكم: فتوح، ص 78.
4 المالكي: رياض،1، 34.
5 ابن عبد الحكم: فتوح ، ص 78.
6 المالكي: رياض، 34،1.
7 ابن الأثير: الكامل،4، 136؛ ابن عذاري: البيان، 1، 37.
8 المالكي: رياض،1، 34.
9 ابن عبد الحكم فتوح، ص 78.
10 المالكي: رياض،1، 34، هامش 4.
11 ابن الأثير: الكامل، 4، 136.
12 ابن عذاري: البيان،1، 37؛ قارن الرقيق القيرواني: تاريخ، ص 59-60.
13 ابن الأثير: الكامل،4، 136؛ ابن عذاري: البيان،1، 37؛ الرقيق القيرواني: تاريخ، 60.
14 ابن عبد الحكم فتوح ، ص 78؛ المالكي رياض،1، 34؛ هامش 4؛ ابن الأثير: الكامل،4، 136.
15 تاريخ إفريقية والمغرب، ص 60.
16 نفس المصدر، ص 60-61.

ويذكر ابن عذاري أن الرسول رفض طلب حسان بالرجوع إلى خالد بحجة أنّ: "المرأة كاهنة: لا يخفى عليها شيء من هذا".[1] وكانت الكاهنة، خرجت، بعد مراسلة خالد لحسان في خبزه، وهي تقول: " يابني هَلاَكُكم فيما تأكله الناس"[2] أو " فيما يأكل الناس"[3] مكرّرة ذلك" ثلاث مرات "[4] أو خرجت " ناشرة شعرها، تضرب صدرها، وتقول: " ويلكم مضى ملككم فيما يأكله الناس! "[5] أو " يا ويلكم! يا معشر البربر! ذهب ملككم فيما يأكله الناس!"[6] أو " ذهب ملكهم فيما يأكل الناس"[7] وافترق رجالها، في كل الاتجاهات، يطلبون الرجل لكنه أفلت من قبضتهم ووصل سالما إلى حسان[8]، وهذا، إن حدث فعلا، كاف لتبرير خوف الرجل وامتناعه عن تكرار محاولته. خاصة إذا كان الناس يعتقدون بأنها " من أعلم أهل زمانها بالكهانة " كما يقول المالكي[9] أو ربّما يكون هذا ما جعلهم يعتقدون أنها كذلك. ويصعب على العقل، بطبيعة الحال، أن يتوقف عند هذه القضايا التي تخرج عن مجال تصوّره.

لكن الامتناع الذي يشير إليه ابن عذاري، هنا، لا يمكن الجزم به ما دامت أغلب المصادر تتحدث عن رسالة ثانية بعث بها خالد إلى حسان في قربوس سرج، كما تقدّم، وتضيف بأن الكاهنة خرجت، بعد ذلك مباشرة، وهي تقول: " يا بني هلاككم في شيء من نبات الأرض ميت"[10] أو خرجت ناشرة شعرها " وهي تقول: يا بني، قدْنَا هلاككم في شيء من نبات الأرض، وهو بين خشبتين "[11] أو تنادي: "ذهب ملككم في شيء من نبات الأرض، وهو بين فرجين".[12]

وقد ملكت الكاهنة إفريقية، بعد هزيمة حسان، خمس سنين، لاحظت خلالها أن العرب أبطأوا عنها[13]. وبلغها، أثناءها، أن حسانا "مقيم بقصوره، لا يبرح"[14].

---

1 ابن عذاري البيان،1، 37.
2 ابن عبد الحكم: فتوح، ص 78
3 المالكي: رياض،1، 34.
4 نفسه.
5 الرقيق القيرواني: تاريخ، ص 60.
6 ابن عذاري: البيان،1، 37.
7 ابن الأثير: الكامل،4، 136.
8 أنظر. الرقيق القيرواني: تاريخ،60؛ المالكي: رياض،1، 34، هامش 4، ابن عذاري: البيان،1، 37؛ ابن الأثير: الكامل،4، 136.
9 رياض،1 ، 34؛ هامش 4.
10 ابن عبد الحكم: فتوح، ص 78.
11 المالكي: رياض،1، 34؛ معالم الإيمان،1، 64
12 الرقيق القيرواني: تاريخ، ص 61.
13 الرقيق القيرواني: تاريخ، ص 61.
14 المالكي: رياض،1 ، 34، هامش 4؛ معالم الإيمان، 1، 64.

فقالت "للبربر"[1] أو " للبربر والروم "[2] إن العرب "إنما يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضّة، ونحن إنّما نطلب منها المزارع والمراعي، فما نرى لكم إلاّ خراب إفريقية حتى ييأسوا منها، ويقلّ طمعهم فيها"[3]. أو أنها قالت مثل هذا الكلام عندما "علمت بمسير حسّان إليها"[4] وفرّقت رجالها للقيام بتلك المهمة: فخرّبوا البلاد وهدّموا الحصون ونهبوا الأموال " وهذا هو الخراب الأول لإفريقية "[5]، التي كانت، حتى ذلك الوقت، من طرابلس إلى طنجة " ظلا واحداً في قرى متصلة "[6]، أو " ظلا واحداً متصلة الشجر".[7]

وفي هذا السّياق يمكن وضع ما ذكره ابن الأثير، نقلا عن الواقدي، من أن "الكاهنة خرجت غضبا لقتل كسيلة، وملكت إفريقية جميعا، وعملت بأهلها الأفاعيل القبيحة، وظلمتهم الظلم الشنيع، ونال مَن بالقيروان مِنَ المسلمين أذى شديد، بعد قتل زهير بن قيس سنة سبع وستين (67هـ/686-687م) فاستعمل عبد الملك على إفريقية حسّان بن النعمان، فسار في جيوش كثيرة، وقصد الكاهنة، فاقتتلوا وانهزم المسلمون... وعاد حسّان... إلى نواحي برقة سنة أربع وسبعين (74هـ/ 693-694م)...".[8]

وهذه معلومات مشابهة للّتي أوردها البكري، دون أن يذكر مصدره، وتقضي أن الخليفة عبد الملك، استعمل على إفريقية، بعد مقتل زهير بن قيس، حسّانا " فخرج إليها في المحرّم، سنة ثمان وستين، فلقي عساكر الكاهنة بأرض قابس، وعلى مقدّمتها القائد الذي كان مع كسيلة بن لمزم، فاقتتلوا قتالا شديدا، فقتل صاحب خيل حسان... وانهزم حسان... وقتل من أصحابه عدد كثير وأسر منهم نحو ثمانين رجلا، فأحسنت الكاهنة إليهم وأطلقتهم، غير واحد هو يزيد بن خالد القيْسي "[9]، غير أن الواقدي، كما هو واضح يخلط بين تلك الأحداث بحيث يجعل تملّك الكاهنة لإفريقية سابقا لقيام حملة حسّان الأولى عليها ويبرّر ذلك التملك بالغضب لمقتل كسيلة والانتقام من المسلمين، في الفترة الواقعة ما بين تاريخ مقتل زهير سنة 67هـ، حسب رأيه، وبين قيام

---

1 الرقيق القيرواني: تاريخ،61.

2 المالكي: رياض، 1، 34؛ هامش 4؛ معالم الإيمان، 1، 64.

3 الرقيق القيرواني: تاريخ، ص 61؛ قارن. المالكي: رياض،1، 35، هامش 4 تابع؛ معالم الإيمان،1، 64.

4 ابن الأثير: الكامل،4ن 136؛ En- Noweiri : op.cit., p.341

5 ابن الأثير: الكامل،4، 136؛ قارن المالكي: رياض،1، 35، هامش 4 تابع؛ الرقيق القيرواني: تاريخ، ص 61؛ En- Noweiri : op.cit., p.18

6 ابن خلدون: العبر،6، 219.

7 المالكي: رياض،1، 35.

8 الكامل،4، 37.

9 المُغرب، ص 7-8.

حسان بحملته الثانية سنة 74هـ انطلاقا من برقة ؛ كما أن هناك خلطا واضحا في كلام البكري أيضا، عمّا وقع آنذاك، من أحداث المعركتين: الأولى والثانية، بين الكاهنة وبين حسان.

والذي يمكن الإحتفاظ به، فيما ورد هنا، هو ما تكون الكاهنة قد ألحقته بأهل إفريقية، ومنهم المسلمون، من ظلم وأذى، وإن حدث ذلك فعلا فلا بدّ وان يكون وقته محدداً بالوقت الذي يفصل بين المعركتين اللّتين خاضهما حسّان ضد الكاهنة: المعركة التي هزمته فيها، وطردته من إفريقية، قبل أن تسيطر عليها مدّة خمس سنوات، كما ورد في أغلب المصادر، والمعركة التي هزمها وقتلها ووضع فيها حدًّا لتلك السيطرة؛ أمّا باقي ما جاء في النصين من الأخبار المتعلقة بسبب تملكها لإفريقية ومكان وزمان وقوع تلك المعركة وفترة ذلك التملّك، فمن الصّعب أن يوجد لها أي مبرّر أو سند تاريخي.

والمهم أنه نتج عن ذلك التخريب والنهب خروج " ثلاثمائة رجل يستغيثون بحسان فيما نزل بهم "[1] في الوقت الذي وصله فيه " كتاب عبد الملك يأمره بالنهوض إلى إفريقية قبل أن تخرّ بها الكاهنة، فوافق ذلك وصول الروم إليه وقدوم رسول يزيد بن خالد (خالد بن يزيد) " فرحل صوبها " بجميع عسكره "[2] أو أن هؤلاء لَقَوه، وهو في طريقه إليها فاستغاثوا به وشكوا إليه منها[3]. فسرّه ذلك[4]. أو أن ذلك التخريب " شقّ على البربر فاستأمنوا لحسّان، فأمنهم ووجد السبيل إلى تفريق أمرها وزحف إليها".[5]

وتذكر بعض المصادر أن الكاهنة خرجت. بعد انطلاق حسّان نحوها، " ناشرة شعرها، فقالت: يا بني! أنظروا ماذا ترون في السماء، قالوا " نرى شيئا من سحاب أحمر " قالت: " لا وإلهي! ولكنها (أو ما هي إلاّ) رَهْج خيل العرب"[6] أقبلت عليكم[7] ثم قالت "لخالد بن يزيد"[8] أو "ليزيد بن خالد"[9] " إنّي إنما كنت تبنّيتك لمثل هذا اليوم، أنا مقتولة، فأوصيك بأخويك هذين خيراً، فقال خالد إنّي أخاف إن كان ما تقولين حقا

---

1 المالكي: رياض،1، 35، هامش 4 تابع؛ معالم الإيمان، 1، 64-65.

2 نفسه؛ نفسه.

3 الرقيق القيرواني: تاريخ، ص 61؛ ابن الأثير: الكامل،4، 136؛ En- Noweiri : op.cit., p.341

4 ابن الأثير: الكامل،4، 36.

5 ابن خلدون: العبر،6، 219.

6 ابن عبد الحكم: فتوح ، ص 78؛ المالكي: رياض،1، ص 34؛ وهامش 4 تابع، ص 35؛ معالم الإيمان،1، 65.

7 المالكي: نفس المصدر، ص 34.

8 ابن عبد الحكم: فتوح ، ص 78.

9 المالكي: رياض،1، 34؛ معالم الإيمان،1، 65.

ألاّ يُستبقيا، قالت بلى، ويكون أحدهما عند العرب أعظم شأنا منه اليوم، فانطلق فخُذ لهما أمانا، فانطلق خالد (أو يزيد) فلقي حسانا فأخبره خبرها، وأخذ لابنيها أمانا، وكان مع حسان جماعة من البربر من البتر فولى عليهم... الأكبر... قرّبه".[1]

ومع أن المالكي وصاحب كتاب معالم الإيمان يتفقان مع ابن عبد الحكم في مضمون هذه المعلومات إلاّ أنهما يختلفان معه بعد ذلك، إذ يشير هو مباشرة إلى " مضيّ حسان... فلقي الكاهنة في أصل جبل فَقُتلت وعامة من معها فسُميّت بئر الكاهنة..."[2] في حين أنهما يُضيفان بأن حسانا مضى، بعد اللقاء المشار إليه بينه وبين خالد وابني الكاهنة، إلى " قابَس " حيث اشتبك بجيوشها العظيمة، فهزمها وهربت تريد " قلعة بشر"، تتحصن بها، فأصبحت القلعة لاصقة بالأرض، فقصدت جبال أوراس، ومعها صنم عظيم، من خشب كانت تعبده، يُحمل بين يديها على جمل، فتبعها حسان حتى قرب من موضعها " فلما كان اللّيل قالت الكاهنة لابنيها: " إني مقتولة، وأرى رأسي تركض به الدّواب... تَمضي به إلى المشرق من حيث تطلع الشمس... فقال لها يزيد بن خالد وولداها: " فإذا كان الأمر عندك هكذا، فارحلي له [من] البلاد " فقالت له: "وكيف ، وأنا ملكة من الملوك، والملوك لا تفرّ من الموت، فأقلّد قومي عاراً إلى آخر الدّهر" ، قالوا لها..." فما نحن صانعون؟" فقالت: " أمّا أنت يا يزيد فستنال ملكا عظيما، عند الملك الأعظم، وأمّا أولادي فسيُدركون مُلكا بإفريقية مع هذا المَلِك الذي يقتلني" ثم قالت لهم " اركبوا وأسلموا [أنفسكم] إليه" فركب يزيد... وولداها في اللّيل وتوجهوا إلى حسان...

" فلما أصبح... دخل يزيد بن خالد على حسان، وأخبره بما قالت الكاهنة... فأدخلهما في عسكره، ووكل بهما أقواماً، وقدّم [يزيد بن] خالد على أعنّة الخيل، فالتقى القوم، فانهزمت الكاهنة وقتلت عند... " بئر الكاهنة"... ويقال إنها قتلت عند " طرفة"[3] وتعجّب الناس "من خلقتها، وكانت الأترجة تجري فيما بين عجيزتها وأكتافها"[4] أو " فيما بين عجزتها[5] وأكتافها "[6] ويذكر ابن أبي دينار أن حسانا " بعث

1 ابن عبد الحكم: فتوح، ص 78؛ قارن : المالكي: رياض، 1، 35؛ معالم الإيمان، 1، 65.
2 ابن عبد الحكم، فتوح، ص 78.
3 المالكي: رياض، 1، 35-36؛ معالم الإيمان، ص 66-67.
4 رياض، 1، 36.
5 العجز: ثني العنق (معالم الإيمان، 1، 67، هامش 1).
6 معالم الإيمان، 1، 67.

برأسها إلى عبد الملك ".[1] وعند المقارنة بين كلام ابن عبد الحكم والمؤلفَيْن الأَخيرَيْن: المالكي وصاحب كتاب المعالم، يتضح أن الأول يتحدث، مرّة واحدة، عما جرى بين الكاهنة وبين خالد وابنيها، ومع أنّه لم يحاول تحديد مكان وقوع ذلك إلاّ أنه يُستنتج من سياق كلامه أنه قريب من سفح جبل أوراس (في أصل جبل) حيث قُتلت؛ أمّا الآخران فيناقضان أنفسهما. ويكرّران حديث ما جرى بين الكاهنة ويزيد ابن خالد (أو خالد بن يزيد) وبين هؤلاء وبين حسان، في مكانين مختلفين، ممّا يُضفي الشك على مصداقية كلامهما، ولحسن الحظ فإن هناك مصادر أخرى تناولت نفس الموضوع بطريقة مختلفة، دون تكرار. فذكرت أن حسانا مضى في زحفه، منذ خروجه من برقة " حتى وصل إلى قابَس، فخرج إليه أهلها، فاستأمنوا إليه فأمنهم على مال"[2]. أو " لقيه أهلها بالأموال والطاعة "[3] وكانوا، قبل ذلك، يتحصنون من كلّ أمير مرًّ بهم، " فجعل فيها عاملا"[4] أو "ولّى عليهم غلاما"[5] ثم توجه إلى قفصه، لتفادي طول طريق القيروان، " فأطاعه من بها واستولى عليها وعلى قسطيلية ونفزاوة "[6] أو أن سكان هذه المدن الثلاث " بعثوا إليه أيضا يستغيثون به من أمر الكاهنة فسرّه ذلك".[7]

وعندئذ بلغ الكاهنةَ خبرُ قدومه إليها " فرحلت من جبل أوراس تريده، في خلق عظيم"[8] وواصل هو طريقه نحوها، فلما كان الليل أحضرت ولديْها وخالد وأخبرتهم بأنها مقتولة، ورفضت اقتراح خالد بن يزيد (أو يزيد بن خالد) بالتخلي عن البلاد لعدوّها، بحجة أن الملوك لا تفرّ من الموت وطلبت منه ومن ولديها أن يركبوا ويستأمنوا إليه ففعلوا، من ليلتهم. ولما وصلوا أمّن حسان ابنيْها وأدخلها العسكر، وأمر بحفظهما ثم " قدّم [ابن] يزيد على أعنّة الخيل، وخرجت الكاهنة ناشرة شعرها فقالت: " انظروا ماذا دَهَمَكم، واعلموا لأنفسكم، فإنني مقتولة!" والتحم القتال... فانهزمت ... واتبعها حسان حتى قتلها في... بئر الكاهنة".[9]

---

1 مؤنس، ص 35.

2 الرقيق القيرواني: تاريخ ، ص 61.

3 ابن الأثير: الكامل،4، 136؛ En – Noweiri Conquête, p.341

4 نفسه.

5 En – Noweiri :Conquête, p.136

6 ابن الأثير: الكامل، 4، 136؛ Id

7 الرقيق القيرواني: تاريخ ، ص 62؛ ابن عذاري. البيان،1، 37.

8 نفسه.

9 نفس المصدر، ص 63؛ قارن ابن عذاري: البيان، 1، 38؛ ابن الأثير: الكامل، 4، 136؛ En- Noweiri, op.cit., p.341

ويقول ابن خلدون أن حسانا، بعد ما هزم جيش الكاهنة وقتلها، "اقتحم جبل أوراس عنوة، واستلحم فيه زهاء مائة ألف"[1]. ويشير أيضا إلى التحاق ابنيْها به قبل الواقعة، بناء على ما أشارت به عليهما أمّهما، "لإثارة عِلْمٍ كان لديها في ذلك من شيطانها فقبلهما حسان، وحسن إسلامهما، واستقامت طاعتهما".[2] وما يلفت الإنتباه أن ابن خلدون هنا لا يشير إلى أي دور لخالد بن يزيد (أو يزيد بن خالد) في ذلك الالتحاق، مع أنه يذكر، في مكان آخر، أن الكاهنة أسرته عندما هزمت حسّانا في معركتها الأولى معه.[3] كما أن ابن الأثير نقل عن الواقدي قوله: إن حسّانا هزم الكاهنة "وقتلها وقتل أولادها وعاد إلى القيروان، وقيل: إنّه لما قتل الكاهنة عاد من فوره إلى عبد الملك...".[4]

ثم إن "الروم والبربر... اجتمعوا على قتال حسان وقاتلوه، فهزمهم..، فخافوه واستأمنوا إليه فلم يقبل أمانهم حتى..."[5] أو أن "الروم تحزَّبوا على قتال حسان، واجتمعوا فزحفوا إليه وقاتلوه فهزمهم... فخافه البربر واستأمنوا إليه فلم يقبل أمانهم حتى..."[6] وقد ورد في كتاب الرقيق القيرواني نصا مبتورا غير مفهوم جاء فيه هكذا "كانت مع حسان جماعة من البربر... في وَلَدَيْ الكاهنة وقرّبه وأكرمه. ثم إن البربر استأمنوا إليه فلم يقبل أمانهم إلاّ..."[7] وقد اقتبس هذا النص ابن عذاري كما يلي : "وكان مع حسان جماعة من البربر استأمنوا إليه. فلم يقبل أمانهم إلاّ...".[8]

وعند المقارنة بين النصين الأخيرين يتبين أن كليهما غامض، ويتمثل غموض الأول في البَتْر المعلن عنه هكذا (...) أما غموض الثاني فهو بتر " غير معلن أدَّى إلى تناقض في معناه: فما دامت جماعة البربر، المتحدّث عنها، (كانت مع حسان) فهي إذا كانت مؤمّنة، وهذا تحصيل حاصل، فلماذا تستأمن إليه ثانية ويفرض عليها شروطا لذلك، وكأن الأمر يتعلق بقضيتين مختلفتين، وهو ما وقع فيه ابن خلدون من خطأ، فيما بعد، حيث سجل تلك الأحداث في نصين متناقضين ذكر في أولهما أن حسانا الذي

---

1 العبر، 7، 18.
2 نفسه.
3 نفس المصدر، 6، 218.
4 الكامل، 4، 137.
5 المالكي: رياض، 1، 36.
6 معالم الإيمان، 1، 67.
7 تاريخ إفريقية والمغرب، ص 64.
8 البيان، 1، 38.

استقبل ابْنيْ الكاهنة، قبل دخوله في المعركة مع أمّهما، وحَسُن إسلامهما " عقد لهما (بعد انتصاره عليها وقَتْلِها) على قومهما جَرَاوَة ومن انْضَوى إليهم بجبل أوراس."[1]، وذكر في ثانهما أنّه أمّن البربر بعد قتلها " على الإسلام والطاعة، وعلى أن يكون منهم اثنا عشر ألفا مجاهدين معه... وعقد للأكبر من ولد الكاهنة على قومهم من جراوة، وعلى جبل أوراس. "[2] والتناقض المشار إليه واضح هنا: فإمّا أن يكون حسّان قد ولّى على جراوة الأكبر من أبناء (و ليس من ابني) الكاهنة، وهو يختلف في هذه النقطة مع بقية المؤرخين الذين يذكرون لها ولديْن فقط؛ وإمّا أن يكون حسّان قد ولّي ابني الكاهنة على نفس القبيلة، وهذا ما تتفق عليه كل المصادر التي تعرضت لهذا الموضوع، فليس من المعقول إسناد وظيفة واحدة لعدة أطراف في وقت واحد.

ولا شك أن ما أوقع ابن خلدون في هذا الخطأ التاريخي هو اعتماده في نقل معلوماته على الرقيق القيرواني أو على ابن عذاري أو على كليهما معا. ومن ثمّ يكون من المفيد تكملة نصّ الرقيق وتصحيح نص ابن عذاري المقتبس عنه. ولعلّ حلّ المشكلتين معاً يكمن في الاستعانة بنصّ ثالث كتبه ابن عبد الحكم في إطار حديثه عن الأمان الذي أخذه خالد بن يزيد لابنَيْ الكاهنة من حسان، قبل وقوع المعركة مع أُمّيْهما ومفادهُ أنه " كان مع حسان جماعة من البربر، من البتر فولّى عليهم حسان الأكبر من ابني الكاهنة وقرّبه"[3] وهذا هو النص الذي اقتبسه، على ما يبدو، الرقيق القيرواني واستغلّه في حديثه عن تأمين حسان للبربر بعد المعركة.

وليستقيم المعنى في نص الرقيق ينبغي أن يكون التعبير كما يلي: كان مع حسان جماعة من البربر البتر، ولّى عليهم الأكبر من ابني الكاهنة، بعدما أمنهما، وقبل وقوع المعركة مع أمّهما، أمّا بعد هزيمة هذه الأخيرة وقتلها فقد استأمن إليه البربر ولم يقبل أمانهم إلاّ بشروط، هي: "أن يعطوه من جميع قبائلهم اثني عشر ألفا"[4] أو "اثني عشر ألف فارس"[5]. أو "أن يكون منهم عسكر مع المسلمين عدّتهم اثنا عشر ألفا"[6]. ينضمون إلى صفوفه ويجاهدون معه، فوافقوه على ذلك وأسلموا على يديه، ووضع تحت تصرف كل واحد من ابْنَيْ الكاهنة، بعد إسلامهما، ستة آلاف من هؤلاء، وأخرجهم

1 العبر، 7، 18.
2 نفس المصدر،جـــ. 6، 219.
3 فتوح، ص 78.
4 الرقيق القيرواني: تاريخ 64؛ ابن عذاري: البيان، 1، 38.
5 المالكي: رياض، 1، 36؛ معالم الإيمان، 1، 67.
6 ابن الأثير: الكامل، 4، 136؛ En- Noweiri : op.cit., p.341

مع العرب، يجولون في إفريقية لقتال " الروم ومن كفر من البربر "[1] و " حسن إسلام البربر وطاعتهم "[2] أو " فشا الإسلام "[3] فيهم وصارت لهم الخطط وكان حسان يقسم الأرض عليهم والفيء بينهم فدانت له البلاد ودوّن الدّواوين ثم عاد إلى القيروان.[4]

أو أنه دَوّن الدواين بعدما عاد إلى القيروان[5] وصالح "من ألقى بيده على الخراج"[6] وكتبه على عجم إفريقية وعلى من أقام معهم على دين النصرانية " من البربر والروم"[7] أو "من البربر والبرانس"[8]: أي البتر والبرانس. أو أنه " وضع الخراج على عجم إفريقية وعلى من أقام معهم على النصرانية من البربر، وعامتهم من البرانس إلاّ قليلاً من البتر"[9] ،ثم جدّد " المسجد الجامع، فبناه بناء حسنا "[10]، وأقام "، وقد استقامت له إفريقية فلا يغزو أحداً، ولا ينازعه أحد"[11]، ولم تقم لقبيلة جراوة بعد ذلك قائمة، إذ افترقت " أوزاعاً بين قبائل البربر ".[12]

جـ- عزل حسّان بن النعمان عن ولاية بلاد المغرب :

ويلاحظ ابن عذاري أن غزوات حسّان الذي " كان... يُسمّى بالشيخ الأمين"[13] لم " تنضبط بتاريخ محقق، ولا فتْحُه لمدينة قرطاجنة وتونس، ولا قَتْله للكاهنة "[14]؛ أمّا فيما يخص تنحيته أو عزله، عن ولاية إفريقية، فإن هناك عدة سيناريوهات، ومنها ما ذكره ابن عبد الحكم من أن حسّانا، بعد انتصاره على الكاهنة، عاد إلى القيروان واستقامت له الأمور " ثم توجه إلى عبد الملك بغنائمه، في جمادى الآخرة سنة 76هـ/695-696م أو 78هـ/697-698م، ولما وصل برقة، أمّر على خراجها إبراهيم بن النصراني ومرّ بعبد العزيز بن مروان، وهو بمصر ثم نَفَذ إلى عبد الملك فسّر بما أورد عليه

---

1 الرقيق القيرواني: تاريخ ، 64؛ رياض،1، 36؛ ابن عذاري: البيان، 1، 38؛ معالم الإيمن،1، 37.
2 نفسه؛ ابن عذاري: البيان، 36.
3 ابن الأثير: الكامل،4، 136؛ En- Noweiri : Conquête, p.342
4 المالكي: رياض،1، 36؛ معالم الإيمان،1، 67.
5 الرقيق القيرواني: تاريخ، ص 64؛ ابن عذاري: البيان،1، 38.
6 نفسه؛ قارن ابن عذاري: البيان: البيان، 1، 38؛ العبر، 6، 219.
7 نفسه، قارن. ابن عذاري: البيان، 1، 38.
8 ابن خلدون: العبر،6، 220.
9 ابن عبد الحكم، فتوح، ص 80.
10 المالكي: رياض، 1، 37؛ معالم الإيمان،1، 67.
11 الرقيق القيرواني: تاريخ، ص 64، البيان،1، 38
12 ابن خلدون: العبر، 7، 18.
13 البيان،1، 39.
14 نفسه.

حسان من غنائم، أو أن عبد العزيز أخذ منه، عند مروره عليه، كلّ ما كان معه من السبي.[1]

وكان الروم، أثناء سفر حسان إلى دمشق، أغاروا عليها وفرّ منها إبراهيم بن النصراني فبقوا يعيثون فيها فساداً مدّة أربعين ليلة، ويرجع الفضل في تخليصها منهم إلى رجل من مذحج، يسمّى عطية بن يَربُوع، استعان عليهم بجماعة من المسلمين كانوا يعيشون بأَمْلس من صحراء طرابلس، كما سبقت الإشارة إلى ذلك. ولما علم والي مصر عبد العزيز بن مروان بالأمر، بعث إلى برقة غلاما له اسمه تليد، مع أناس من أشراف مصر، فضبطها. وقدِم حسان، من قِبَل عبد الملك، متوجها إلى المغرب، فلما وصل مصر، طلب من عبد العزيز تنحيّة غلامه عنها، فرفَض، بحجة أنه استولى عليها من الروم، وسافر حسّان، من جديد، إلى عبد الملك ليطرح عليه هذه المسألة، فوجده مريضاً، في حينِ وجّه عبدُ العزيز موسى بنَ نصير إلى المغرب، وكان عنده بمصر، ثم لم يلبث حسّان إلاّ يسيرا حتى توفي، وقدم موسى المغرب وذلك سنة 78هـ /697-698م، أو 79هـ/ 698-699م[2]، أو أن موسى بن نصير، كان مع عبد العزيز بن مروان بمصر، عندما قدم حسان من إفريقية يريد... عبد الملك، فأجازه عبد الملك وزاده برقة، وردّه إلى إفريقية واليا، فأقبل حتى نزل مصر... فبلغ عبد العزيز أنه يريد برقة، وكان عليها مولى له، فطلب منه عبد العزيز التخلي عنها، ولما رفض مزّق له عهده وأمره بالبقاء في منزله، ثم عقد لموسى بن نصير على إفريقية في صفر سنة 79هـ[3]/698-699م.

وفي سيناريو آخر، في نفس هذا الاتجاه، يذكر فيه المالكي وصاحب كتاب المعالم أن حسانا، بعد انتصاره على الكاهنة، عاد إلى القيروان، فدانت له إفريقية ودَوّن الدواوين وجدّد بناء مسجدها الجامع، ثم رحل إلى " قرطاجنة فهزم أهلها، وهرب الروم منها إلى صقلية والأندلس فخرّ بها وسيطر عليها وعلى فحص تونس ثم رجع، مرّة أخرى، إلى القيروان " وأقام بها، وعمّرها المسلمون... وولّى ... على صدقات الناس والسعي عليهم " حنش بن عبد الله الصنعاني"..."[4] وبعدئذ فقط " رحل...إلى عبد الملك بن مروان، وكان معه خمسة وثلاثون ألف رأس من سبي البربر، و... مِنَ

---

1 ابن عبد الحكم: فتوح ، ص 80.

2 نفس المصدر، ص 82-84-86؛ أنظر أيضا ابن الأثير: الكامل،4، 259.

3 ابن قتيبة (ت.276هـ): الإمامة والسياسة، علّق عليه ووضع حواشيه خليل منصور، منشورات محمد علي ديور، دار الكتب نعلمية، بيروت، لبنان، 1418هـ-1997م، جـ.2، ص 227.

4 المالكي: رياض،1، 38؛ معالم الإيمان،1، 69.

الذهب ثمانون ألف دينار، قد جعلها [حياطة عليها] في [قرب الماء]، واستقامت إفريقية كلها، وأَمِن أهلُها..."[1] أي أن رحيل حسّان إلى عبد الملك، لم يكن عند عودته إلى القيروان، مباشرة، بعد المعركة التي انتصر فيها على الكاهنة، بل بعدما زحف أيضا على قرطاجنّة (قرطاجة)، وهزم أهلها ثم رجع مرّة أخرى إلى القيروان. مع العلم أن صاحبي هذا السّيناريُو لم يُشيراَ إلى أي حادث يكون قد وقع لحسّان، أثناء رحلته هذه. لا مع عبد العزيز بن مروان، ولا مع غيره، ولا إلى وفاته؛ ويلتقي السيناريوُهَان المذكوران، في الحديث، عن خروج حسان من القيروان خروجاً طوْعيا إلى الخليفة عبد الملك، أي في عهده، دون التطرق إلى قضيّة عزله.

وهناك سيناريو ثالث، يتفق فيه كل من الرقيق والبكري، ومفاده أن حسانا خرج في حملة من القيروان، عندما علم بقيام الروم بغارة بَحْريّة على مدينة تونس[2]، أو مرسى رادس[3]، ومنها بعث وفداً من أربعين رجلا، من أشراف العرب إلى " عبد الملك بن مروان"[4] أو إلى ابنه الوليد الذي خلفه بعد وفاته سنة 86هـ/[5] 705-706م، وأقام مرابطا، ينتظر الرّد، فعزله والي مصر وإفريقية، عبد العزيز ابن مروان[6] أو أن حسّانا كان مقيما بالقيروان، بعد قتل الكاهنة، عندما عزله " عبد العزيز بن مروان وكان الوالي على مصر يولّي على إفريقية "[7]، وولّى مكانه موسى بن نصير، وربما فعل ذلك " دُونَ أَمْرِ أخيه عبد الملك، ولا مشورته"[8] وقد يكون عزله بعد وفاة عبد الملك وتولية ابنه الوليد منصب الخلافة.[9]

وكان عبد العزيز، حسب المصادر التي تقول إنه عزل حسان، أَمَرِه بالقدوم عليه "وبعث إليه أربعين رجلا، من أشراف أصحابه، وأمرهم أن يحفظوا جميع ما معه، ولم يَخْفَ قصدُ عبد العزيز على حسان، فعمد إلى ما كان مِن جوهر وذهبٍ وفضّة، وجعله في قرب للماء، وأظهر ما سوى ذلك، من أمتعة ودواب ورقيق، وسار إلى أن وصل

1 المالكي: رياض، 1، 38؛ معالم الايمان، 1، 69.
2 البكري: المغرب، ص 37-38.
3 الرقيق القيرواني: تاريخ، ص 65.
4 البكري: المغرب، ص 38
5 الرقيق القيرواني: تاريخ، ص 65.
6 نفس المصدر، ص 66.
7 ابن عذاري : البيان،1، 38.
8 نفس المصدر، ص 39.

9 En- Noweiri : op.cit., p.342

إليه فأهداه " مائتي جارية من خيار ما معه"[1] أو طلب منه أن يختار مائتين مما يعجبه من جواري أو غلمان[2] أو أهداه " مائتي جارية من بنات ملوك الروم والبربر"[3] فتخيّر عبد العزيز " ما أحب، وأخذ منه خيلا كثيرة"[4] أو " سلبه... جميع ما كان معه، من الخيل والأحمال والأمتعة والوصائف والوصفان"[5]؛ وكان معه من السّبي، خمسة وثلاثون ألفا رأس، " مما لم يدخل فيهم وصفاء ووصائف ما رأى الراؤون مثلهم قطّ ".[6]

وواصل حسان طريقه، بعدئذ، "بمن معه من السبي والجِمَال والأنعام"[7]، أو "بالأثقال التي بقيت معه"[8]، حتى قدم على الوليد، فشكا إليه ما صنعه به عمه عبد العزيز، فغضب لما حدث وأنكره، ثم أمر حسّان رجاله بإحْضَار قرب الماء وتفريغها أمامه مما كانت تحتويه، فكان ذلك، واستعظمه الخليفة، وعجب من أمر حسان وشكره فقال له حسان :" يا أمير المؤمنين، إنما خرجت مجاهداً في سبيل الله، وليس مثلي خان الله ولا الخليفة"[9] أو " يخون الله والخليفة!"[10]. ولما حاول الوليد إقناعه بالعودة إلى عمله ووعدهُ بالإحسان إليه والتَّنْويه به، أقسم له أنه لن يتولى ولاية لبني أُمية أبدا، وقد استحق حسّان، بعد هذه المقابلة مع الوليد وما ترتب عنها، لقب " الشيخ الأمين".[11]
أمّا السيناريو الرابع والأخير فيفيد أن الوليد بن عبد الملك، عيَّن، بعد توليته الخلافة، عَمّه عبد الله بن مروان واليا لإفريقية " فعَزَل عنها حسّانا واستعمل موسى بن نصير سنة تسع وثمانين[12] (89هـ/707-708م). وهذه المعلومة تتضمن، كما يبدو، خطأ واضحا: فمن غير المعقول أن يقوم أيّ موظف، واليا كان أو غيرهُ، بتعيين مثيل له في وظيفته، ثم إن ذلك ليس من صلاحيّته، وإن كان من وصايته فهذا ليس في صالحه؛ وكانت تعيينات ولاة إفريقية آنذاك، تأتي: إمّا من الخليفة بدمشق مباشرة وإمّا من والي مصر، عندما كانت إفريقية تابعة لها إداريا، فلو قيل مثلا: إن عبد الله بن مروان عيّن واليا لمصر فعزل حسانا عن إفريقية واستعمل عليها موسى بن نصير لكان هذا مقبولا، وخاصة إذا ما أُخذت بعين الاعتبار تلك الملاحظة التي أبداها البارون دوسلان، مترجم نص النويري إلى الفرنسية، ومضمونها أن وفاة عبد العزيز كانت سنة 85هـ/704-705م

1 الرقيق القيرواني: تاريخ، ص 67.

2 En- Noweiri : op.cit., p.342

3 ابن عذاري: البيان، 1، 39.

4 الرقيق القيرواني: تاريخ، ص 67؛ En- Noweiri : op.cit., p.342

5 ابن عذاري: البيان، 1، 39.

6 الرقيق القيرواني: تاريخ، ص 67، قارن En- Noweiri : op.cit., p.342

7 الرقيق القيرواني: تاريخ، 67.

8 ابن عذاري: البيان، 1، 39؛ En- Noweiri : op.cit., p.342

9 الرقيق القيرواني: تاريخ، ص 67.

10 ابن عذاري: البيان، 1، 39.

11 الرقيق القيرواني: تاريخ، ص 67؛ ابن عذاري: البيان، 1، 39؛ En- Noweiri : op.cit., p.343

12 ابن الأثير: الكامل، 4، ص 136-137.

في حين أن اعتلاء الوليد عرش الخلافة كان سنة 86هـ ومن ثَمَّ يحتمل أن يكون النويري قد أخلط بين عبد العزيز وبين ابن أخيه وَوَلِيّ عهده عبد الله بن عبد الملك[1] وهذا الاحتمال، إن صح، ينطبق، بطبيعة الحال، على المؤرخين الذين يقولون، مثل النويري، أن عزل حسّان وتولية موسى بن نصير تمّ على يد عبد العزيز بن مروان، في خلافة الوليد بن عبد الملك، فإن كان لعبد العزيز دور في هذه المسألة حقا، فلا بدّ وأن يكون حدث في خلافة أخيه عبد الملك، وإن كان ذلك التغيير وقع في خلافة الوليد، فإن منفذه هو - بكلّ تأكيد- عبد الله بن عبد الملك، والي مصر.

ولعلّ أحسن ما يوضح هذا الإنشغال، يكون فيما ذكره ابن عذاري المراكشي، من أنّه، في "جمادى الأولى من سنة 85هـ/مايو 704م توفي عبد العزيز بن مروان... وكان عبد الملك... أراد أن يخلع أخاه (عبد العزيز) عن مصر، في هذه السنة على ما فعل من عزل حسان بن النعمان وفيئه، فنهاه قبيصة بن ذؤيب... فكفّ... عنه، وبقيت نفسه تنازعه أن يخلعه. فبينما هو على ذلك، وروح ابن زنباع الجذامي يقول له يوما: " لو خلعته ما انتطح فيه عنزان!" إذ دخل عليهما قبيصة؛ فقال: " آجرك الله يا أمير المؤمنين في أخيك! فقال: "هل توفيّ؟" قال " نعم!"... وفي سنة 86هـ/ 705-706م، توفي عبد الملك...أمير المؤمنين، فكتب الوليد، إلى عمه عبد الله بن مروان بولاية موسى بن نصير إفريقية والمغرب وقطعها عن عمه".[2]

مع ملاحظة أن كلام ابن عذاري هذا يوحي أنه قد يكون لقبيصة علاقة بموت عبد العزيز، وأن تعيين موسى بن نصير على إفريقية والمغرب تمّ على يد والي مصر، عبد العزيز بن مروان دون مشورة أخيه، الخليفة عبد الملك، وبعد وفاة عبد العزيز سنة 85هـ/704م، وتولية أخيه عبد الله منصبه، بقيت الأمور على حالها إلى أن توفي الخليفة عبد الملك بدوره سنة 86هـ/ 705-706م وتولى عرش الخلافة بعده ابنه الوليد، فبعث إلى عمه عبد الله قرارا بتثبيت ابن نصير في ولايته على إفريقية والمغرب واستقلالها عن مصر لتكون تابعة للخلافة مباشرة.[3]

---

1 Le Baron De Slane ; dans En- Noweiri : op.cit., t.1.p.342, note 1.

2 البيان،1، 41.

3 يتفق كل من الرقيق القيرواني والنويري على أن هذا الخليفة هو الوليد عبدالملك (تاريخ افريقية والمغرب، من Em-Noweiri, op.cit, p243 لكن مترجم هذا الأخير الى الفرنسية، يرى أن النويري (ومثله الرقيق) أخطأ من جديد هنا، معتمدا، في رأيه على ما ذكره ابن عبدالحكيم من أن توليه موسى على افريقية كانت سنة 78 أو 79هـ (ما بين 697 و 699م) وأن ابن عساكر جعلها سنة 79هـ/698-699م كما نقرأ في كتاب النجوم الزهراء أن موسى قام بغزوات كثيرة سنة 84هـ/703-704م، ومن تم يكون من البديهي أن تاريخ 96هـ/714-715 غير صحيح
(le Baron de Slane, dans En-Noweiri, op.cit, p.343, note 2)

7.2- دور موسى بن نصير في فتح بلاد المغرب:

يفيد ابن عذاري أن موسى بن نصير كان، قبل توليته على بلاد المغرب، على خراج البصرة فاحتجن لنفسه أموالا مما جعل الخليفة عبد الملك بن مروان يوصي به الحَجّاجَ بن يوسف، ألاّ يفوته، فخاف موسى وقصد إلى عبد العزيز بن مروان، صاحب مصر، لانقطاع كان منه إليه، ووفدا معا على عبد الملك بدمشق، فأغرمه مائة ألف دينار، فغرم عنه عبد العَزيز نصفها، وأعاده معه إلى مصر، وبعد ذلك ولاّه إفريقية[1]، كما يفيد ابن قتيبة أن عبد الملك كتب لموسى رسالة، ردًّا على الفتح الذي وجّهه إليه، عن طريق أخيه عبد العزيز يُعلمه فيها " أنه فرض لجميع ولده في مئة. وبلغ به إلى المئتين، وفرض في مواليه وأهله... ممن معه خمس مئة رجلا: ثلاثين ثلاثين، و... أن أمير المؤمنين قد أمر لك بمئة التي أغرمها لك، فخذها من قبلك منالأخماس".[2]

وفي هذا السّياق يذكر ابن عبد الحكم، وهو يتحدث عن موسى بن نصير، بعد وصوله إلى القيروان، أنه " واتر فتوحه، وكتب بها إلى عبد العزيز بن مروان، وبعث بغنائمه وأنهاها عبد العزيز إلى عبد الملك فسكّن ذلك من عبد الملك بعض ما كان يَجِد على موسى."[3]، ويعني كلام المؤرّخيْن الأخيريْن، بوضوح، أن الخليفة عبد الملك عفى عن موسى، ويكون بالتّالي عفى عن أخيه عبد العزيز، لما فعله بحسان، على الأقل في الظاهر. والمهم هو أن أوّل ما فعله موسى، عند حلوله بالقيروان " في جمادى الأولى، يوم الإثنين لخمس خلون منه، سنة تسع وسبعين (79هـ[4]/ يوليو 698م) هو عزل أبي صالح " الذي استخلفه حسان على القيروان"[5] عند سفره إلى المشرق، ويذكر ابن قتيبة أنه غرّمه، كما غرّم فهريا آخر مثله، هو سفيان بن مالك، بعشرة آلاف دينار لـ "كل واحد منهما... ووجّههما إلى عبد الملك في الحديد"[6]، ولا يعرف سبب قيامه بهذا الإجراء، إنْ كان قد قام به فعلا؛ ولو قيل إنّه وجّههما مقيّدين إلى عبد العزيز لكان أكثر قبولا، على اعتبار أن علاقة هذا الأخير بحسان لم تكن على أحسن ما يرام وبالتالي كان بإمكانه الإساءة إلى رجاله.

---

1 البيان، 1، 39-40.

2 الإمامة والسياسة، جـ2، ص 233.

3 فتوح، ص 86.

4 ابن قتيبة: نفس المصدر، ص 228.

5 ابن الأثير: الكامل، 4، 252؛ En- Noweiri : op.cit., p.343

6 المصدر السابق، ص 228.

وكان البربر " قد طمعوا في البلاد، بعد رحيل حسان "[1] واختلفوا " فيما بينهم على إفريقية والمغرب"[2] بحيث أن ابن نصير وجد، عند وصوله إليها "أكثر مدنها"[3] أو "أكثر البلاد"[4] خالية وهو ما جعله، حسب ما يتفق عليه كلّ من الرقيق وابن خلدون، "ينقل العجم من الأقاصي إلى الأداني"[5] مما يدلّ على أن الخلوّ الذي أشارا إليه، في المدن أو البلاد، إنّما يعنيان به خلوّها من العجم؛ أمّا البربر فكانوا متواجدين في "إفريقية وما حولها... بحيث لا يقدر المسلمون أن يبرزوا في العيدين، لقرب العدوّ منهم... وكانت جبالها كلها محاربة لا ترام، وعامة السهل" أيضا، على حدّ تعبير ابن قُتيبة.[6] وهذا ما دفع ابن نصير إلى التفكير في اتباع تكتيك جديد، يقوم على غزو العدو الأدنى، قبل الأقصى، عكس ما كان يفعله قادة الفتح الذين سبقوه، وذلك حتى لا " يترك عدوا منه أدنى، ينتهز منه الفرصة، ويدلّ منه على العورة، ويكون عونا عليه عند النكبة".[7] ومِنْ ثمّ كان "أول فتوحه قلعة زغوان ونواحيها. وبينها وبين القيروان مسيرة يوم كامل"[8] أي "يوم إلى الليل"[9] وكان بها عدة قرى[10] وبنواحيها قبائل من البربر "يُغيرون على سرح المسلمين ويَرصدون غرّتهم"[11] فوجه إليها موسى خمس مائة فارس ففتحوها وبلغ سبيهم فيها عشرة آلاف، وهو أول سبي دخل القيروان في ولايته[12] ثم "بلغه أن بأطراف البلاد قوما خارجين عن الطاعة فوجه إليهم ابنه عبد الله"[13] فلما أتاه بمائة ألف من السّبي[14] "سيّره في البحر إلى جزيرة ميورقة فنهبها وغنم منها ما لا يحصى..."[15] وبعث

---

1 ابن الأثير: الكامل، 4، 252.

2 ابن خلدون: العبر، 6، 220.

3 الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية، ص 68.

4 ابن خلدون: العبر، 6، 220.

5 تاريخ إفريقية والمغرب، ص 68؛ العبر،6، 220.

6 الإمامة والسياسة،2، 228.

7 ابن قتيبة : المصدر السابق، ص 229.

8 ابن عذاري: البيان،1، 40.

9 ابن قتيبة الإمامة والسياسة، جـــ2، ص 229؛ يسميها ابن قتيبة زعوان (نفسه).

10 ابن أبي دينار المؤنس، ص 35.

11 نفسه.

12 نفسه؛ ابن عذاري: المصدر السابق،1، 40؛ ابن أبي دينار: المؤنس، 35.

13 ابن الأثير: الكامل،4، 252؛ En- Noweiri : op.cit., p.343

14 En- Noweiri : op.cit., p.343 ؛ ابن عذاري: البيان،1، 40؛ يسمي ابن قتيبة هذا الابن عبد الرحمان لكنه يتفق مع المصدرين السابقين فيما سباه (الإمامة والسياسة،2، 229) أمّا ابن الأثير فيتفق معهما في الاسم (عبد الله) لكنه يحدّد عدد السبايا بألف رأس (الكامل،4، 252).

15 ابن الأثير: نفس المصدر، ص 252.

ابنه مروان إلى نواحي أخرى من أطراف إفريقية فأتاه أيضا بمائة ألف رأس[1] وخرج بنفسه "إلى طائفة أخرى فظفر بهم وسبى منهم نحو ذلك"[2] ومع أن المصادر تختلف، مع بعضها البعض، في ذكر بعض التفاصيل المتعلقة بأحداث تلك الغارات إلاّ أن أغلبها يتفق على تقدير خمس مجموع ما سُبِيَ فيها بستين ألف رأس.[3]

ويتحدث ابن قتيبة، بعد ذلك، عن إرسال موسى لـ " عباس بن أخيل إلى هوّارة وزناتة في ألف فارس، فأغار عليهم وقتَلهم وسباهم، فبلغ سبيهم خمسة آلاف، وكان عليهم... كمَا مُون، فبعث به موسى إلى عبد العزيز في وجوه الأسرى، فقتله... فلما أوجع عيّاش فيهم دعوا إلى الصلح... فصالحوهم... وكانت كتامة قد قدمت على موسى فصالحته وولى عليهم رجل منهم، وأخذ منهم رهونهم."[4] ويذكر ابن عذاري أنّ موسى " فتح... هوارة وزناتة وكتامة... وكان عليهم طامون... وكانت كتامة قد قدمت على موسى؛ فولّى عليهم رجلا منهم، وأخذ منهم رهائن ".[5]

فمع أن نص ابن عذاري مقتبس من نص ابن قتيبة كما هو واضح، وكما يعلن هو نفسه ذلك[6]، فإن المقارنة بينهما تبيّن أن هناك فرقا في التفاصيل الواردة في كليهما: إذ يتبين من النص الأول أن موسى أرسل قائدهُ عيّاش إلى هوّارة وزناتة، في ألف فارس، في حين لا يشير النص الثاني إلى عيّاش ولا إلى الف فارس لكنه يضيف اسم كتامة إلى هوّارة وزناتة ويتبين من النص الأول كذلك أن كمامون هو رئيس لقبيلتي هوّارة وزناتة فقط أمّا كتامة فلم تشملها غارة عياش بل قَدِمَت طواعية إلى موسى وصالحته وولّى عليها رجلا منها في حين تشملها رئاسته في الثاني الذي يُسميه طامون، مع أنها " كانت " قد قدمت كما في الأول إلى موسى فصالحته وولّى عليها رجلا منها .

وما يمكن استخلاصه، من هذه المقارنة، أن جيش موسى قد أغار، بقيادته، هو شخصيا أو بقيادة عيّاش بن أخيل، على قبيلتي هوّارة وزناتة أو عليهما معا وعلى كتامة، ومن النتائج التي حصل عليها: سبْيُ خمسة آلاف رأس منهم وأسر رئيسهم

---

1 ابن قتيبة: نفس المصدر، ص 229؛ En- Noweiri : op.cit., p.343 ؛ (ابن عذاري: البيان،1، 40؛ يسمي ابن الأثير هذا الابن هارون ويقدّر ما سبى بنحو ألف رأس (الكامل،4، 252).

2 ابن الأثير: الكامل،4، 252.

3 ابن قتيبة: المصدر السابق، جـ2، ص 229؛ ابن الأثير: الكامل، 4، ص 89؛ En- Noweiri : op cit., p.343؛ ابن عذاري: البيان، 1، 40؛ يختلف ابن عبد الحكم عن هؤلاء في تقدير خمس سبي موسى بعشرين ألف رأس مع أنه يحدّد مجموعة بمئتي ألف رأس (فتوح، ص 86) وخمس هذا الرقم، كما هو واضح، هو أربعون ألفا وليس عشرين ألفا.

4 الإمامة والسياسة، جـ2، 231.

5 البيان،1، 41.

6 نفسه.

كمامون أو طامون وعقْد صلح مع الجميع وتَوْلية رجل من كتامة على قبيلته بعد أخذ رهائن منها.

وينفرد ابن قتيبة بالحديث عن غارة قام بها موسى على صنهاجة بناء على معلومات زوّده بها جواسيسه، وتفيد أن أقوام تلك القبيلة كانوا في " غفلة، وأن إبلهم تنتج، ولا يستطيعون بُراحاً "[1] وقد فاجأهم موسى بهجومه " فبلغ سبيهم يومئذ مئة ألف رأس، ومن الإبل والبقر والغنم والخيل والحرث والثّياب ما لا يحصى، ثم انصرف قافلا إلى القيروان ".[2]

ولما علم الأجناد بما أصاب موسى من الغنائم، تجمعوا في عدد مماثل للعدد الذي كان معه، وزحفوا غربا نحو صَنْهاجة بقيادة رجل يسمى المغيرة[3]، فقاتلوها إلى أن هزموها وسَبُوا منها ستين ألف رأس ثم عادوا من حيث أتوا.[4]

وينفرد ابن قتيبة هنا أيضا بالحديث عن انشغال موسى، بعد تلك العودة، بإنجاز دار صناعة السفن بتونس، وبإخراج عدة حَملات بريّة وبحرية، ومنها غزوة الأشراف التي قادها ابنه عبد الله على صقلية سنة 85هـ/704-705م و " افتتح مدينة فيها، فأصاب ما لا يدرى، فبلغ سهم الرجل مئة دينار ذهبا..."[5] ويتفق مع ابن عذاري في الإشارة إلى غزوة بعث على رأسها زرعة بن أبي مدرك إلى قبائل البربر، بعد وفاة الخليفة عبد الملك ابن مروان، وتولية ابنه الوليد عرش الخلافة سنة 86هـ/705-706 م " فلم يلق (زرعة) حربا منهم ورغبوا في الصّلح، فوجّه رؤوسهم إلى موسى، فأعطاهم الأمان، وقبض رهونهم"[6]. وفي الحديث عن حملة عقدَ فيها لعياش بن أخيل " على مراكب أهل إفريقية، فشتّى في البحر، وأصاب مدينة... سَرَقُوسَة ثم قفل في سنة ست وثمانين[7] أيضا، كما عقد على بحر إفريقية لعبد الله بن مر الذي " قام بطالعة أهل مصر... (عليه) في سنة تسع وثمانين(89هـ/707-708م) " فأصاب سرْدانية، وافتتح مدائنها، فبلغ سبيها ثلاثة

---

1 الإمامة والسياسة، 2، 231.

2 نفس المصدر، ص 232.

3 هو المغيرة بن أبي بردة القرشي الذي كان على ميسرة جيش موسى عندما قام بحملته على طنجة (ابن قتيبة: المصدر السابق، جـ2، ص 232).

4 نفسه.

5 الإمامة والسياسة، جـ2، 235.

6 نفسه؛ و يحدّد ابن عبد الحكم تاريخ وفاة عبد الملك و تولية الوليد بسنة 86هـ/ أيضا (فتوح، ص 86)؛ ينقل ابن عذاري هذه الرواية بن ابن القطّان (البيان، 1، 42).

7 نفسه؛ ينقل ابن عذاري هذه الرواية أيضا عن ابن القطان (البيان، 1، 42).

آلاف رأس، سِوَى الذهبِ والفضة والحرث وغيره".[1] وأخيرا وجّه ابنه مروان إلى السوس الأقْصى وكان مَلِكُه آنذاك مزدانة الأسواريّ فهزمهُ وبلغ سبيه منهم أربعين ألفا.[2]

وتذكر أغلب المصادر أن موسى بن نصير خرجَ من إفريقية ملاحقا البربر الذين فرّوا منه، فتبعهم حتى بلغ السوس الأدنى، وقتل وسبى منهم الكثير[3]، أو أنّه لمّا دنا من طنجة، "وبها من البربر بطون من البتر والبرانس، ممن لم يكن دخل الطاعة...، بث السرايا فانتهت خيله إلى السوس الأدنى فوطئهم وسباهم"[4] فلما رأوا ما حلّ بهم استأمنوا إليه وأطاعوه فولّى" عليهم واليا أحسن فيهم السيرة... ثم... عزل الذي كان استعمله على طنجة وولّى طارق بن زياد ثم انصرف إلى القيروان "[5] بعدما ترك طارقا في " سبعة وعشرين رجلا من العرب واثني عشر ألف فارس، وهي العدّة التي جعلها عليهم حسان بن النعمان، وكانو قد دخلوا الإسلام وحسن إسلامهم... وأمر العرب السبعة والعشرين... أن يُعلّموا البرابر القرآن وأن يُفقّهوهم في الدين "[6] أو أنه تركه في جيش كثيف جُلهم البربر وجعل معهم من يعلمهم القرآن والفرائض"[7] أو " في سبعة عشر ألفا من العرب واثني عشر ألفا من البربر، وأمر العرب أن يعلموا البرابر القرآن، وأن يفقّهوهم في الدين "[8] أو في " رهائن المصامدة... مع رهائن البربر...من إفريقية والمغرب... و... سبعة عشر رجلا من العرب، يعلمونهم القرآن وشرائع الإسلام ."[9] أو في " سبعة وعشرين ألفا من العرب ، واثني عشر ألفا من البربر وأمرهم أن يعلموا البربر القرآن والفقه "[10] أو في " سبعة عشر ألف فارس من العرب والبربر".[11]

ويفيد البكري أنه بعد وصول موسى " إلى طنجة، مال عَيّاض بن عقبة (بن نافع) إلى قلعة يقال لها سقوما، على مقربة من فاس، ومال معه سليمان بن أبي المهاجر،

---

1 ابن قتيبة: المصدر السابق، جـ.2، ص 235.

2 نفسه.

3 الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب، 69؛ ابن الأثير: الكامل، 4، 252؛ ابن عذاري البيان، 1، 42؛ En- Noweiri : op.cit., p.344

4 ابن عبد الحكم: فتوح، ص 88؛ يلاحظ ابن عبد الحكم هنا أن موسى هو أوّل من نزل طنجة من الولاة (نفسه).

5 ابن عبد الحكم: فتوح ، ص 88؛ قارن. الرقيق القيرواني: تاريخ، ص 69؛ ابن الاثير الكامل،4، 252؛ ابن عذاري: البيان،1، 42، En- Noweiri : op.cit., p.344

6 الرقيق القيرواني: المصدر السابق، ص 69-70.

7 ابن الأثير: الكامل،4، 252، En- Noweiri : op.cit., p.344

8 ابن عذاري: البيان،1، 42.

9 نفسه.

10 ابن خلدون: العبر،6 ، 220.

11 ابن أبي دينار: المؤنس، ص 35.

وسألا موسى الرجوع معهما، فأبى وقال هؤلاء قوم في الطاعة، فأغلظا له القول حتى رجع فقاتل أهل سقوما... فانهزم القوم واشتدّ القتل فيهم فبادوا وقتلت أورية ".[1]

وهذا يذكّر بما قاله ابن قتيبة من أنّه قام بحملة "على سجوما وما حولها"[2] في عشرة آلاف رجل سنة 83هـ/703-704م، ولما عَبَر نهر ملوية وجدهم " قد أنذروا به وتأهبوا، وأعدّوا للحرب، فاقتتلوا...في جبل منيع، لا يوصل إليهم إلاّ من أبواب معلومة... ثم ... هزمهم...، وقتل ملكهم كسيلة بن لمزم، وبلغ سبيهم مئتي ألف رأس، فيهم بنات كسيلة، وبنات ملوكهم... ثم انصرف موسى وقد دانت له البلاد كلها، وجعل يكتب إلى عبد العزيز، بفتح بعد فتح، وملأت سباياه الأجناد، وتمايل الناس إليه، ورغبوا فيما هناك لديه... وبعث ...إلى عيّاض وعثمان وإلى عبيدة بن عقبة، فقال: اشتفوا، وضَعُوا أسيافكم في قَتَلَةِ أبيكم عقبة... فقَتَل منهم عيّاضُ ستّ مائة رجل صبرًا، من خيارهم وكبارهم، فأرسل إليه موسى أن أمسك... وانصرف موسى قافلا إلى القيروان وذلك سنة أربع وثمانين".[3]

ويقتبس ابن عذاري نص ابن قتيبة هذا باختصار شديد فقال: " فتح موسى بن نصير سجومة، وقتل ملوكها. وأمر أولاد عقبة: عيّاضا وعثمان وأبا عَبدة، أن يأخذوا حقّهم من قاتلي أبيهم؛ فقتلوا من أهل سجومة ستّمائة رجل من كبّارهم. ثم قال لهم "كفّوا" فكفّوا، وذلك سنة 83هـ/ 702-703م[4] مع ملاحظة أن ابن عذاري لم يشر في اقتباسه هذا، إلى وجود كسيلة بن لمزم، من بين ملوك سجومة، ولا إلى سبيهم، ولا إلى مكاتبته عبد العزيز بن مروان بأخبار فتوحاته، ولا إلى عودته إلى القيروان.[5]

ويفيد البكري كذلك أن موسى، كتب إلى الخليفة الوليد، بعد تلك الغزوة "أن صار إليك ياأمير المؤمنين من سبي سقوما مائة ألف رأس، فكتب إليه الوليد، وَيْحك أظنّها من بعض كذباتك، فإن كنت صادقا فهذا محشر الأمم"[6] وينقل ابن خلدون نفس هذه المعلومة عن ابن الرقيق.[7]

1 المغرب، ص 117.
2 الإمامة والسياسة،2، 232.
3 نفس المصدر، ص 232-233.
4 البيان، 1، 41.
5 أنظر. البيان،1، 41.
6 المغرب، ص 118.
7 العبر، 6، 217.

وهذا كلام يذكّر أيضا بما نسبه ابن قتيبة إلى عبد العزيز بن مروان، مباشرة بعد حديثه عن فتح موسى لقلعة زغوان، ونَقَلَهُ عنه ابن عذاري لكنه جعل حدوثه بعد غزو موسى وأبنائه لنواحي إفريقية وسبي كل واحد منهم مائة ألف كما سبقت الإشارة إلى ذلك. ويتضمن ذلك الكتاب " أن الخمس بلغ ثلاثين ألفا... فلما قرأ عبد العزيز الكتاب... كتب إليه... إنه بلغني كتابك... وظننت أن ذلك وهمٌ من الكاتب... فلما قدِم الكتاب على موسى، كتب إليه: بلغني أن الأمير، أبقاه الله... ظن أن ذلك وهم من الكاتب، فقد كان ذلك وهما على ما ظنّه الأمير، والخمس أيّها الأمير ستّون ألفا حقا ثابتا بلاوهم".[1]، ويضيف ابن عذاري لكلام ابن قتيبة أن " عبد العزيز " كتب... إلى أخيه (عبد الملك) يعلمه بالفتح وبكتاب موسى. ثم وجّه عبد الملك رجلا إلى موسى ليقبضَنّ ذلك منه".[2]

فعند تأمل هذه النصوص والمقارنة بينها، يبدو جليا أن أصحابها يتحدّثون عن وقائع جرت أحداثها غرب نهر ملوية، في إقليم طنجة، بالقرب من فاس، في قلعة سقوما أو سجوما أو سجومة وأن أهلها وَهُم أوربة قوتلوا، رغم أنهم كانوا في طاعة المسلمين، انتقاما منهم، لقتلهم عقبة وأصحابه، وأن الذين دفعوا إلى ذلك أو تحمّسوا إليه هُمْ أبناء عقبة: عياض وعثمان وعبيدة أو عيّاض بن عقبة وسليمان بن أبي المهاجر دينار، وكان انتقامهم مسلطا على أعيانها (ملوكها). ولم يكن كسيلة من بين هؤلاء. وهذا ما يفسر تفادي ابن عذاري نقل المعلومات الخاصة به، عند اقتباسه نص ابن قتيبة: لأن ابن عذاري كان يعلم أن كسيله لم يكن آنذاك رئيسا لأوربة، بل قُتل من قبلُ بحوالي عشرين عاما، على يد زهير بن قيس البلوي في معركة ممس.[3] ولم يقتبس ابنَ عذاري من ابن قتيبة رقم مائتي ألف رأس من السبي لما رأى فيه، ولا شك، من مبالغة وربما لم يطلع على ما ذكره البكري، من أن نصيّب الخليفة في ذلك السبي مائة ألف رأس، وما دام يمثل الخمس فالمجموع يكون خمسمائة ألف رأس. وفي هذا الرّقم مبالغة أكبر بكثير، وخاصة عند تصوّر أنه كان من قلعة واحدة أو من قبيلة واحدة، فحتى رقم ثلاثين ألف رأس الذي يمثل خُمسَ مائةِ وخمسين ألفاً بدا وهْماً لعبد العزيز بن مروان نفسه، عندما أخبره به موسى بن نصير في رسالة وجّهها إليه، مع أنه جُمع من عدة نواحي ومن قبائل كثيرة بأطراف إفريقية.

1 الإمامة والسياسة، 2، 230؛ البيان، 1، 40.

2 البيان، 1، 40.

3 أنظر ما قبل، ص 122-123.

علماً أن كلاً من ابن قتيبة وابن عذاري لم يشيرا إلى قيام ابن نصير بمراسلة وصَايتَه، بعد غزو سجوما او سقوما، كما فعل البكري. فهل كان ذلك سهواً منهما، أم أن البكري هو الذي وقع له لُبْسٌ وخَلْطٌ في كرونولوجية الأحداث التاريخية التي جرت في تلك الفترة؟ مع ملاحظة أن هناك عاملين مشتركين بين النّصين المذكورين، وهما، أوّلاً: موضوع المراسلة، وهو إعلام الوصاية، إمّا في الفسطاط وإمّا في دمشق، بخمس السبي. وثانيا ردّ فعل تلك الوصاية المتمثّلة في والي مصر، عبد العزيز بن مروان أو في الخليفة الوليد بن عبد الملك. مما يوحي بأن ما سجّل بهما يتعلّق بالشيء نفسه أي بنفس الرسالة التي حدّد ظروف كتابتها كلّ من ابن قتيبة والبكري بطريقة عشوائية. ولعل أفضل ظرف يناسبها، إن كُتِبت فعلا، هو ذاك الذي اختاره لها ابن عذاري المراكشي، أي بعد غزو موسى وأبنائه لمختلف نواحي إفريقية.

ومهما يكن فإن المبالغة واضحة، وضوح الشمس، في أرقام السبايا المعلنة، مع العلم أن المصادر العربية التي عالجت موضوع الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، لم يكن من عادتها تقديم إحصائيات عن السبي الذي كان المسلمون يجمعونه، باستثناء ما ذكرته من حصول عقبة بن نافع الفهري على ثلاث مائة وستين رأس من كل واحدة من مدن وَدّان وجرمة وآخِر قصور كوّار، كما أسلفنا. وفيما عدا ذلك فإن تلك المصادر اقتصرت على إعطاء أرقام ما كانوا يجمعونه من أموال، كما فعلت عند حديثها عن حملة العبادلة، حيث قدّرت نصيب كل فارس من الفرسان الذين شاركوا فيها ثلاثة آلاف دينار ونصيب كلّ راجل ألف دينار، دون أشياء أخرى؛ كما قدّرت أيضا نصيب كل مقاتل (دون تمييز) في جيش معاوية بن حُدَيْج، من غنيمة مدينة جلولاء، بمائتي دينار. وفيما عدا ذلك فهي لم تقدم أرقاما مضبوطة في حديثها عن الغنائم التي كان المسلمون يجمعونها، من أموال وحيوانات كخيول الأوراس؛ أمّا السبايا فلم تتعرّض لهنّ إلاّ نادراً، مثلما فعل البكري، في حديثه عن طنجة، عندما تحدث عن سبي عقبة لنسائها وذراريها، دون إعطاء أرقام عن ذلك، مثلما فعلت مصادر كثيرة في حديثها عن سبي نفس القائد لجاريات سوسيات يبعثْ الواحدة منهنّ في المشرق بحوالي ألف دينار. لكنها لم تذكر عددهنّ، والرقم الأول الكبير الذي زوّدتنا به تلك المصادر عن السبي في بلاد المغرب هو الخمسة والثلاثون ألف رأس، الذي قالت إن حسان أخذهم معه، أثناء عودته النهائية إلى المشرق، دون أن تحاول إلقاء الضوء على الكيفية التي قد يكون جمع بها هذا العدد. والمعروف عن الرجل أنه كان يجنح إلى سياسة المسالمة والتحالف مع السكان الأصليين، حتى مع قوم الكاهنة، جراوة، الذين ألحقوا به هزيمة نكراء.

ومع ذلك، فقد راح يجذبهم إلى صفّه، عند تمكنه منهم، فكيف يكون قد تمكّن إذًا من جمع عدد كبير كهذا، لم يسبق له مثيل في تاريخ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب؟.

لا شك أن في الأمر مبالغة كبيرة وقد يكون هدف الذين أبرزوها إلى الوجود إظهار كفاءته القيادية والخسارة التي تكبّدتها الخلافة باستغنائها عنه وتعويضه بغيره. فإذا تمّ التسليم بهذه الفرضية يسهل إيجاد تفسير مقبول للمبالغات التي وردت في شأن سبايا موسى بن نصير، بمئات الآلاف وليس بعشراتها، فهي بمثابة ردّ فعل لمؤيّدي تعيينه في ذلك المنصب، فكأنهم يقولون إذا كانت كثرة السبايادليلا على الكفاءة القيادية، فإن سبايا موسى أكثر من سبايا حسان بكثير. وبالتالي فهو أحق بهذه المسؤولية؛ ويحتمل جدًّا ألاّ يكون لهذه الأرقام أيّ انعكاس على الواقع، وأن استراتيجية المسلمين، التي كانت تهدف إلى نشر الإسلام، لم تتغيّر فجأة ليصبح هدفها جمع السبايا، بدليل جنوح القائدين، على حدّ سواء تقريبا، إلى سياسة المصالحة والتحالف مع السكان الأصليين لغرض الإستعانة بهم لتحقيق أهداف تلك الاستراتيجية وهي نشر الإسلام إلى أبعد حدّ ممكن. وإلاّ كيف يمكن تفسير ترك موسى لجيش كبير، أغلب عناصره من البربر، بقيادة طارق بن زياد البربري، ومعه قليل من العرب، والعودة إلى القيروان؟.

وبالنسبة لابن قتيبة فإن ابن نصير رجع من سجوما إلى إفريقية سنة 84هـ[1] /703-704م ولما مرّ بقلعة مجانة تحصّن منه أهلها، فلم يتعرض لهم، وبعد وصوله إلى القيروان أخرج إليه قائده بشر بن صفوان[2]. أو أنه تركه عليها عندما مرّ بها وتحصّن أهلها منه[3]. ولم يتمكن سكانها الروم من الصمود طويلا أمامه " فدخلها، فقتل المقاتلة وسبى الذرّية وغنم منها أموالا كثيرة... وبعث بالخمس إلى موسى بن نصير، وبعث موسى خمس إلى الوليد فكانت قيمة ذلك الخمس عشرين ألف دينار"[4]. وصارت تلك القلعة تعرف، بعد ذلك، بقلعة بشر[5]. ولم يعُد لموسى بن نصير. في إفريقية، بعدئذ، من ينزعه[6]، لا من البربر ولا من الروم[7]، ثم " أسلم بقية البربر على يد اسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر سنة إحدى ومائة "[8] (101هـ/719-720م).

---

1 الإمامة والسياسة، 2، 232.

2 رقيق القيرواني: المصدر السابق، ص 70.

3 ابن الأثير: الكامل، 4، 252؛ En – Noweiri : op.cit., p.344

4 رقيق القيرواني : المصدر السابق، ص 70-71.

5 نفس المصدر، ص 70؛ ابن الأثير: الكامل،4، 252؛ En- Noweiri : op.cit , p.344

6 ابن الأثير: الكامل،4، 252.

7 En – Noweiri : op.cit., p.344

8 ابن خلدون: العبر،6، 220.

علماً أن ابن عبد الحكم يرجّح ألاّ يكون موسى بن نصير قد سار بنفسه إلى طنجة بل يكون قد وجّه إليها " ابنه مروان مرابطا على ساحلها فجهد هو وأصحابه فانصرف وخلّف على جيشه طارق بن عمرو وكانوا ألفا وسبعمائة "[1] ويفنّد نفس المؤرخ الرواية التي تقدّر عددهم بـ "اثني عشر ألفا من البربر إلاّ ستّة عشر رجلا من العرب"[2] فإن صحّت هذه المعلومات فهذا يعني أن موسى كان يقيم في القيروان ومنها كان يوجه قادته إلى مختلف جهات إفريقية والمغرب، وقد يكون المؤرخون نسبوا بعض الحملات إليه، على اعتبار أنه القائد الأعلى للجيش هناك، وهذا لا ينفي - بطبيعة الحال - أن يكون قد قاد بعضها شخصيا.

والمهم أنه ولّى مولاه طارق بن زياد ولعلّه " من سبي البربر "[3] على " طنجة والمغرب الأقصى في سنة 85هـ/ 704-705م، وفي هذا التاريخ تم إسلام أهل المغرب الأقصى، وحولوا المساجد (أي أماكن العبادة) التي كان بناها المشركون إلى القبلة، وجعلوا المنابر في مساجد الجماعات..."[4] أي أن دعائم الإسلام قد ثبتت في تلك المنطقة النائية عن القيروان مما يعني أنها وُطّدت بشكل أكبر في المناطق الأقرب منه وأنّه بالإمكان الحديث عن إتمام فتح منطقة بلاد المغرب بكاملها.

وقد تُوّجت تلك العملية باجتياز طارق إلى شبه جزيرة إيبيريا، على رأس من كان معه من رهائن البربر الذين أخذهم حسّان من المغرب الأوسط وموسى من إفريقية والمغربين الأوسط والأقصى ومن كان مع هؤلاء من العرب، وذلك سنة 92هـ[5]/710-711م، قصد الشروع في فتحها، هي الأخرى، وهذه العملية نفسها إنّما تدلّ على أن المهمّة الأولى، من مهام الجيش الإسلامي، وهي فتح بلاد المغرب قد اكتملت، آنذاك لتفسح المجال لمهام أخرى ستنفّذ هذه المرة على يد عناصر جديدة، في أغلبها، هي العناصر المغربية البربرية التي آمنت بالإسلام واعتنقته ثم راحت تدعّم إخوانها، المشارقة العرب، من أجل توسيع رقعة الدين الجديد إلى أقصى حدّ ممكن.

---

1 فتوح، ص 88.
2 نفسه.
3 ابن عذاري: البيان، 1، 43.
4 نفسه.
5 نفس المصدر، 1، ص 42-43.

خاتمة

تبدأ حدود بلاد المغرب في الناحية الشمالية - الشرقية، عند بداية هضبة برقة أو العقبة الكبرى، عند السلّوم أو السلّم، وتتبع سواحل البحر الأبيض المتوسط إلى مدينة سلا، في أقصى الناحية الشمالية الغربية، ثم تنعطف جنوبا، على طول سواحل المحيط الأطلسي إلى موقع أوْليل، الواقع في بلاد جدّالة، التي يُعدّ مركز تجمّعها نغيرة، ثم أودغست فتادمكة وكوّار والواحات، في الزاوية الجنوبية - الشرقية، إلى نقطة البداية في السّلم، في الناحية الشمالية الشرقية.

شرع المسلمون في فتح هذه المنطقة، على يد عمرو بن العاص سنة 21 أو 22هـ/641-643م، فقام بعدة نشاطات في مناطق برقة وطرابلس وزويلة، ثم عاد إلى الفسطاط بمصر بسبب عدم تلقيه الضوء الأخضر من الخليفة عمر بن الخطاب، لفتح إفريقية وكان والي مصر بَعْدهُ، عبد الله بن سعد بن أبي سرح، أكثر حظا منه، لتمكنه من الحصول على موافقة خليفة المسلمين الثالث، عثمان بن عفان فحظي بشرف إنجاز هذا المشروع الكبير.

وقد وُفّق ابن سعد في تنفيذ مهمته تلك بمهارة فائقة حيث استطاع هزيمة البطريق جرجير وقتله ثم الإستيلاء على عاصمته سبيطلة لكنه عاد، في نهاية الأمر إلى الفسطاط بمصر، مقرّ ولايته، بغنائم معتبرة، دون أن يترك من يمثّله في إدارة تلك المنطقة التي انشغل عنها المسلمون بما عُرف بالفتنة الكبرى.

وردّدت المصادر، بعد ذلك، أخبارا كثيرة، مختلفة، أحيانا، ومتناقضة، أحيانا أخرى، فيما قد يكون معاوية بن حديج التجيبي قام به من نشاط بإفريقية، وذكرت له ثلاث حملات، حصرت تاريخها ما بين سنتي 34هـ/654-655م و 45هـ/665-666م؛ ومن أهم النتائج التي حققها آنذاك، تصديه للأسطول الذي أرسله الإمبراطور البيزنطي إلى إفريقية بقيادة نجفور أو أوليمة، وفتح مدينة جلولاء وحفر آبار حُديج وبناء معسكر القرن.

وعاد بعدئذ إلى مصر، بأمر من الخليفة معاوية بن أبي سفيان، الذي عيّنه واليا عليها في حين أسند ولاية إفريقية إلى عقبة بن نافع الفهري، وهو صحابيّ بالمولد نشط في مِحْوَر برقة - زويلة، منذ ولاية عمرو بن العاص الأولى على مصر (من سنة 20 إلى 25 هـ) واستمرت إقامته هناك إلى سنة 50هـ/670-671، وآنذاك جاءه التعيين المشار إليه

فزحف غرباً على رأس عشرة آلاف رجل حتى منطقة قونية أو قمونية، دون أن تعترضه صعوبات تذكر وشرع في تأسيس مدينة القيروان التي ستصير حاضرة إفريقية، لوقت طويل، واستغرقت عملية بنائه لها مدّة خمس سنوات. عُزل بعدها، بأبي المهاجر دينار، مولى مسلمة بن مخلد الأنصاري، الذي عُيّن مكان معاوية بن حُديج على ولاية مصر.

أمضى أبو المهاجر دينار على رأس ولاية إفريقية، مدّة سبع سنوات، بدأها، كما يتفق عليه المؤرخون، بإساءة عزل عقبة والامتناع عن النزول في مدينته، القيروان، بل راح يؤسس، عِوضاً عنها، مدينة أخرى هي مدينة دكرور أو تكرور. وقام بنشاطات عسكرية في ناحيتي قرطاجة وتلمسان، وهناك تَمكّن من أسر كُسيلة بن لمزم، رئيس قبيلة أورية البربرية، فاعتنق الإسلام على يديه وقرّبه من نفسه فصار صديقا حميما له.

ولما عاد عقبة إلى إفريقية ليتولّى أمرها، في عهد الخليفة يزيد بن معاوية، سنة 62هـ/681-683، انتقم لنفسه من أبي المهاجر، وشمل انتقامُه صديقَه كسيلة واصطحبهما معه في حملته الكبرى التي وصل فيها إلى ساحل المحيط الأطلسي، مروراً بباغاية والزاب وتاهرت وطنجة والسوسين: الأدنى والأقصى. وفي طريق عودته من تلك الحملة، تمكّن كسيلة من الإفلات منه، في مكانٍ مَا غرب مدينة طبنة ثغرَ إفريقية آنذاك، بينما كان قد سمح لأغلب أصحابه بمغادرة صفوفه إلى منازلهم بالقيروان. وبقي مع عددٍ لا يتجاوز الثلاثمائة عنصر، منهم أبو المهاجر، وكان قد اصطحبه معه، مقيّداً، مما شجع أعداءه، من الروم والبربر، وعلى رأسهم كسيلة الذي استطاع، على ما يبدو، تنظيم، صفوف هؤلاء، وانتهز فرصة حلوله بمدينة تهودة فحاصره بها وقضى عليه وعلى جميع أصحابه، بمن فيهم أبو المهاجر دينار، صديقه، وذلك سنة 63 أو 64 أو 65هـ/682 أو 683 أو 684 أو 685 م.

وما كان على زهير بن قيس البلوي، الذي سبق وأن استخلفه عقبة على القيروان، عند انطلاق حملته، بعد بلوغه خبر كارثة تهودة، سوى الانسحاب بالمسلمين إلى برقة، حيث بقي مرابطا إلى أن هدأت الاضطرابات التي كان المشرق مسرحا لها، أيام الأمير مروان بن الحكم وابنه الخليفة عبد الملك بن مروان، وعندها أمدّه عبد الملك بما كان يحتاجه، من مال ورجال، وأمره بالزحف على كسيلة، الذي كان سيطر على بلاد المغرب، دون أن يسيء إلى من عثر عليهم من المسلمين بالقيروان. وتقابل الرجلان في معركة حامية الوطيس بسهل ممس. وكانت الدّائرة، هذه المرة، على

كسيلة وأصحابه فهُزموا وقتل هو نفسه، مع الكثير منهم، وذلك حوالي سنة 69هـ/688-689م.

ثم إن زهيرا، بعدما طارد الفارين، من المنهزمين، وفتح بعض القلاع، عاد إلى القيروان. لكن زُهده، على ما يقال، حال بينه وبين الإقامة بها تجنّباً لرغد عيْشها. فغادرها، مع كثير من أصحابه، إلى المشرق، وترك الكثير منهم آمنين، لخلو البلاد من عدوّ ذي شوكة. وكان الروم، عندما علموا بزحفه على إفريقية، انتهزوا فرصة الفراغ الذي تركه في برقة وأخرجوا له أسطولا من جزيرة صقلية فأغاروا عليها، وقتلوا وسبوا الكثير من سكانها. ووافق هذا الأمر عودة زهير، بعد انتهائه من مهمته، فحاول أن يتصدّى لهم ولكن بدون جدوى، فقتلوه هو ومن كان معه من أصحابه، وبذلك حلّت بالمسلمين كارثة شبيهة بكارثة تهودة.

ورغم تأثر الخليفة عبد الملك بن مروان بخبر مقتل زهير وأصحابه، فإنه لم يستطع القيام برد الفعل المناسب، إلاّ بعد إخماد ثورة ابن الزبير وقتل زعيمها. وعندئذ اختار لتلك المهمة حسّان بن النعمان الغسّاني، وكان عامله على مصر، فوفّر له الظروف المناسبة للانطلاق على رأس أكبر حملة زحفت على المغرب، حتى ذلك الوقت، قوامها أربعون ألف رجل، حوالي 74هـ/693-694م. فكان أوّل ما قصده، بعد حلوله بالقيروان، مدينة قرطاجة، فاستولى عليها بدون كبير عناء، كما هزم المتحالفين من الروم والبربر في منطقتي صطفورة وبنزرت، قبل أن يعود إلى القيروان ويسير بعد ذلك إلى جبل أوراس لمواجهة الكاهنة رئيسة قبيلة جراوة البترية، لكن حظه، هذه المرة، كان سيّئا، إذ كبّدته تلك المرأة هزيمة نكراء، قتلت وأسرت فيها الكثير من أصحابه ولاحقته حتى أخرجته من منطقة قابس.

ولما وصل إلى برقة أقام هناك، فيما سيعرف بقصور حسان، تنفيذاً لأوامر الخليفة عبد الملك بن مروان الذي لم يستطع تقديم العون له فوراً بسبب مشاكل الخلافة في المشرق، مرة أخرى، إلاّ بعد خمس سنوات، سيطرت الكاهنة أثناءها على بلاد المغرب، وراحت تُحْدِث فراغا أمام المسلمين، بتخريبها وإزالة كل ما من شأنه، في نظرها، أن يجذبهم، من مدن وقرى ونباتات، فأضرّت بمصالح الناس، من بربر وروم، وسخط على سياستها الكثير منهم.

وكان خالد بن يزيد، وهو أحد أسراها، في المعركة التي هزمت فيها حسّان، والذي تبنّته، بعد إطلاق سراح زملائه الآخرين، يزوّد حساناً بأخبارها. فلما وصلته

الإمدادات والأوامر، من الخليفة عبد الملك، للزّحف عليها استفاد مما يمكن الاستفادة به منها، وانضمّ إليه، وهو في طريقه إليها الكثير من الساخطين عليها، وعلمت الكاهنة أنها مهزومة بل مقتولة، لا محالة، فأرسلت إلى القائد العربي ابنيها، مع أخيهما بالرّضاعة، خالد بن يزيد، وقرّرت خوض المعركة اليائسة معه، حفاظا على شرفها، فهزمت وقتلت فيها.

وقرّب حسّان ابني الكاهنة منه وجعلهما قائدين على من كان معه من البربر البتر ومن انضموا إليه كرهائن في مقابل تأمين أقوامهم، وبلغ مجموع هؤلاء اثني عشر ألف شخص، جعل على كل ستة آلاف منهم إبنا من ابني الكاهنة وضمّهم إلى صفوف جيشه، بعد إسلامهم، بطبيعة الحال، وراح يواصل عملية الفتح بهم، دون أي تمييز بينهم وبين إخوانهم الآخرين في الدين، في الحقوق والواجبات.

وعاد حسان بعد ذلك إلى القيروان، ليبنطلق منها إلى قرطاجة، عكس المرة الأولى، عندما علم بقيام الروم بغارة بحرية على مرسى رادس، فهزم أهلها وهرب مَنْ كان بها، من الروم، إلى صقلية والأندلس وخرّ بها قبل أن يعود، مرّة أخرى، إلى القيروان ليشرع في تنظيم إدارة البلاد التي استقامت أحوالها، أو أنه أقام مرابطا بتونس وأرسل وفدا إلى الخليفة عبد الملك، أو إلى ابنه الوليد الذي خلفه، بعدما وافته المنية سنة 86هـ/705-706م.

وقد تم عزل حسّان، وسفره إلى المشرق، وتولية موسى بن نصير منصبه في ظروف غامضة، واتبع موسى، بعد حلوله بالقيروان، تكتيكا جديدا، يقوم على غزو العدوّ الأدنى قبل الأقصى، عكس ما كان يفعله سابقوه. وواصل العمل بسياسة حسان في تأمين القبائل، في مختلف المناطق، مقابل احتجاز رهائن وضمهم إلى صفوف الجيش الإسلامي. وجَمَع أغلب هؤلاء في طنجة، وعيّن على رأسهم أحد مَواليه البربر، هو طارق بن زياد، وكلف بعض العرب بتعليمهم الإسلام في حين استقر هو في القيروان، مما يعني أن دعائم الدين الجديد قد ثُبّتت، في تلك المنطقة النائية عن عاصمة الولاية. وهو دليل على أنها وُطدت بشكل أكبر في المناطق الأقرب منها، وعلى إتمام عملية الفتح في بلاد المغرب بكاملها، وتُوّجت تلك العملية، أخيرا، باجْتياز طارق بن زياد البحر إلى شبه جزيرة إيبيريا، على رأس من كان معه من رهائن المغْربين، الأوسط والأقصى، ومن كان معهم من العرب، سنة 92هـ/710-711م، قصد الشروع في فتحها، هي الأخرى. وهذا دليل آخر على أن المهمة الأولى من مهام الجيش الإسلامي قد كلّلت بنجاح.

قائمة أهم المصطلحات الواردة في الكتاب

المصطلح باللغة العربية	المصطلح باللغة الفرنسية
الأشراف	Nobles
إفريقيا، إفريقية	Afrique
الأندلس	L'Andalousie
إفرنج	Francs
الأمان	Pacification
إمدادات	Renforts
قرى	Capitale
أمّ ولد	Concubine
أهل الذمّة	Les protégés
بحر الروم، البحر الأبيض المتوسط، بحر المغرب	La mère Méditerranée
البحر المحيط	L'océan atlantique
برقة، أنطابلس، بنطابلس	Cyrénaïque
بريّة-برّ، صحراء	Sahara
البسيط، السهل	Plaine
البطريق	Le patrique
بلاد الجريد	Pays des palmiers
بلاد المغرب	Le pays du Maghreb- le Maghreb
التّابعون	Les successeurs des compagnons du prophète

Le trône, le diadème	التاج
Frontière	ثغر
Les frontières syriennes	الثغور الشامية
Collecteur d'impôts	جابي خراج
Kouar	جاوان
Grégoire	جرجير
Tribut	الجزية
Galice	جليقية
Guerre sainte	الجهاد
Place forte	حصنٌ، معقل
Expédition	حَمْلَةٌ
Kouar	خاوار، كوّار
Impôts fonciers	خراج
Le quint	الخُمس
Le pays de l'islam	دار الإسلام
L'arsenal	دار الصناعة
Otage	رهينة
Les Roms, les Byzantins, les grecs	الروم، البيزنطيون
La marche	الزحف
Prisonniers	السّبي
Patrouilles	السّرايا
Piémont	سفح
Grande syrie	الشام

Colline	شرف
Le martyre	الشهادة
Aumône	صدقة
Haute egypte	صعيد مصر
Rocher	صفاة، صخرة
Sicile	صقلية
Tripoli	طرابلس
Nomades	ظواعن، رحالة
Remplacé par	عُزِلَ بـ
De force	عنوة
Révocation	العَزل
Armée	عَسْكَر، جَيْشٌ
District	عمل
Invasion	الغزو، الغارة
Bulletin	غنيمة
Ouverture, conquête	الفتح
Guerre civile	فتنة
Plaine	فحص
Parasange	فرسخ
Camp	فُسطاط
Désertique	قاحلة
Tribu	قبيل، قبيلة
Carthage	قرطاجة، قرطاجنة

Capitale	القصبة، المدينة
Château- fort	قلعة
Village, palais	القصر
Kairouan, camp	القيروان
Prétèsse, la Kahina	الكاهنة
Contrée	كُورَة
Lambésa	لميس، لامبيزا
Etendard	لواء
Libye	لوبية
Renfort	مَددٌ
Etapes	مراحل
Bateau, embarcations	مراكب
Stations	مراقي، محطات
Marmique	مراقية
Port	مَرْسى، ميناء
Byzacéne	مُزَاق
La grande mosquée	المسجد الجامع
Polythéiste	مُشْرِك
Détroit de Gibraltar	مضيق جبل طارق، الزقاق
Refuge	ملجأ
Affranchi	مولى
Christianisme	النّصرانية
Partira	النّهوض إلى

La Nubie	النُّوبة
Préciput	النفل ، الزيادة عن الحق
Pillage	النهب
Héraclius	هرقل
Bataille	الواقعة
Gouverneur	الوالي
Gurgla	ورجلان ، ورقلان
L'argent	الورق ، الفضّة
Bataille	وقائع ، معارك
Volubilis	وَليلَى ، وليلة
Julien	يُليان
Jonas	يونس

بيبليوغرافيا

- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، ط.الثانية، بيروت، 1418هـ/1998م.

- الإدريسي: القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق، تحقيق إسماعيل العربي، الجزائر 1903.

- المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق للإدريسي، حققه و ترجمه إلى الفرنسية محمد حاج صادق.

- نزهة المشتاق في:

Recueil des sources arabes concernant l'Afr.Occ.Du VIII au XVe s., Trad. Et notés par J.M.Cuoq, paris 1975.

- الاصطخري: كتاب مسالك الممالك، ط. ليدن 1967.

- البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، نشره البارون دوسلان، الجزائر، 1957.

البكري في:

Al-Bakri, Routier de l'Afr.Blanche et Noire, Trad.V. Monteuil dans l'I.F.A.N., T.XXX, série B, no1, 1968.

- البلاذري: كتاب فتوح البلدان، نشره صلاح الدين المنجد، ط.القاهرة.

- ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ط.دار الكتاب المصرية، القاهرة 1383هـ/1962.

- ابن عبد الحكم: فتوح إفريقية والأندلس، نشره وترجمه إلى الفرنسية Gateau A.، الجزائر 1948.

- ابن عبد الحكم في:

Recueil des sources arabes concernant l'Afr.Occ. Du VIII au XV e S., Trad et notés par J.M Cuoq, Paris 1975.

- ابن حوقل: صورة الأرض، الطبعة الثانية، أبريل 1967.

- ابن خرداذبة : في

Description du Maghreb et de l'Europe au IIIe/ IX S., extrait du « Kitab al Massalik Wal- mamalik », texte arabe et traduction fr.par Hadj-Sadok Mahammad.

- ابن خلدون : كتاب العبر، ط. دار الكتاب اللبناني، 1959.

- الدباغ وابن ناجي: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تصحيح وتعليق إبراهيم شبوح، ط.الثانية، القاهرة 1388هـ/1968م.

- ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تحقيق وتعليق محمد شمام، تونس.

- ابن رستة : كتاب الأعلاق النفيسة في :

Description du Maghreb et de l'Europe au IIIe/ IVe.S., texte arabe et Trad.Fr.par Hadj-Sadok Mahammad,Alger 1949.

- الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق وتقديم المنجي الكعبي، تونس، 1968.

- الزهري: كتاب الجغرافيا، حققه محمد حاج صادق، نشره المعهد الفرنسي بدمشق في Bulletin d'études orientales, T.XXXI, 1968.

- ابن سعيد: كتاب الجغرافيا، حققه ووضع مقدّمته وعلّق عليه اسماعيل العربي، ط. الثانية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982.

- ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج.س.كولان وإ.ليفي بروفنسال، ط. بيروت.

- العمري (ابن فضل الله): مسالك الأبصار وممالك الأمصار، ترجمه إلى الفرنسية

Gaudefroy Demoubynes, Paris 1927.

- ابن الفقيه الهمذاني في :

Extrait du Kitab al- Buldan, dans Description du Maghreb et de l'Europe au IIIe/ IX S., texte arabe et traduction française par Hadj-Sadok Mahammad, Alger 1949.

- ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، علق عليه ووضع حواشيه خليل منصور، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان 1418هـ/1997م.

- القزويني في :

Recueil des sources arabes concernant l'Afr.Occ. Du VIIIe au XVe S., Trad.Et notes par J.M.Cuoq, Paris 1975.

- الكندي : (أبو محمد بن يوسف): كتاب الولاة وكتاب القضاة، مهذبا ومصححا بقلم رفن كست، بيروت، 1908.

- ماجد (عبد المنعم): التاريخ السياسي للدولة العربية، ط.3، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة.

- المالكي: رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وزهادهم وعبادهم ونساكهم و...، نشره حسين مؤنس، القاهرة، 1951.

- المراكشي (عبد الواحد): المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، القاهرة 1368هـ/1949م.

- المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، في تحف الأشراف والملوك، تحقيق محي الدين عبد الحميد، ط. الرابعة، مصر 1384هـ/1964م.

- المقدّسي :

Al-Muqaddasi : Description de l'occident musulman au IVe/Xe s., texte arabe et traduction française, par Ch.Pellat, Alger 1950.

- مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار نشره Fagnan E. تحت عنوان:

L'Afrique septentrional au XIIe siècle de notre ère, Constantine 1900.

En –Noweiri : Conquete de l'Afr.Septentrionale par les mus.Et hist.De ce pays, sous les émirs arabes, dans Ibn, Khaldun, hist. Des berbères et des dynasties mus.de l'Afr. Septentrionale, traduite de l'Arabe par le Baron de Slane, T.1, Paris 1968.

- الوزّان (حسن) المعروف بـ:

Léon l'Africain, Description de l'Afrique, nelle èd. Traduite de l'Italien par A.Epaulard et autres, paris 1880.

- ياقوت الحموي: معجم البلدان، نشره أحمد سعيد الشنقطي 1323هـ/1906م.

- معجم البلدان في :

Recueil des sources arabes concernant l'Afr.Occ Du VIII e au XV e s., trad. Et notes par J.M.Cuoq, paris 1975.

- اليعقوبي : كتاب البلدان، ط. بريل.

كتاب البلدان في :

Recueil des sources arabes concernant l'Afr. Occ. Du VIII au XV e s., trad. et notés par J.M.Cuoq, paris 1975.

E.F.gautier : Le passé de l'Afrique du Nord, petite bibliothèque, payot.

De Slane (Mac.guckin) : Descripyion de l'Afrique septentrional, paris 1965.

H. Fournel : Les Berbers, Paris 1875

الفهرس

قائمة الكتب التي صدرت في إطار سلسلة الكتب الأساسية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

1- الأسس العقلية للسياسة

د. بليمان عبد القادر

2- علم النفس القياسي: المبادئ الأساسية

د. بوسنة محمود

3- دراسات في تاريخ الدولة العثمانية
والمشرق العربي (1288- 1916)

د. الغالي غربي

4- القوى السياسية والتنمية: دراسة
في علم الاجتماع السياسي

د. زمام نور الدين

5- معالم الحضارة العربية الإسلامية: مدخل - نظم
- علوم - زراعة وصناعة- اجتماعيات- عمارة والفنون - تأثيرات

د. سامعي إسماعيل

6- الميسر في العروض والقافية

د. لوحيشي ناصر

7- منهجية البحث في العلوم السياسية والإعلام

د. عامر مصباح

8- دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي

د. علاوة عمارة

9- الفتح الإسلامي لبلاد المغرب

د. بن عميرة

10- الاقتصاد والمجتمع في الشمال الافريقي القديم

د. عقون محمد العربي

11- اسس المنطق الصوري

د. رشيد فوقام



أنجز طبعه على مطابع

ديوان المطبوعات الجامعية

الساحة المركزية . بن عكنون

الجزائر



- د. محمد بن عميرة أستاذ محاضر بجامعة الجزائر .
- تحصل على شهادة الليسانس في التاريخ من جامعة الجزائر سنة 1970
- تحصل على شهادة دكتوراه الحلقة الثالثة من نفس الجامعة
- تولى إدارة معهد التاريخ فإدارة معهد الآثار ثم إدارة مركزيْ بوزريعة و بن عكنون التابعين لجامعة التكوين المتواصل.
- تحصل على شهادة دكتوراه دولة سنة 2005 ، من نفس الجامعة
- لديه عدة مؤلفات منشورة.

شرع المسلمون في فتح بلاد المغرب، على يد القائد عمرو بن العاص، سنة 21 هـ أو 22 هـ / 641 -643 م و تمكن خليفتُه، على ولاية مصر، عبد الله بن سعد بن أبي سرح من إلحاق هزيمة بالبطريق جرجير و الاستيلاء على عاصمته، سُبيطلة، سنة 27 هـ/ 647 - 648 م لكن تلك العملية توقفت، مدّة انشغال الناس بما عُرف بالفتنة الكبرى، و لم تُستأنف بالفعل إلاّ سنة 50 هـ/ 670 - 671 م بقيادة عقبة بن نافع الفهري، مؤسس القيروان التي ستصبح حاضرة إفريقية، لوقت طويل بعد ذلك.

غير أن جهود هذا الرجل لم تكتمل إلا بفضل جهود قادة آخرون، و هم على التوالي: أبو المهاجر دينار (55 - 62 هـ/ 675 - 683 م) و زهير بن قيس البلوي (حوالي سنة 69 هـ/ 688 - 689 م)، و حسّان بن النعمان الغساني (حوالي 74- 86 هـ/ 693 - 706 م) و موسى بن نصير الذي خلفه و الذي اكتملت في عهد ولايته تلك المهمة.

التخصص: التاريخ الوسيط

المستوى: التدرج وما بعد التدرج

www.opu-dz.com



9 789961 011430

رقم النشر: 4959

السعر: 640 دج